ملحق

السنة النبوية تقييدها ومكانتها في الشريعة الإسلامية

- الباب الأول : السنة ومهمتها
- الباب الثاني : تدوين السنة
- الباب الثالث : الصحابة الكرام والتابعون العظام

مقدمة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه وسلم

علم الحديث هو العلم الذي يعلمنا أقوال الرسول ﷺ وأفعاله وأحواله. وقد عد كثيرون القسم التقريري من السنة ضمن أفعال الرسول ﷺ، ولن نقف عند هذا لأنه لا يهم موضوعنا كثيرًا.

والمقصود من أقوال الرسول ﷺ هو كلامه خارج الوحي المتلو، أما المقصود من أفعاله ﷺ فهو الأفعال الصادرة منه والتي نحن مكلفون باتباع الجزء الأعظم منها. ومع عدم وجود ضرورة شرعية لاتباع أفعاله المتعلقة بعاداته الشخصية، إلا أن اتباعها بنية خالصة يقلب عاداتنا إلى عبادات ويضفي عليها البركة والثواب.

ومع أن هذا النوع الثاني من الأفعال لا يدخل في علم الفقه، إلا أن علم الحديث وقف عنده واهتم به، فأحوال الرسول ﷺ تدخل في محتوى علم الحديث، ولا تدخل في علم الفقه، فالفقهاء يقولون: إن كانت أحوال الرسول ﷺ من نوع الأفعال الاختيارية فهي داخلة ضمن الأفعال النبوية أصلاً، ولكن إن كانت شمائله الشريفة وميلاده النبوي والزمان الذي بعث فيه والمكان الذي وجد فيه.. الخ مما جاء في كتب السيرة والتي تشكل أساسًا للأحكام الشرعية فهي لا تدخل ضمن مقاصد الفقهاء، ولا تكون من أسس التشريع، بينما يدخل كل ما يخص النبي ﷺ ضمن علم الحديث وضمن اهتمام أهل الحديث.

أما السنة: فهي كل قول أو فعل أو تقرير أضيف إلى الرسول ﷺ، وتعد عند علماء أصول الفقه مرادفة للحديث.

ولا نود الدخول إلى هذا الموضوع الواسع جدًا، بل ندعه لأهل الاختصاص، ونقتصر هنا على نظرة سريعة ومجملة على بعض المسائل المهمة المتعلقة بالسنة. السنة هي المنبع الإلهي الثاني للشريعة والذي احتفظ به المسلمون منذ العصر النبوي وحافظوا عليه بجانب كتاب الله وأقبل عليه كبار العلماء في كل عصر في كل شأن وفي كل مسألة.

هناك آيات كثيرة في القرآن الكريم تأمر باتباع النبي ﷺ واتباع سنته إضافة إلى العديد من

الأحاديث الصحيحة التي بينت ضرورة هذا الاتباع، ومدى أهمية السنة في التشريع الإسلامي، ونستطيع أن نقول بأنها اتخذت أساسًا في الدين وفي الحياة الدينية بجانب القرآن الكريم في كل عصر إلا من قبل بعض المنحرفين القلة الذين لم يخل منهم أي عصر، وهي مرتبطة بالقرآن الكريم ارتباطًا قويًا بحيث لا تستطيع فصل القرآن عن السنة ولا فصل السنة عن القرآن.

تقوم السنة بتفسير مبهم القرآن وتفصيل مجمله وتقييد مطلقه وتخصيص عامه، وهذا سبب وعلة اقترانها بالقرآن الكريم واستحالة فصلها عنه.

تقوم السنة مثلاً بشرح الصلاة وأركانها وشروطها ودرجة صحتها أو فسادها وسننها وآدابها، وجميع تفاصيل الحج والتمتع والعمرة، والزكاة: نصابها، أنواعها، كيفية أدائها... الخ. كل هذه الأمور وغيرها جاءت مجملة في القرآن فقامت السنة بشرحها وتفصيل أدق أمورها. ومع أن أحكام المواريث جاءت عامة في القرآن، جاءت السنة بشروح لها فذكرت أن الأنبياء لا يورثون وأن القاتل يحرم من الميراث... الخ. من التفاصيل وأحكام التخصيص. كما أن هناك أحكامًا مطلقة كثيرة جاءت السنة فقيدتها، وأحكامًا ومسائل لم ترد أبدًا في القرآن بل جاءت بها السنة، فتحريم لحم الحمر الأهلية ولحم الحيوانات المفترسة وكذلك تحريم زواج ابن الأخ أو ابن الأخت من الخالات والعمات يمكن إيراده كأمثلة على هذا.

لذا، فقد رأت السنة بجانب القرآن منذ العصر الأول حتى اليوم اهتمامًا كبيرًا، وحوفظ عليها وسجلت ودرست وانتقلت مكتوبة من الأسلاف إلى الأخلاف.

كان رسول الله ﷺ يرى إطاعته واتباع سنته جزءً من الدين، ويريد من الشاهد تبليغ الغائب وانتقال سنته إلى الأجيال القادمة، ويوصي أصحابه بالرفق بالذين يأتون من أماكن بعيدة بقصد سماع الأحاديث، ويشجع على فهم أحاديثه جيدًا، لذا نرى أحيانًا يكرر كلامه ليساعدهم على فهم أحاديثه وحفظها.

لذا، نرى أن الصحابة الكرام -وقد عرفوا أنه بعث لتعليمهم وتربيتهم- يهتمون ليس فقط بالاستماع إلى أحاديثه المتعلقة بأسس الدين وقواعده، بل بكل تفصيل دقيق من تفاصيل حركاته وسكناته وحتى أموره الخاصة، ثم يكررون ما سمعوه منه فيما بينهم ويتداولون أحاديثه فيما بينهم حتى تنطبع في ذاكرتهم أو يسجلونها ويكتبونها. وكانوا يعدون كل كلام صادر منه ﷺ أبرك ذكرى وأفضل أمانة، ويجتهدون ألا تضيع حكمة واحدة منه، وقامت هذه الجماعة المباركة بحمل هذه الأمانة المقدسة في جو من الثقة والاطمئنان.

ثم إنهم ما كانوا يضيعون أي بيان أو ملاحظة أو توجيه، لأنهم كانوا يعرفون أنها توجيهات إلهية نورانية لا يمكن التفريط بها، وفيها نبع الحياة وسر الوجود.. القلوب صافية، والرسائل والتوجيهات الآنية نضرة وطرية، والقلوب مشتاقة، والأمور التي تتناولها هذه الأحاديث تتعلق بالسعادة الأزلية الخالدة، وما دامت هذه الأحاديث مفتاحًا للسعادة الأبدية فكيف يمكن التهاون في شأنها أو نسيانها أو خلطها مع غيرها. وهكذا كان، فقلوب هؤلاء النفر من الصحابة الذين أقاموا حياتهم على الصدق، وابتعدوا عن كل نوع من أنواع الكذب والغش لم تكن لترضى عن ضياع ذرة واحدة من الصدق، كما كانت مقفلة على جميع ما يخالف الحقيقة والصدق، وعلى فرض المستحيل فلو تدنى أحدهم إلى درك الكذب لتعالت المئات من أصوات الاستنكار والمعارضة وأخرست هذا الكذب وكانت إنذارًا للآخرين كذلك. وقد حدث ما يشابه هذا فعلاً تجاه بعض المتجرئين في حوادث نادرة.

أجل، لقد تكفل الصحابة الكرام بمهمة فهم السنة وحفظها، وذلك بتطوير طرق المحاكمة العقلية وطرق التحقيق وعرض كل ما يسمعونه على قواعد النقد، ويستنطقون الراوي ويريدون شهودًا على الرواية وبعد أن يمرروا الحديث على المحك يقوموا بكتابته وتسجيله.

ولم يكن عدد الصحابة الذين كانوا يسجلون ما يسمعونه عن النبي ﷺ قليلاً، حيث سجلت الأحاديث -مثلما سجل القرآن الكريم وكتب- ولكن بشكل غير رسمي وفي دفاتر خاصة. أما القول بأن تسجيل الأحاديث وكتابتها بدأ في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ فصحيح ولكنه ناقص، ذلك لأن ما حدث في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ كان تدوينًا رسميًا بأمر من الحكومة، ويشبه قيام أبي بكر ﷺ بجمع القرآن الكريم من حفظ حفاظ القرآن وكذلك مما كان مكتوبًا على الجلود وعلى الجريد وغيرها، وضم جميع سور القرآن ضمن دفتي كتاب واحد بشكل رسمي.

وإلا فإن كل ما كان يصدر عن النبي ﷺ كان يكتب ويسجل في عهده، ومن الأمثلة على هذا "الصحيفة الصادقة" لعبد الله بن عمرو بن العاص ﷺ والتي اشتهرت كثيرًا فيما بعد، و"الصحيفة" لهَمّام بن مُنَبِّه ﷺ و"المجموع" لزيد بن علي بن الحسين ﷺ، وقد أصبحت هذه الصحائف مصدرًا مهما عندما بدأ التدوين الرسمي للأحاديث.

وكما اهتم الصحابة بتسجيل الأحاديث وكتابتها، كذلك اهتموا بالحفاظ على أصلها اهتمامًا كبيرًا، فكانت أمنا عائشة رضي الله عنها تدقق هذه الأحاديث كلمة كلمة، وكان ابن عمر ﷺ يهتم بعدم تغيير حرف واحد عند رواية الحديث، أما ابن مسعود وأبو الدرداء رضي

الله عنهما وغيرهما من كبار الصحابة فكانوا يتحفظون جدًا من رواية الأحاديث وتصيبهم القشعريرة خوفًا أن تختلط كلمة من عندهم بكلمات الحديث.

وليس من المبالغة القول بأن التابعين أيضًا أبدوا هذه العناية وهذه الدقة وهذا الاهتمام بالأحاديث، ونستطيع أن نعد من هؤلاء سعيد بن المسيب والشعبي وعلقمة والثوري ﷺ. وفي العهود التالية ظهر علم تحقيق السند والمتن وتدوين علم الرجال بحيث صعب تسلل كلمة دخيلة إلى أصل الحديث، ولا أعتقد وجود أمة دققت المتون الدينية عندها مثلما فعلت الأمة الإسلامية.

المدخل

منذ أربعة عشر قرنًا نشعر أننا وراء سيد الأنام.. نستشعر هذا في أعماق وجداننا وخفقات قلوبنا وحنايا أضلاعنا.. شعور هو من العمق بحيث يخيل إلينا أحيانًا بأننا نحس في صدورنا بأنفاسه التي تحيي الرمم، وأننا لو خطونا خطوة واحدة فسنجده أمامنا.

لقد دخلت الدنيا إلى عهد من التغير والتبدل السريع.. سقطت النظم التي كانت تعادي فطرة الإنسان وتخالفها في مزبلة التاريخ، وبدأت الإنسانية تفيق وترجع إلى الدين من جديد بل تعدو نحوه عدوًا.. الأرثودوكس رجعوا إلى كنائسهم، والبوذيون إلى معابدهم والبراهمة إلى عقائدهم. لذا، كان من الطبيعي أن ترجع أمة محمد ﷺ إلى نبيها بعد أن بقيت سنوات طويلة حائرة هنا وهناك في ديار الغربة والضياع.

فكأن يد القدر الإلهي تناولت الحوادث التي جرت حتى النصف الأول من القرن العشرين ضدنا وأعطت لها وجهة جديدة، ووجهتها نحو رسول الله ﷺ، ففي جميع أنحاء العالم بدأت أمطار الرحمة ونسائم الرحمة تنزل وتهب، وبدأت السنابل الجديدة وأكمام الأزهار الجديدة تنمو وتتفتح من بين مخلفات الجليد والثلج والبرد السابق، ومن بين طيات الظلام أشرقت الأنوار التي طاردت الظلام وحصرته في الزوايا.

الجيوش المحمدية التي كانت تحمل معها النور والضياء إلى مختلف أنحاء العالم، والتي تركت منذ عصرين تقريبًا مهمتها، هذه الجيوش بدأت ترجع إلى معابدها التي سبق وأن تركتها وأهملتها، ترجع بكل فخر وبكل زهو غير مبالية بصرخات أعدائها الذين يحاولون إعاقة مسيرتها بالصياح والضوضاء.

أجل، في هذه الأيام تجري المحاولات لوضع البدائل للأنظمة الوضعية التي سبق وأن جاءت في ظل دعاية مكثفة واحتفالات صاخبة ولاسيما النظام الشيوعي الذي تلاحقه اللعنات الآن، إذ كما حاولوا في وقت من الأوقات إظهار "باسكال" و"بِرغسون" بديلاً عن موسى وعيسى ومحمد عليهم الصلاة والسلام وذلك تحت اسم الحياة المعنوية، فاليوم يحاولون وضع فكرة استحضار الأرواح وفكرة تناسخ الأرواح بديلاً عن الدين.

لقد كان لدى الإنسانية في جميع أدوارها التاريخية -كما يقول سلطان الشعراء[1]- منبعان: منبع نور، ومنبع وساخة. أجل، لا يختلف الوضع الآن عن أي وضع سابق، فالذين يريدون إحلال نظم عقيدية زائفة محل الدين لا يزالون يبذلون جهودهم في هذا السبيل. ولا يستغرب هذا منهم فهذا هو طبيعة نفوسهم، غير أن الغريب والشيء المستهجن هو قيام البعض عندنا بمحاربة السنة وجعل أنفسهم آلة بيد المستشرقين، إذ قاموا بنشر الشبه حول بعض الصحابة الكرام من أمثال أبي هريرة وأنس وعبد الله بن عمر ﷺ، ومثل هذه المحاولات تحاول المساس برسول الله ﷺ من طرف خفي، ولا يمكن التكهن بالأبعاد التي ستمضي إليها في المستقبل، فإذا امتدت هذه المحاولات إلى الرسول ﷺ، فلماذا لا تمتد أيضًا إلى جبريل عليه السلام، مثلما هو موجود في أحد المذاهب الباطلة؟

هذا، بينما السنة ضياء حياتنا ونورها، وهي المعالم والمصابيح التي تنير طريقنا التي تقودنا إلى رضا الله تعالى، ولا يستطيع أكبر الأولياء دونها أن يكون ذا فائدة كبيرة في إرشادنا في هذه الطريق الطويلة. ويعبر أحد الأولياء وهو الإمام الرباني عن هذا المعنى فيقول:

"لقد شاهدت في أثناء السَّيْر[2] بأن السنة النبوية تملك نورًا مختلفًا عن سائر الأنوار. أجل، فأنوار جميع الأولياء المنتشرة في الفضاء كانت تبدو خافتة بجانب نور أقل مسألة من مسائل السنة النبوية السنية"، ذلك لأن جميع الأولياء ليسوا إلا كواكب تحوم حول شمس النبوة الباهرة.. فنسبة أنوار الأولياء بالنسبة إلى النور النبوي هي بنسبة نور هذه الكواكب إلى نور الشمس. وكما قال صاحب "قصيدة البُرْدَة":

فإنه شمس فضل هم كواكبها يُظهِرْنَ أنوارها للناس في الظُّلَم

أما الذين يريدون النيل منه وإخفاء نوره فلن يوفقوا، لأنه ما من أحد استطاع أن يستر الشمس بالغربال.. وستبقى السنة النبوية إلى الأبد هادية للبشرية.

---

[1] المقصود هو الشاعر نجيب فاضل (١٩٠٥-١٩٨٣) الذي كان يحمل لقب "سلطان الشعراء" في تركيا. (المترجم)

[2] المقصود هو السير في المراتب القلبية والصوفية. (المترجم)

الباب الأول

السنة ومهمتها

أ. ما السنة؟

السنة في معناها اللغوي هي الطريقة أو السيرة سواء أكانت حسنة أم سيئة، ففي الحديث الشريف: «من سنّ في الإسلام سُنّةً حسنةً فله أجرها وأجر من عمل بها بعده من غير أن ينقص من أجورهم شيء، ومن سنّ في الإسلام سنّةً سيئة كان عليه وزرها ووزر من عمل بها من بعده من غير أن ينقص من أوزارهم شيء.»[1]

ومعنى السنة عند المحدثين والأصوليين والفقهاء هو كما يلي:

فالسنة حسب المحدثين: هي كل ما انتقل إلينا من رسول الله ﷺ من قول أو فعل -سواء بني عليه عمل أم لا- أو نهي، وهي حسب المذهب الحنفي إما فرض أو واجب أو سنة أو مستحب أو هي من شمائل النبي ﷺ وطراز حياته. فالسنة بهذا المعنى مترادفة مع الحديث أو مرادفة له.

أما معناها حسب الأصوليين فمختلفة قليلاً فهي حسب رأيهم: كل قول أو فعل أو تقرير صادر عن رسول الله ﷺ، أي هي كل قول من رسول الله ﷺ وكل تصرف منه وكل تقرير أي كل ما رآه ولم يمنعه أو وافق عليه بسكوته.

أما السنة عند الفقهاء فهي مقابل البدعة في التشريع، أي ينظرون إليها من ناحية كونها تشكل أساسًا للفرض أو الواجب أو الحرام.

والحديث مصدر من "حدّث" أي أخبر، ثم أطلق على كل قول أو فعل أو تقرير صادر عن رسول الله ﷺ. يقول ابن حجر بأن الحديث في عُرف الشريعة كل شيء منسوب إلى الرسول ﷺ.[2]

---

[1] مسلم، الزكاة ٦٩؛ النسائي، الزكاة ٦٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢٠٣.

[2] شرح شرح نخبة الفكر لعليّ القاري، ص١٥٤.

وقد حدس بعض فحول العلماء من كلمة الحديث ما لم يكن إلهي الصفة أي ليس له صفة القدم والإيجاز، وهذا مهم من ناحية الإشارة إلى بدء نقاط الافتراق بين القرآن الكريم وبين السنة. ويؤيد هذا ماجاء في إحدى الأحاديث الواردة في سنن ابن ماجه حيث يقول الرسول ﷺ: «إنما هما اثنان: الكلام والهَدْيُ، فأحسن الكلام كلام الله وأحسن الهَدْيِ هَدْيُ محمد.»[١]

١) أنواع السنة

نستطيع أن نرجع السنة بعد تعريفها إلى هذه الأنواع:

أ- السنة القولية

أي الأحاديث الكريمة الصادرة عن الرسول ﷺ، فالأحاديث النورانية هذه تكوّن جزءً من السنة، وهي البيانات التي لم ترد في القرآن الكريم ولكن أخذت في كتب الفقه كأسس لكثير من الأحكام. ونستطيع أن نذكر أمثلة على هذا:

١. يقول الرسول ﷺ: «لا وصية لوارث»،[٢] أي لا يستطيع من يخلف مالاً لورثته أن يوصي ببعض ماله لوارث دون آخر. يستطيع أن يتبرع بجزء من ماله على ألاّ يزيد عن الثلث للمؤسسات الخيرية ولكنه لا يستطيع تعيين المقادير التي يأخذها كل وارث من الميراث، بل الكتاب والسنة هما اللذان يعينان هذه المقادير.

٢. هناك حديث آخر دخل ضمن أصول الفقه ومبادئه وهو قوله ﷺ: «لا ضَرر ولا ضِرار»،[٣] أي لا يجوز الإضرار بأحد ولا مقابلة الإضرار وبالإضرار.

٣. وحديث آخر عن مقدار الزكاة في الزرع: «فيما سقت السماء والعيون العُشر، وما سقي بالنضح نصف العُشر.»[٤] وما سقى بالنضح: أي ما سقي بواسطة الحيوانات.

٤. عندما سئل الرسول ﷺ عما إذا كان من الجائز التوضؤ من ماء البحر أجاب بجواب أصبح مصدرًا للمئات من الفتاوى إذ قال: «هو الطُّهور ماؤه الحِلُّ مَيتته.»[٥]

---

[١] ابن ماجه، المقدمة، ٧.

[٢] الترمذي، الوصايا ٥؛ النسائي، الوصايا ٥؛ ابن ماجه، الوصايا ٦.

[٣] ابن ماجه، الأحكام، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣١٣/١.

[٤] البخاري، الزكاة ٥٥؛ مسلم، الزكاة ٧؛ الترمذي، الزكاة ١٤.

[٥] أبو داود، الطهارة ٤١؛ الترمذي، الطهارة ٥٢؛ النسائي، الطهارة ٤٧؛ ابن ماجه، الطهارة ٣٨.

ب- السنة الفعلية

وهي السنة النابعة عن أفعال رسول الله ﷺ وسلوكه وتصرفاته والتي لم تذكر في القرآن صراحة، فمثلاً ورد في القرآن الكريم أوامر حول أداء الصلاة، وجاء في بعض الآيات أن اركعوا واسجدوا، ومع أنه ورد فيه ذكر بعض الأوقات بشكل عام إلا أنه لم يتم بشكل مفصل ودقيق ذكر الأوقات ولا عدد مرات الصلاة أو عدد الركع ولا كيفية أدائها ولا المفروضة منها أو الواجبة أو النافلة، ولا الأمور التي تبطل الصلاة. كل هذه الأمور بينتها تصرفات النبي ﷺ الذي قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي»[1] فأشار إلى التشريع الخاص للسنة. وهذا وارد أيضًا بالنسبة لمناسك الحج، فكثير من العلماء أخطأوا في هذا الأمر، وحتى من قاموا بتأليف الرسائل والكتب حول مناسك الحج لم يستطيعوا أداءها دون الاستعانة بإرشاد السنة النبوية. وهناك حادثة مروية عن ابن الهُمام في هذا الموضوع. أي أن مناسك الحج المعقدة بعض الشيء -مثلها في ذلك مثل الصلاة- وضحت بالسنة النبوية.

ج- السنة التقريرية

كان رسول الله ﷺ عندما يرى تصرفًا لا يعجبه من بعض أصحابه ينبه هؤلاء الأصحاب دون أن يذكر اسمًا معينًا ولا يهتك سرًا، إذ يصعد المنبر ويقول: «ما بال أقوام يفعلون كذا وكذا.»[2] ومع كونه متسامحًا جدًا عندما يتعرض لمعاملة سيئة فلا ينتقم لنفسه بل يصفح، إلا أن الأمر إن تعلق بانتهاك حرمة من حرمات الله فلا يسكت أبدًا، ووصفت والدتنا عائشة رضي الله عنها خلقه هذا فقالت: "ما خُيّر النبي بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم. فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه. والله ما انتقم لنفسه في شيء يُؤْتَى إليه قط حتى تنتهك حرمات الله فينتقم لله."[3]

وكان أحيانًا لا يمنع تصرفًا معينًا بل يسكت عنه، أي يعلن إقراره ورضاءه بسكوته، وهذا يشكل القسم التقريري من السنة.

١. مثلاً خرج صحابيان في سفر فلم يجدا ماء فتيمما وصليا، وبعد مدة وجدا الماء ولم ينقض بعد وقت الصلاة فتوضأ أحدهما وأعاد الصلاة ولم يفعل الآخر. ثم جاءا إلى النبي

---

[1] البخاري، الأذان ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣/٥.

[2] البخاري، الصلاة ٧٠؛ مسلم، النكاح، ٥.

[3] البخاري، الحدود ١٠؛ مسلم، فضائل ٧٧، ٧٨؛ أبو داود، الأدب ٤.

ﷺ وسألاه رأيه، فقال للذي لم يعد الصلاة «أصبت السنة» وقال للذي أعاد صلاته «لك الأجر مرتين.»[١]

٢. عندما قرر الرسول ﷺ تأديب قبيلة بني قريظة قال لأصحابه: «لا يصليَنَّ أحد العصر إلا في بني قريظة»، فأدرك بعضهم العصرَ في الطريق فقال بعضهم: لا نصلي حتى نأتيها، وقال بعضهم: بل نصلي، لم يُرِدْ منا ذلك. فذكر ذلك للنبي ﷺ فلم يعنِّف واحدًا منهم.[٢] وهذا مثال على السنة التقريرية.

٢) السنة في القرآن الكريم

السنة روح حياتنا، والقرآن الكريم يقرر السنة ويؤكدها، لا بل يعدها أساسًا في الإسلام لا يجوز الاستغناء عنه أبدًا، وإليكم بعض الآيات في هذا الشأن:

أ. ترد عدة آيات تشبه إحداها الأخرى مع وجود فوارق قليلة بينها وبالمعنى التالي: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ اٰيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ﴾ (الجمعة:٢).

والكثرة الغالبة من المفسرين الكرام فسروا الكلمة "الحكمة" بـ"السنة". ذلك لأن القرآن ليس كتابًا تحشر فيه الكلمات كيفما اتفق، أو يُستعمل فيه الإطناب والتطويل دون معنى أو غاية، ولا يمكن أن يكون المقصود من "الحكمة" في الآية الكريمة هو "الكتاب" أو جزء منه، لأنه ما كان يجوز آنذاك عطف "الحكمة" على "الكتاب". والمقصود من "الكتاب" هنا -كما ورد في أماكن أخرى عديدة- هو القرآن الكريم. أما الحكمة فالمقصود منها هو السنة الصادرة من النبي ﷺ التي تفصل مجمل الكتاب أو تفسر مبهمه، أو تخصص عمومه، أو تقيد مطلقه.

ب. وفي آية أخرى يقول الله تعالى بأنه لا يرسل الرسل إلا ليطاعوا: ﴿وَمَا أَرْسَلنَا مِنْ رَسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللهِ﴾ (النساء:٦٤). يرسل الله تعالى الأنبياء لكي يُطاعوا، وليس إطاعة النبي إطاعة لشخصه بل لكونه وسيلة إلى الهدى المادي والمعنوي للفرد وللمجتمع، ولكونه مبلغًا عن الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا أَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَوَلَّوْا عَنْهُ﴾ (الأنفال:٢٠)، و﴿أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ﴾ (النساء:٥٩؛ النور:٥٤).

---

[١] أبو داود، الطهارة ١٢٦؛ الدارمي، الطهارة ٦٥.

[٢] البخاري، المغازي ٣٠، الخوف ٥؛ مسلم، الجهاد ٦٩.

وإطاعة الله الواردة في الآيات ليست مثل إطاعة الرسول، فإطاعة الله تكون باتباع أوامره والابتعاد عن نواهيه، واتباع الرسول تكون باتباع سنته أي باتباع أوامره ونواهيه وأفعاله وما صدر عنه من إقرار، وهذا أمر واضح من أوامر القرآن الكريم. ذلك لأنه خارج إطاعة أوامر الله تعالى واجتناب نواهيه المبلغة بواسطة الرسول ﷺ هناك أوامر ونواهٍ مستقلة موجودة في السنة النبوية، وهناك ترغيب وترهيب ونصائح فيها حيث يقول الرسول ﷺ في هذا الأمر: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه.»[1]

وقد ورد في الآيات السابقة الأمر بالإطاعة مرتين: مرة بإطاعة الله تعالى، ومرة بإطاعة النبي ﷺ ثم أعقب بأمر "ولا تولوا عنه"، وهذا أمر باتباع السنة بل إشارة إلى أن التهوين من أمرها يُعد نوعًا من الارتداد.

ج. وهناك آيات أخرى في القرآن الكريم تتعلق بهذا الموضوع نورد بعضها:

جـ ١- ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُواْ أَطِيعُوا اللهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٥٩).

إذن، فبينما تأمر هذه الآية الكريمة المؤمنين بإطاعة أُولي الأمر منهم الآتين بعد الرسول ﷺ فكيف يمكن أن يخطر على البال عدم إطاعة فخر الكائنات؟ وكيف يمكن النظر إلى أحاديثه وأقواله وتصرفاته نظرة لامبالاة؟ وكيف يتصور عدم وجود صلاحية الأمر والنهي عنده؟

جـ ٢- ﴿وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا﴾ (الأنفال:٤٦).

تعد هذه الآية إطاعة الله ورسوله مصدر النصرة والقوة والوحدة وأساس الدولة. وعندما يتم البعد عن طاعة الرسول ﷺ، أو عند عدم معرفة إمام المسلمين أو عدم طاعته يظهر التيه فلا يدري أحد إلى أين يتجه، إذن، فالسبيل الوحيد لعدم الوقوع في النزاع والاضطراب هو إطاعة الرسول ﷺ والاقتداء به، لذا تقول الآية الكريمة: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللهِ وَالرَّسُولِ﴾ (النساء:٥٩).

إذن، فهذه هي الحقيقة.. حقيقة أن الرسول ﷺ وسنته هي التي تستطيع تأمين وحدتنا وقوتنا. لذا، ألا يفكر من يقف ضد السنة إلى أي شيء سيقودنا إنكار السنة وعدم إتباعها؟

جـ ٣- ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللهُ﴾ (آل عمران:٣١).

محبة الله تعالى تعني محبة الرسول ﷺ، ومحبة الرسول ﷺ تعني محبة الله تعالى. فلا

---

[1] أبو داود، السنة ٥.

يمكن أن تحب الله تعالى دون أن تحب نبيه ودون أن تتبع سنته، وأي ادعاء بحب الله دون حب رسوله ادعاء فارغ وباطل.

جـ ٤- ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١). إذن، فالطريقة الوحيدة للعثور على الصراط المستقيم من بين السبل الكثيرة والاتجاهات المتعددة هي اتباع الرسول الذي يمثل الاستقامة واتباع سنته.

جـ ٥- ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ﴾ (النساء:٦٥).

في رواية أن امرأة يقال لها أُمّ يعقوب -وكانت تقرأ القرآن- أتت عبد الله بن مسعود فقالت له: ما حديث بلغني عنك أنك لعنت الواشمات والمستوشمات والمتنمّصات والمتفلّجات للحسن والمغيّرات خَلْق الله؟ فقال عبد الله: ومالي لا ألعن من لعن رسول الله ﷺ؟ وهو في كتاب الله. فقالت المرأة: لقد قرأت ما بين لوحي المصحف فما وجدته. فقال: لئن كنتِ قرأتيه لقد وجدتيه. قال الله ﷻ: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا﴾ (الحشر:٧). ذلك لأن مثل هذا الحديث وارد عن الرسول ﷺ.[١]

٣) السنة في الأحاديث

بينت الأحاديث كذلك أهمية السنة وموقعها المتميز، ففي صحيح البخاري عن أبي هريرة ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «من أطاعني فقد أطاع الله ومن عصاني فقد عصى الله.»[٢]

طريق النبوة هو الطريق إلى الله، والسير خلف النبي هو السير في الطريق المنير المؤدي إلى الله. لذا، كان رفض السنة وإبعادها خارج الحياة والتمرد عليها تمردًا على الله تعالى. فالله تعالى يختار إنسانًا ذا روح صافية تعكس كل ما يتلقاه دون أي خطأ أو قصور، ويصطفيه من بين الناس ليرسل رسالته بواسطته إلى الإنسانية جمعاء، ويقوم هذا الرسول الكريم بشرح هذه الرسالة وتفسيرها وتقديمها إلينا، ثم يقوم البعض ممن فقدوا توازنهم بأخذ موقف عدائي ضد هذا الرسول. مثل هذا الموقف يعد عصيانًا لله تعالى وتمردًا عليه يستحق صاحبه دخول جهنم، ففي حديث ورد في صحيح البخاري أن رسول الله ﷺ قال: «كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى.» قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»[٣]

---

[١] البخاري، البيوع ٢٥ ؛ مسلم، اللباس ١٢٠ ؛ الترمذي، اللباس ٢٥.

[٢] البخاري، الأحكام، ١؛ مسلم، الإمارة ٣٢-٣٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١.

[٣] البخاري، الاعتصام ٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦١/٢.

وهناك حديث آخر ورد في سنن أبي داود والترمذي: «فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنتي وسنةِ الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعَضّوا عليها بالنواجذ» وتتمة هذا الحديث تؤكد أيضًا على الأهمية الفائقة للسنة «وإياكم ومحدَثات الأمور، فإن كل بدعة ضلالة.»[١]

وهناك حديث مشتهر على الألسن يقول: «المتمسك بسنتي عند فساد أمتي له أجر مائة شهيد.»[٢] ونحن نسوق لهؤلاء الذين يفتشون عن طريق آخر غير طريق السنة، نسوق لهم السؤال القرآني: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾!؟

ب. وظيفة السنة

السنة مصدر آخر للتشريع بجانب القرآن الكريم، تقوم -مثل القرآن الكريم- بتحليل بعض الأشياء وتحريم أخرى، وتضع مقاييس الفرض والواجب والسنة والمستحب والمباح والمكروه، كما تقوم بتفصيل مجمل القرآن وتفسير مبهمه وتخصيص عامه وتقييد مطلقه. والآن لنشرح هذه الأمور بعض الشيء.

١. تفسير القرآن

نقرأ كل يوم في صلاتنا سورة الفاتحة ونتضرع إلى الله تعالى بأن يهدينا الصراط المستقيم، صراط الذين أنعم عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين. ومع أن صفة المغضوب عليهم وصفة الضالين صفتان عامتان فهناك حديث شريف يقول: «فإن اليهود مغضوب عليهم، وإن النصارى ضُلاّل.»[٣] وهكذا يقوم الحديث بتفسير القرآن. فاليهود استحقوا الغضب منذ تاريخهم الماضي المظلم وفي أثناء العهد النبوي، وهم أول من يتبادرون إلى الذهن في هذا الخصوص على قاعدة أن "مطلق الذكر ينصرف نحو الكمال"، لأنه لا يوجد أحد مثلهم يستحقون الغضب، وذلك بقتلهم الأنبياء وبأخلاقهم الخسيسة وعاداتهم السيئة وعبادتهم للمال وكونهم حتى الآن ممثلي المادية في القرن العشرين، لذا فلا يملك الإنسان إلا الموافقة على هذا التفسير النبوي الشريف. ولاشك أن هذا الغضب الإلهي يشمل كل من اتصف بهذه الأخلاق اليهودية.

---

[١] أبو داود، السنة ٥؛ الترمذي، العلم ١٦؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦.

[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٧٢/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢٠٠/٨؛ الفردوس للديلمي، ١٩٨/٤.

[٣] الترمذي، تفسير القرآن (١) ٢؛ جامع البيان للطبري، ٦١/١، ٦٤.

ومن جانب آخر فإن النصارى الذين ساروا في أول الأمر على الهدى وعلى الصراط المستقيم واستمسكوا بكل شجاعة بدينهم الذي لم يكن سوى الدين الإسلامي الحنيف.. هؤلاء النصارى ضلوا الطريق لأسباب عديدة، أي سقطوا في الضلالة، لذا دخلوا ضمن صفة "الضالين" لذا، قال الرسول ﷺ بحقهم «وإن النصارى ضُلاّل» لأنهم قلبوا التوحيد إلى التثليث وغيروا الكتاب وحرفوه، لذا انطبقت عليهم صفة "الضالين" انطباقًا تامًّا. وسواء أكان الرسول ﷺ يقصد بهذا التفسير أقوامًا معينين أم سلوكًا خاصًّا، فلو لم يقم بهذا التفسير ما كان باستطاعتنا معرفة هذه الحقيقة المبهمة. وهكذا قام الرسول ﷺ بهذا التفسير بتوجيه الأنظار إلى بعض الأقوام وكذلك إلى بعض الحالات النفسية المنحرفة، وبين من وقع ولماذا وقع وبأي الأعمال استحق الغضب أو استحق الضلالة بيانًا واضحًا.

عندما نزلت آية: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يَلْبِسُوا إِيمَانَهُمْ بِظُلْمٍ أُوْلَئِكَ لَهُمُ الْأَمْنُ وَهُمْ مُهْتَدُونَ﴾ (الأنعام:٨٢) قلق الصحابة الذين كانوا يعرفون معنى الظلم وأنه الخروج خارج الحق والحقيقة، فقالوا للرسول ﷺ: وأينا لم يظلم؟ فقال الرسول ﷺ بأن الأمر ليس كما يظنون، وذكرهم بقول لقمان عليه السلام وهو يعظ ابنه: ﴿لاَ تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾ (لقمان:١٣).[١]

عرفنا من تفسيره ﷺ لهذه الآية أن الظلم المقصود هنا هو الشرك وليس أي ظلم أو تجاوز أو تعدٍ آخر. ولو لم يقم الرسول ﷺ بهذا التفسير لبقينا إلى الأبد تحت غموض وإبهام.

ويُروى عن أمنا عائشة رضي الله عنها وعن ابن مسعود رضي الله عنه أن "الصلاة الوسطى" الواردة في الآية ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةُ الْوُسْطَى﴾ (البقرة:٢٣٨) هي صلاة العصر إلى درجة أن عائشة رضي الله عنها كانت تقرأ هذه الآية كما يلي: "﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾ وصلاة العصر ﴿وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ﴾." وقال أبو يونس مولى عائشة رضي الله عنها: أمرتني عائشة رضي الله عنها أن أكتب لها مصحفًا فقالت: إذا بلغت هذه الآية فآذني ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوُسْطَى﴾ فلما بلغتها أذنتها فأملت عليّ ﴿حَافِظُوا عَلَى الصَّلَوَاتِ وَالصَّلاَةِ الْوسْطَى﴾ وصلاة العصر ﴿وَقُومُوا لِلهِ قَانِتِينَ﴾ وقالت: سمعتها من رسول الله ﷺ.[٢]

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٦) ٣؛ مسلم، إيمان، ١٢٤.

[٢] مسلم، المساجد ٢٠٧؛ الترمذي، تفسير القرآن (٢) ٢٩؛ أبو داود، الصلاة ٥.

٢. قيام السنة بتفسير مجمل القرآن

إلى جانب قيام السنة بتفسير مبهم القرآن قامت بتفصيل مجمله أيضًا.

مثلاً يأمر القرآن الكريم فيقول: ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾ ولكنه لا يوضح إقامة الصلاة ولا أوقاتها. صحيح أن بعض المفسرين ﷺ إستنبطوا الصلوات الخمس من الآية التالية: ﴿وَأَقِمِ الصَّلاَةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِنَ اللَّيْلِ إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ﴾ (هود:١١٤)، إلا أن السنة هي التي حددت أوقات هذه الصلوات التي يذكر الله تعالى بأنها مرتبطة بأوقات معينة: ﴿إِنَّ الصَّلاَةَ كَانَتْ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ كِتَابًا مَوْقُوتًا﴾ (النساء:١٠٣). فهناك حديث يبين أن أوقات الصلاة عينها جبريل عليه السلام، أي أن مصدرها سماوي وإلهي، عن ابن عباس قال قال رسول الله ﷺ:

«أمّني جبريل عليه السلام عند البيت مرتين، فصلى بي الظهر حين زالت الشمس وكانت قدر الشِّراك،[١] وصلى بي العصر حين كان ظلُه مثله، وصلى بي -يعني المغرب- حين أفطر الصائم، وصلى بي العشاء حين غاب الشفق، وصلى بي الفجر حين حرم الطعام والشراب على الصائم، فلما كان الغد صلى بي الظهر حين كان ظله مثله، وصلى بي العصر حين كان ظله مثليه وصلى بي المغرب حين أفطر الصائم وصلى بي العشاء إلى ثلث الليل، وصلى بي الفجر فأسفر ثم التفت إليّ فقال: يا محمد هذا وقت الأنبياء من قبلك، والوقت ما بين هذين الوقتين.»[٢]

فعَمَدَ رسول الله ﷺ إلى تعليم أمته بأوقات الصلاة فهو المرجع الوحيد لأمور كثيرة متعلقة بالصلاة مثل أقسامها من فرض أو واجب أو مستحب أو مكروه وما يفسدها، وشرح ركوعها وسجودها وقراءة التحيات فيها والخروج منها بالسلام. أجل، فهو المفسر الوحيد للصلاة التي جاء الأمر بها في القرآن الكريم بصيغة مجملة وهي ﴿أَقِيمُوا الصَّلاَةَ﴾، إذ قال: «صلوا كما رأيتموني أصلي.»[٣] ولو عَمَدَ القرآن إلى إعطاء كل تفاصيل الصلاة لزاد حجمه مرتين على الحجم الحالي، لذا ترك إيضاح هذه التفاصيل إلى صاحب الفطنة الكبيرة الذي هو أفضل من فهم عن ربه، وقام فعلاً بنقل هذا الوحي غير المتلو إلينا بالتفصيل المطلوب، وقد أنجز هذا بالفطنة التي تعني تجاوز العقل بالعقل والاستعانة بالإلهام في المواضيع التي يقف فيها العقل.

---

[١] الشِّراك: النعل المعدني الذي يدق في قدم الحصان.

[٢] أبو داود، الصلاة ٢؛ الترمذي، المواقيت ١.

[٣] البخاري، الأذان، ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣/٥.

والسنة هي التي شرحت مناسك الحج أيضًا. صحيح أن القرآن تناول موضوع الحج في موضع أو موضعين وقدم بعض الشروح القيمة، ولكن هذه الشروح تناولت جزءً من مناسك الحج، لذا نرى أن السنة هي التي عَمَدَتْ إلى شرح جميع مناسك الحج بالتفصيل، وهذه التفاصيل هي أضعاف ما ورد في القرآن الكريم. وقد أدى الرسول ﷺ الحج مرة واحدة، هذا الحج سمي بـ"حجة الوداع" لأنه ودع فيه أصحابه، وأدى مناسك الحج وهو راكب على بغلته بحيث يراه الجميع. شرح كل شيء بكلامه ثم بأفعاله إلى درجة التصريح بكونه صائمًا أم مفطرًا، وبعد أن أتم هذا قال لهم: «خذوا مناسككم»[1] مشيرًا إلى موقع كلامه وأفعاله في الشريعة. ولا شك أن القرآن الكريم لم يأتِ ناقصًا ولكنه جاء مع مبلغه ومع شارحه ومفسره الرسول ﷺ.

٣. قيام السنة بتخصيص بعض الأحكام

تناول القرآن الكريم الميراث بشكل عام فقال: ﴿يُوصِيكُمُ اللهُ فِي أَوْلاَدِكُمْ لِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الأُنْثَيَيْنِ﴾ (النساء:١١). وهذا الحكم عام يشمل الجميع سواء أكانوا أنبياء أم أولياء أم أصفياء أم من المقربين أم من الناس الاعتياديين، غير أن فاطمة رضي الله عنها عندما راجعت أبا بكر ﷺ بعد وفاة والدها لأخذ ميراثه قرأ أبو بكر ﷺ هذا الحديث الذي سمعه عن والدها النبي ﷺ: «إنا معشر الأنبياء لا نورّث، ما تركناه صدقة.»[2]

كما أن حديث «القاتل لا يَرِث»[3] يحرم القاتل من الميراث، فمن يقتل والده يحرم من ميراثه ومن يقتل عمه يحرم من ميراثه وكذلك من يقتل خاله أو أخاه. وهكذا قامت السنة بتقييد الحكم العام الذي جاء به القرآن في موضوع الميراث.

٤. تقييد السنة لبعض الأحكام

تقوم السنة أحيانًا بتقييد بعض الأحكام العامة الواردة في القرآن الكريم، فمثلاً يقول القرآن الكريم: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِنَ اللهِ﴾ (المائدة:٣٨). هذا أمر مطلق، ولم يتم شرح الشروط والظروف التي يجب توفرها لإجراء هذا العقاب ولا نصاب السرقة ولا مقدار ما يقطع من اليد، وبما أن اليد تمتد من الأطراف حتى

---

[1] مسلم، الحج ٣١٠؛ أبو داود، المناسك ٧٧؛ النسائي، المناسك ٢٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٦/٣.

[2] البخاري، الاعتصام ٥، الْخُمُس ١؛ مسلم، الجهاد ٥١؛ المسند للإمام أحمد، ٤٦٣/٢.

[3] الترمذي، الفرائض ١٧؛ ابن ماجه، الديات ١٤.

المرفق حسب الآية التي تشير إلى الوضوء[١] لذا، حددت السنة المطهرة الجزء الذي يقطع من اليد، أي قامت بتقييد حكم مطلق في القرآن. وعندما أمر النبي ﷺ بقطع يد أحد السراق من الكف فقد قيد ما جاء في القرآن في هذا الخصوص من حكم عام.

ومثال آخر، يقول القرآن الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ اٰمَنُوا لاَ تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ إِلاَّ أَنْ تَكُونَ تِجَارَةً عَنْ تَرَاضٍ مِنْكُمْ﴾ (النساء:٢٩). وتأتي السنة هنا فتقيد هذه الآية في موضوع معين، إذ ورد حديث شريف عن عبد الله بن عمر ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «لا تبيعوا الثمر حتى يبدو صلاحه.»[٢]

وكما قلنا سابقًا فالسنة أساس مستقل في التشريع لكونها تضع أحكامًا غير واردة في القرآن. ومن الأمثلة على ذلك تحريمها لحم الحمر الأهلية ولحوم الضواري وتحريمها الزواج بخالة الزوجة وعمتها.

والسنة التي تعد أساسًا مستقلاً في التشريع بدأت في إجراء عملها ومهمتها منذ بداية الوحي، والتحمت مع القرآن الكريم، وتم النظر إليها من هذا المنظار من قبل جمهور العلماء وجمهور الأمة. ولكنها تعرضت إلى هجوم من قبل المعتزلة الذين تأثروا بالفلسفة اليونانية مثل النظّام، ومن قبل المستشرقين الحاقدين على الإسلام الذين حاولوا على الدوام تعكير هذا النبع الصافي. وفي القرنين الأخيرين تأثر بعض رجال العلم المسلمين بهؤلاء المستشرقين بسبب مركب النقص عندهم تجاه الغرب، وأصبحوا أداة بيد المستشرقين، وبدأوا باتهام السنة والتهوين من شأنها. غير أن جهود السلف الصالح وما خلفوه من كتب وآثار قيمة استطاعت أن تقف في وجه هذه الحملات، وحافظت على صفاء هذا النبع ونقائه.. نبع السنة النبوية المطهرة.

---

[١] قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِذَا قُمْتُمْ إِلَى الصَّلاةِ فاغْسِلُواْ وُجُوهَكُمْ وَأَيْدِيَكُمْ إِلَى الْمَرَافِقِ وَامْسَحُواْ بِرُؤُوسِكُمْ وَأَرْجُلَكُمْ إِلَى الْكَعْبَينِ وَإِن كُنتُمْ جُنُباً فَاطَّهَّرُوا وَإِن كُنتُم مَرْضَى أَوْ عَلَى سَفَرٍ أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنكُم مِنَ الْغَائِطِ أَوْ لاَمَسْتُمُ النِّسَاء فَلَمْ تَجِدُوا مَاءً فَتَيَمَّمُوا صَعِيداً طَيِّباً فَامْسَحُوا بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُم مِنْهُ مَا يُرِيدُ اللّهُ لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ وَلَكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ وَلِيُتِمَّ نِعْمَتَهُ عَلَيْكُمْ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (المائدة:٦).

[٢] البخاري، البيوع ٨٢؛ مسلم، البيوع ٥١.

الباب الثاني

تدوين السنة

إن السنة التي تعد أحد الأركان الأساسية في الإسلام تدخل ضمن وعد الله تعالى بالحفظ بالآية الكريمة: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩). لذا، فقد دونت مثلما دون القرآن الكريم وحفظت عن ظهر قلب ووصلت إلينا دون تغيير، لذا سنتناول هذه الحادثة السعيدة من ناحية الأسباب وتطور مراحلها وخصائصها.

أ. ضرورة تدوين السنة

السنة هي طريقة معيشة رسول الله ﷺ، وأسلوب الحياة الإسلامية وأنموذج لكيفية التخلق بخلق الله ورسوله. فقد جعله الله تعالى أسوة وقدوة للناس ومنارًا للهدى ومعلمًا للحق، وقد قام الرسول ﷺ بهذا بتوجيهاته وأقواله وأفعاله وما أقره من تصرفات أو عمل، أي قام بهذا بسنته.

السنة نافذة مفتوحة على رسول الله ﷺ، وطريق مبارك موصل إلى يمن الإسلام وبركته، فمن أراد الهدى بخلوص قلب وصفاء نية أسرعت السنة النبوية لإجابة طلبه وتحقيق غايته وإرشاده إلى النور.

ب. العوامل المؤثرة في تدوين السنة

أدرك الصحابة أهمية السنة إدراكًا جيدًا، فالقرآن كان يتنزل عليه وكان يقوم بتبليغه إليهم وشرحه وتفسيره والعيش بمقتضى تعاليمه، أي توفرت لديه كل عوامل الفهم والإدراك.

١. حث القرآن على الاهتمام بالسنة

يقول القرآن الكريم: ﴿وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (الحشر:٧). فاسم الموصول "ما" الموجود في الآية الكريمة يشمل الوحي المتلوّ أي القرآن والوحي غير المتلوّ أي الأحاديث القدسية والأحاديث الشريفة، وحرف

"ف" هنا يوجب الاتباع والإطاعة. وكذلك نرى وجوب الانتهاء والابتعاد عن كل ما نهى عنه الرسول ﷺ، وتستمر الآية فتقول ﴿وَاتَّقُو اللَّهَ﴾ أي أن هذه الطاعة مسألة من مسائل التقوى يجب تنفيذها بكل دقة وحساسية.

وقد فهم الصحابة هذا الأمر جيدًا، وعلموا أنهم لن يحصلوا على تقوى الله إلا باتباع كل حديث وكل تقرير وكل فعل للرسول ﷺ. ولما كانت الآية الكريمة تنتهي بـ﴿إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ فما كان أي واحد منهم ليجرؤ على أخذ هذا التهديد إلا بمأخذ الجد، لأنهم كانوا أفضل كادر وجماعة سعت إلى رضوان الله تعالى وإلى التقرب إليه.

ويقول القرآن كذلك: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ (الأحزاب:٢١)، فيعلن بذلك أن التمسك بالسنة النبوية هو الطريقة الوحيدة للوصول إلى ساحل السلامة والأمن، وهو السبيل القويم الوحيد من بين السبل العديدة والطرق الكثيرة المتعرجة. وقد أدرك الصحابة الكرام هذا وأن سبيل النجاة هو في الالتحاق بقافلته ﷺ وركوب سفينته وأنهم إن فعلوا هذا استحقوا شفاعته يوم القيامة حيث يسجد وهو يقول: «أمتي!.. أمتي!..» فيقال له: "يا محمد ارفع رأسك، وسل تعطه، واشفعْ تُشفَّع."[1]

وهم يعرفون أن الويل هو للشخص الذي لن يعرفه الرسول ﷺ في البرزخ وفي المحشر وعلى الصراط يوم القيامة. لذا، كانوا يتتبعون كل حركة من حركاته وكل سكنة من سكناته ويلاحظونها بدقة، حتى تعابير وجهه ونظرات عينيه أو تبسم شفتيه.. يلاحظونها ويفهمونها ثم ينقلونها، لأنهم سمعوا من فمه المبارك هذا والحديث: «نضَّر الله امرأ سمع منا حديثًا فحفظه حتى يُبلّغه غيره.» وفي رواية أخرى: «نضَّر الله عبدًا سمع مقالتي فوعاها ثم بلغها عني.»[2]

٢. حث الرسول ﷺ على الاهتمام بالسنة

وكما جاء في الحديث السابق فقد حث الرسول ﷺ المسلمين على فهم مقالته وأحاديثه وعلى وعيها وتبليغها ويدعو الله أن ينضر وجه من يفعل ذلك، ذلك لأن دوام مهمته وبقاء الدين الذي جاء يبلغ به وإنقاذ البشرية مرتبط ومتعلق بهذا.

---

[1] البخاري، تفسير سورة (٢) ١؛ مسلم، الإيمان ٣٢٢.

[2] الترمذي، العلم ٧؛ أبو داود، العلم ١٠؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٨.

وفد وفد من قبيلة عبد القيس بعد فتح مكة إلى الرسول ﷺ وقالوا: "يا رسول الله! إنا لا نستطيع أن نأتيك إلا في الشهر الحرام، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مُضَر، فمرنا بأمرٍ فصْلٍ نُخبر به مَنْ وراءنا وندخل به الجنة"، فأمرهم الرسول ﷺ ببعض الأمور ونهاهم عن بعضها ثم قال لهم: «احفظوه وأخبروا به من وراءكم»[١] أي أمرهم بحفظ حديثه.

وخطبهم خطبة الوداع في حجة الوداع، فلما انتهى قال: «لِيبلِّغِ الشاهدُ الغائبَ، فإن الشاهد عسى أن يُبلّغ من هو أوعى منه.»[٢] ونراه في حديث آخر يحذر من كتم العلم: «من سئل عن علم ثم كتمه أُلجِم يوم القيامة بلِجام من نار.»[٣]

فكما أدرك الصحابة الكرام قيمة السنة وضرورتها أدركوا وجوب نقلها وضرورة تبليغها، فكما كانوا ينتشون ويسعدون من حث الرسول ﷺ لهم كانوا يرتجفون عندما يسمعون وعيده وتخويفه، كما كانوا في الوقت نفسه يسمعون تهديد القرآن الكريم لمن يكتم العلم: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُولَـئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلاَّ النَّارَ﴾ (البقرة:١٧٤). فمثل هذه الآيات كانت تخوفهم وترعبهم، لذا أقبلوا على الكتاب وعلى السنة يفهمونهما ويقومون بتبليغهما إلى الآخرين.

وكما كان الرسول ﷺ يعلم الصحابة القرآن الكريم كان يعلمهم السنة كذلك. فقد روي عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "علمني رسول الله ﷺ التشهد كفِّي بين كفيه كما يعلمني السورة من القرآن."[٤] وعن جابر بن عبد الله ﷺ قال: "كان رسول الله يعلمنا الاستخارة في الأمور كما يعلمنا السورة من القرآن."[٥]

كان رسول الله ﷺ يتحدث ببطء لكي يفهم السامعون كلامه جيدًا، وكان يكرر بعض كلامه ثلاثًا. عن عائشة رضي الله عنها أن النبي ﷺ كان يحدث حديثًا لو عده العاد لأحصاه.[٦] وفي رواية أخرى أن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم.[٧]

ولم يكتف بهذا بل شجع أصحابه على الاجتماع وتدارس كتاب الله وشؤون الدين، ففي

---

[١] البخاري، الإيمان ٤٠؛ مسلم، الإيمان ٢٤.
[٢] البخاري، العلم ٩؛ مسلم، القسامة ٢٩؛ المسند للإمام أحمد، ٤١/٥.
[٣] الترمذي، العلم ٣؛ أبو داود، العلم ٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢٤.
[٤] مسلم، الصلاة ٦١؛ أبو داود، الصلاة ١٧٨.
[٥] البخاري، التهجد ٢٥؛ أبو داود، الوتر ٣١؛ الترمذي، الوتر ١٨.
[٦] البخاري، المناقب ٢٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.
[٧] البخاري، المناقب ٢٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.

حديث له يقول الرسول ﷺ: «وما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله، يتلون كتاب الله، ويتدارسونه بينهم، إلا نزلت عليهم السكينة، وغشيتهم الرحمة وحفّتهم الملائكة وذكَرهم الله فيمن عنده.»[١] وهكذا كان الرسول ﷺ يحث أصحابه على تدارس كتاب الله ومعرفة معانيه وتدارس السنة التي هي تفسير كتاب الله.

٣. شوق الصحابة الكرام

كان شوق الصحابة الكرام لمعرفة معاني القرآن الكريم والسنة النبوية ونقل ما علموه إلى الآخرين كبيرًا، فقد علموا أنهم كانوا على شفا حفرة من النار، وأن الله تعالى أنقذهم منها بإرساله هذا الرسول الكريم إليهم، لذا صرفوا جل اهتمامهم لمعرفة أحاديثه السنية وأفعاله وما أقره وما نهى عنه، ويتذاكرون هذا فيما بينهم.

يقول أنس بن مالك ﷺ: "كنا نكون عند النبي ﷺ فنسمع منه الحديث فإذا قمنا تذاكرناه فيما بيننا حتى نحفظه."[٢] وكان أصحاب الصُّفّة بالأخص يقومون بإحياء الليل بالصلاة وقراءة القرآن وتدارسه، حتى أن عدد المتحلقين حول معلم واحد هناك كان يبلغ أحيانًا سبعين شخصًا، وكان الدرس يمتد أحيانًا حتى الصباح.

كانوا يسمعون من الرسول ﷺ حثًا على هذا التدارس، فمثلاً يسمعونه وهو يقول: «من جاء مسجدي هذا، لم يأته إلا لخير يتعلمه أو يعلّمه، فهو بمنزلة المجاهد في سبيل الله.»[٣] لذا، فما أن يتعلم أحد الصحابة عنه شيئًا حتى يسارع بتبليغ ذلك إلى غيره في شوق ولهفة لكي يستفيد الآخرون من علمه. ولم يكن هذا مقتصرًا على الرجال فقط، فالنساء كن يشاركن الرجال في هذا الأمر ولا يتأخرن عنهم.

كان النساء يصلين في المسجد خلف صفوف الرجال والصغار، فكن لا يسمعن جيدًا ما يقوله الرسول ﷺ، وأحيانا كان الرجال يملأون المسجد فلا يبقى لهن موضع فيه، فاشتكين إليه وقلن له: "غَلَبَنا عليك الرجال فاجعل لنا يومًا من نفسك."[٤] فوعدهن الرسول ﷺ خيرًا واستجاب لطلبهن ورتب لهن اجتماعًا معه ووعظهن وأجاب عن أسئلتهن.

كانت زوجات الرسول ﷺ معلمات للنساء، فكن ينقلن ما يفهمن من القرآن والسنة إلى

---

[١] مسلم، الذكر ٣٨؛ الترمذي، القراءات، ١٠؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢/٣.

[٢] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٦١/١؛ الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للخطيب البغدادي، ٣٦٣/١-٣٦٤.

[٣] ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣٥٠/٢، ٤١٨.

[٤] البخاري، العلم ٣٦، الجنائز ٦؛ مسلم، البر والصلة ١٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٤/٣.

الأخريات بحكم عيشهن معه ﷺ. وكان الرسول ﷺ يهتم بتعليم زوجاته لكي ينقلن عنه إلى النساء الأخريات وإلى الأجيال القادمة أيضًا. فكان ما يقوله لهن وما يشاهدنه ينتقل بواسطة أمّنا صفية رضي الله عنها إلى أهالي خيبر، وبواسطة أمّنا ميمونة رضي الله عنها إلى بني عامر بن صعصعة، وبواسطة أمنا أم سلمة رضي الله عنها إلى بني مخزوم، وعن طريق أمنا أم حبيبة رضي الله عنها إلى بني أمية، وعن طريق أمنا جويرية رضي الله عنها إلى بني المصطلق. فهؤلاء الزوجات الطاهرات لم يكن يقصرن في وظيفة الإرشاد والتبليغ عن رسول الله ﷺ إلى قبائلهن وأقاربهن، وكانت هذه القبائل تفتخر بمصاهرتها للرسول ﷺ.

٤. كلمات خلفت بصماتها وحوادث خلدت نفسها

كان رسول الله ﷺ يتحدث أحيانًا في مناسبات حيوية وهامة بكلام لايمكن إلا استقراره في الأذهان حيث لا يمكن نسيانه أبدًا، لأن الحوادث التي قيل فيها مثل هذا الكلام كانت حوادث مهمة لاسبيل إلى نسيانها، وكلما خطرت هذه الحوادث على الأذهان خطر معها ما قاله الرسول ﷺ فيها. لنعط بعض الأمثلة:

أ- عندما مات الصحابي الجليل عثمان بن مظعون ﷺ حزن رسول الله ﷺ عليه وبكى، ولم يكن يبكي عادة خلف ميت، ولكنه بكى خلف حمزة وعثمان بن مظعون ﷺ. روى ابن عباس أن النبي ﷺ دخل على عثمان بن مظعون حين مات فقالت زوجته أم العلاء: رحمة الله عليك أبا السائب، فشهادتي عليك لقد أكرمك الله. فقال لها النبي ﷺ: «وما يدريكِ أن الله أكرمه؟» فقالت: لا أدري، بأبي أنت وأمي يا رسول الله! فقال رسول الله ﷺ: «أما عثمان، فقد جاءه والله اليقين، وإني لأرجو له الخير، والله ما أدري وأنا رسول الله ما يُفعل به!» قالت: فوالله لا أزكّي أحدًا بعده أبدًا وأحزنني ذلك. فنامت فأُريتْ لعثمان عينًا تجري، فجاءت إلى رسول الله ﷺ فأخبرته، فقال: «ذلك عمله»[1] فهذه الحادثة ما كان بإمكان من شاهدها نسيانها أو نسيان ما قيل فيها.

ب- ومثلاً قاتل قُزْمان في معركة أُحد قتالاً شديدًا وأبدى شجاعة فائقة، وعندما مات من جراحه في المعركة ظنوا أنه مات شهيدًا وغبطه الكثيرون، ولكن رسول الله ﷺ أخبرهم أنه من أهل النار، فتعجبوا حتى جاء الخبر بأنه لم يمت في المعركة بل جرح جرحًا شديدًا فلما كان من الليل لم يصبر على الجراح فقتل نفسه، كما أن بعضهم سمعه وهو يقول بأنه

[1] البخاري، الشهادات ٣٠ ؛ المسند للإمام أحمد، ٢٣٧/١، ٣٣٥.

لم يقاتل في سبيل الله بل قاتل حمية. فأمر رسول الله ﷺ بلالاً قائلاً: «يا بلال! قم فأذِّن؛ لا يدخل الجنة إلا مؤمن. وإن الله لَيؤيِّد هذا الدينَ بالرجل الفاجر.»[١] فكلُّ مَن يتذكر معركة أُحد لابد أن يتذكر هذا الحديث الذي قيل فيها.

ج- يروي عمر بن الخطاب ﷺ الحادثة التالية: لما كان يوم خيبر أقبل نفر من صحابة النبي ﷺ فقالوا: فلان شهيد، فلان شهيد. حتى مرّوا على رجل فقالوا: فلان شهيد، فقال رسول الله ﷺ: «كلا، إني رأيته في النار، في بُرْدة غَلَّها[٢] أو عباءة.» ثم قال رسول الله ﷺ: «يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس أنه لا يدخل الجنةَ إلا المؤمنون.»[٣]

إذن، فكلما جاء ذكر معركة خيبر وجاء ذكر الشهداء وجاء ذكر الغنائم وجاء ذكر أوصاف من يدخلون الجنة تذكر الصحابة ما قاله الرسول ﷺ في تلك المعركة في هذا الخصوص، إذ لا يمكن نسيان هذه الحادثة ولا نسيان ما قاله الرسول ﷺ فيها.

أجل، لقد كانت الحقائق القدسية التي تذكرها السنة النبوية السنية تلتحم في الأذهان والقلوب مع الحوادث الجارية بشكل لا يمكن للأيام والسنين محْوها، إذن، فلم ينس الصحابة هذه الأحاديث، بل نقشوها في أذهانهم وحفظوها في قلوبهم وأرواحهم، وعاشوها في حياتهم ثم قاموا بنقلها تامة ومحفوظة إلى الأجيال القادمة.

د- كان الصحابة الكرام يوقرون النبي ﷺ توقيرًا كبيرًا ويتصرفون أمامه بأدب واحترام كبيريْن، وكلما زادت معرفتهم ومرتبتهم زاد احترامهم وتوقيرهم وأدبهم تجاهه، حتى أنهم كانوا يستحون أحيانًا من سؤاله فينتظرون من يتجرأ على السؤال. وفي أحد الأيام جاء رجل على جمل فأناخه في المسجد ثم عقله ثم قال بغلظة وجفاء: أيكم محمد؟ -والنبي ﷺ متكئ بين ظهرانيهم- فقال الصحابة: هذا الرجل الأبيض المتكئ. فقال له الرجل: ابنَ عبد المطلب! فقال له النبي ﷺ: «قد أجبتُك.» فقال الرجل للنبي ﷺ: إني سائلك فمشدد عليك في المسألة، فلا تجدْ عليّ في نفسك. فقال: «سل عما بدا لك» فقال: أسألك بربك ورب من قبلك، آلله أرسلك إلى الناس كلهم؟ فقال: «اللّهم نعم.» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصلي الصلوات الخمس في اليوم والليلة؟ قال: «اللّهم نعم» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تصوم هذا الشهر من السنة؟ قال: «اللّهم نعم.» قال: أنشدك بالله آلله أمرك أن تأخذ هذه

---

[١] البخاري، القدَر ٥؛ مسلم، الإيمان ١٧٨.

[٢] الغُلول: هو الخيانة في الشيء وفي الغنيمة خاصةً.

[٣] مسلم، الإيمان ١٨٢؛ الترمذي، السير ٢١؛ الدارمي، السير ٤٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣٠/١.

الصدقة من أغنيائنا فتقسمها على فقرائنا؟ فقال النبي ﷺ: «اللّهم نعم.» فقال الرجل: آمنت بما جئتَ به، وأنا رسولُ مَنْ ورائي من قومي، وأنا ضِمام بن ثعلبة أخو بني سعد بن بكر.[1]

والآن هل يستطيع ضِمام بن ثعلبة أو قومه أو جميع الصحابة الكرام الذين شهدوا خشونته في بدء الأمر ثم صدق إيمانه في الأخير؟ هل يمكن لأحد أن ينسى هذه الحادثة، أو ما قاله الرسول ﷺ آنذاك؟ كلا.. أبدا، إذ لا يمكن نسيان هذه الحادثة التي حفرت نفسها في العقول والأفهام.

هـ - استدعى الرسول ﷺ مرة أُبيّ بن كعب وقال له: «إن الله أمرني أن أقرأ عليك ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ (البينة:١)» قال: وسمّاني؟ قال: «نعم.» فبكى.[2] بعد هذه الحادثة كان بإمكان ابن أبي أن يقول مفتخرًا: "أنا ابن من قرأ الرسول عليه سورة البينة بأمر من الله تعالى." فهذه حادثة حفرت في ذاكرة أُبيّ بن كعب وأولاده وأحفاده.

٥. دقة الصحابة وجديتهم

كان الصحابة الكرام كأنهم خططوا وبُرمجوا على حفظ القرآن والسنة وعدم إضاعة حرف واحد منهما، وما كانوا يحتملون مثل هذا الضياع. والرسول ﷺ نفسه كان يبدي الاهتمام نفسه، فعند نزول الوحي كان يستعجل في قراءة الآيات واستعادتها مخافة النسيان حتى طمأنه الله تعالى ذاكرًا له ألا يقلق لأنه سيحفظ هذا القرآن وقال له: ﴿لاَ تُحَرِّكْ بِهِ لِسَانَكَ لِتَعْجَلَ بِهِ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة:١٧).

أجل، فكما كان الرسول ﷺ يبدي غاية الحرص والاهتمام والدقة في الحفاظ على الوحي الإلهي الملقى عليه، كان الصحابة الكرام أيضًا يبدون غاية الحرص والاهتمام لكل كلمة أو حرف يخرج من بين شفتي الرسول ﷺ، إذ كانوا يعرفون أنهم أمام فرصة لا تتكرر مرة أخرى.. فرسول الله ﷺ كان يشرح لهم ويعلمهم دينهم ويفسر لهم القرآن ويبين لهم أسس السعادة في حياتهم الأبدية، لذا ما كانوا يرغبون ببقاء أي شيء غامض أو مبهم لديهم.

في السنوات الأولى للخلافة الأموية كان المجاهدون المسلمون يقاتلون على أبواب إسطنبول، وعن إحدى المعارك التي جرت هناك ننقل هذه الرواية عن أسلم أبي عمران التُّجيبيّ قال: كنا بمدينة الروم، فأخرجوا إلينا صفًا عظيمًا من الروم، فخرج إليهم من

---

[1] البخاري، العلم ٦؛ أبو داود، الصلاة ٢٣؛ ابن ماجه، الإقامة ١٩٤؛ المسند للإمام أحمد، ١/٢٦٤.

[2] البخاري، تفسير سورة (٩٨) ١-٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٢٢.

المسلمين مثلهم أو أكثر، وعلى أهل مصر عُقبة بن عامر، وعلى الجماعة فضالة بن عُبيد، فحمل رجل من المسلمين على صف الروم حتى دخل فيهم، فصاح الناس وقالوا: سبحان الله يلقي بيديه إلى التهلكة. فقام أبو أيوب فقال: "يا أيها الناس إنكم تتأولون هذه الآية هذا التأويل، وإنما أنزلت هذه الآية فينا معشر الأنصار، لماّ أعزّ الله الإسلام وكثر ناصروه، فقال بعضنا لبعض سرًا دون رسول الله ﷺ إن أموالنا قد ضاعت وإن الله قد أعز الإسلام وكثر ناصروه، فلو أقمنا في أموالنا فأصلحنا ما ضاع منها، فأنزل الله على نبيه ﷺ يردّ علينا ما قلنا ﴿وَأَنْفِقُوا فِي سَبِيلِ اللهِ وَلاَ تُلْقُوا بِأَيْدِيكُمْ إِلَى التَّهْلُكَةِ﴾ (البقرة:١٩٥)، فكانت التهلكة الإقامة على الأموال وإصلاحها وتركِنا الغزو." فما زال أبو أيوب شاخصًا في سبيل الله حتى دُفن بأرض الروم.[1]

وهكذا نرى الصحابة يتعلمون دينهم عن الرسول ﷺ على الوجه الصحيح ويحفظون ما تعلموه، ثم يعلمونه للآخرين.

٦. الجو الجديد الذي أنشأه القرآن والسنة

كان كل ما جاء به القرآن آنذاك لذلك المجتمع البدائي أمرًا جديدًا وأصيلاً، وكان يبدو كل ما يجيء به القرآن والسنة شيئًا جذابًا لإنسان ذلك العهد. وبدأ عهد من التغيير والتبديل الذي يذهل العقل، فهؤلاء القوم الذين كانوا بدوًا يسكنون الخيام بدأوا يتهيأون ليكونوا معلمي العالم وقادته.. ففي كل يوم كانت تتنزل عليهم مائدة سماوية جديدة، وفي كل يوم كانت تلك الجماعة تستقبل أشياء جديدة وتُخاطَب حول أمور جديدة.. كانوا أذكياء بالفطرة وأصحاب ذاكر ة قوية، فإن سمعوا شيئًا مرة واحدة انطبع في أذهانهم فلا ينسونه. ونحن نجد حتى في هذه الأيام -التي ضعفت فيها الذاكرة لاعتماد الجميع على الكومبيوتر وآلات التسجيل الأخرى- أشخاصًا لهم قوة ذاكرة مدهشة بحيث يستطيعون حفظ القرآن الكريم في شهرين أو ثلاثة أشهر، بينما كان كل بدوي آنذاك له ذاكرة قوية جدًا يحفظون أي شيء يسمعونه.

بعد صلح الحُديبية بدأ الرسول ﷺ بإرسال الرسل إلى رؤساء القبائل وإلى رؤساء الدول، وبجانب هؤلاء الرسل أرسل المعلمين لكي يعلموا الناس أينما ذهبوا ما تعلموه من القرآن والسنة، وقد استفاد هؤلاء من جو الصلح واستغلوه استغلالاً جيدًا وانتشروا بين القبائل حتى أصبحت في كل ناحية من نواحي الجزيرة العربية مدرسة يدرس فيها القرآن

---

[1] الترمذي، تفسير السورة (٢) ١٩؛ أبو داود، الجهاد ٢٢.

والسنة، إلى درجة أنه عند فتح مكة كان عدد من استمع إلى الرسول ﷺ من العرب يزيد على عشرة آلاف شخص. في هذه الحملة التعليمية كان للنساء أيضًا نصيبهن منها بجانب الرجال، ولاسيما نصيب أمهات المؤمنين الطاهرات. وقد بلغ من انتشار هذه الحملة وسرعة تأثيرها أن الرسول ﷺ عندما حج حجة الوداع بعد سنتين استمع إلى خطبة الوداع ما يقرب من مئة ألف من المسلمين.

في هذا الحج نرى التبليغ المكثف للسنة، وإعطاء العديد من الفتاوى، فقد تحدث الرسول ﷺ إلى الناس عن الميراث وعن رفعه لثارات الدم، وتحدث عن حقوق النساء، وعن حرمة الربا وألقى العديد من النصائح التي تفيد أمته في مستقبل حياتها. وطلب من الشاهدين أن يبلغوا كلامه للغائبين.. لقد تم إكمال الدين واستكمال النعمة ورضي الله الإسلام دينًا للمؤمنين. كل هذه الأمور كانت جيدة سوى أمر واحد كان يحز في قلوب الصحابة، وهو علمهم أن الرسالة كملت وأن الرسول ﷺ سيفارقهم بعد إتمام مهمته وأداء رسالته، لذا فبينما كانت أعينهم تفيض دمعًا كانت آذانهم صاغية لما يقوله.[1] ثم ما لبث أن نزلت آخر آية في القرآن: ﴿وَاتَّقُوا يَوْمًا تُرْجَعُونَ فِيهِ إِلَى اللهِ ثُمَّ تُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ وَهُمْ لاَ يُظْلَمُونَ﴾ (البقرة:٢٨١). آية تذكر مدى أهمية الاعتصام بالدين، وتذكّر الصحابة وللمرة الأخيرة بمدى أهمية الوفاء للدين والوفاء للنبي ﷺ الذي صرف ثلاثا وعشرين سنة من حياته في تبليغ هذا الدين. كان الصحابة يدركون هذا.. سمعوا وفهموا ونفذوا ما فهموه وعاشوا حياتهم حسبه ثم نقلوا ما عرفوه وما سمعوه. وهكذا انتقلت السنة إلينا -مثلما انتقل القرآن- ضمن هذه القنوات الطاهرة النقية، وستنتقل إلى الأجيال القادمة حتى يوم القيامة.

ج. الحساسية التي أبداها الصحابة الكرام في اتباع السنة

مثلما اهتم القرآن الكريم برسالة رسولنا ﷺ، اهتم الصحابة بالمحافظة على كل شيء صدر منه، قبلوا ما جاء به وحافظوا عليه ونشروه. فلم يخطر ببالهم أبدًا أن يعارضوا الرسول ﷺ في أي أمر من الأمور، بل تقبلوا كل ما جاء به الرسول ﷺ وتشرَّبت أرواحهم بتعاليمه، فكما أشرب العجل في نفوس بني إسرائيل، أشرب هؤلاء الصحابة حب الحق وحب ممثل هذا الحق على الأرض وهو الرسول ﷺ. لذا، أبدوا حساسية كبيرة في موضوع السنة، كيف

[1] مسلم، الحج ١٤٧؛ أبو داود، المناسك ٥٦؛ ابن ماجه، المناسك ٨٤؛ المسند لأحمد، ٧٣/٥.

لا والقرآن الكريم يخاطبهم قائلاً: ﴿فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لاَ يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء:٦٥).

وقد انقضت كل دقيقة بل كل ثانية بل كل عاشرة من حياتهم في مثل هذه الحساسية والتسليم. وما كان بوسع أحد من الذين جاءوا بعدهم من الذين قضوا حياتهم ضمن هذه الحساسية والتسليم إلا إبداء كل الاهتمام بالسنة النبوية. والآن لنعط بعض الأمثلة:

١. سرية أسامة

كانت السرية الأخيرة التي شيعها الرسول ﷺ هي سرية أسامة. ففي الأيام الأخيرة من حياته السنية فكر في إرسال جيش إلى الروم وعين أسامة بن زيد على رأس هذه السرية. كان أسامة قد كبر في حجر رسول الله ﷺ، لأن الرسول ﷺ كان قد تبنى والده زيد بن حارثة بطل معركة مؤتة والشهيد فيها. استدعى أسامة إليه وقال له: «سِرْ إلى موضع مقتل أبيك فأَوطِئْهم الخيلَ، فقد ولَّيتُك هذا الجيش.»[١]

وكان في هذا الجيش صحابة كبار من أمثال أبي بكر وعمر وعثمان ﷺ. ولكن قبل أن يتحرك الجيش مرض الرسول ﷺ ثم ازداد مرضه وثقل، وجاء أسامة ودخل عنده وطأطأ رأسه فقبله رسول الله ﷺ وهو لا يتكلم وجعل يرفع يديه إلى السماء ثم يضعهما على أسامة. قال أسامة: فعرفت أنه يدعو لي، ثم جاء يوم الاثنين، ولوحظ بعض التحسن في صحة الرسول ﷺ فاستدعى إليه أسامة وقال له:«اُغْدُ على بركة الله.» فودعه أسامة وخرج إلى معسكره فأمر الناس بالرحيل، فبينما هو يريد الركوب إذ سمع بأن الرسول ﷺ يحتضر فرجع، وأقبل ومعه عمر وأبو عبيدة إلى بيت الرسول ﷺ فبلغهم وفاته.[٢] لقد رحل من بعث أسامة إلى مؤتة ولكنه خلف من بعده من يتابع دعوته ورسالته وميراثه بحق.

وبعد أن بويع لأبي بكر ﷺ بالخلافة اهتم بسرية أسامة مع أن خبر وفاة الرسول ﷺ شاع بين العرب وبدأت حوادث الردة. فمسيلمة الكذاب وأَسْوَد العَنْسِي كانا قد أعلنا نبوتهما في حياة الرسول ﷺ، فما أن بلغهما خبر الوفاة حتى أشعلا الجزيرة العربية بفتنة الارتداد. ومع هذا تقرر إرسال جيش أسامة لكي يواجه الجيش المحتمل إرساله نحو المدينة من قبل البيزنطيين، ذلك لأن الرسول هو الذي جهز هذا الجيش، وهو الذي قال: «أنفذوا بعث

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٩٠/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٤/ ٢٥٣؛ فتح الباري لابن حجر، ٧/ ٧٥٩.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٩١/٢؛ السيرة النبوية لابن هشام، ٣٠١/٤.

أسامة»، وما كان بإمكان الصحابة وعلى رأسهم أبو بكر ﷺ أن ينحرف قيد شعرة عن أمر الرسول ﷺ وقال: "واللهِ لا أحل عقدة عقدها رسول الله ﷺ ولو أن الطير تخطفنا والسباع حول المدينة."[١] ثم استعرض جيش أسامة وأمرهم بالمسير وسار معهم ماشيًا وأسامة راكبًا فقال أسامة: "يا خليفة رسول الله! إما أن تركب وإما أن أنزل" فقال: "والله لستَ بنازل ولستُ براكب."[٢] كان هذا هو مبلغ حساسية الصحابة في تنفيذ أوامر الرسول ﷺ.

٢. فاطمة رضي الله عنها وأرض فَدَك

عاشت المدينة المنورة هزة بعد وفاة الرسول ﷺ، فقد كانت الآلام تعتصر قلوب الصحابة ولاسيما قلب أبي بكر ﷺ. في هذه الأثناء قدمت فاطمة بنت رسول الله ﷺ إلى أبي بكر تسأله ميراثها من والدها في فَدَك. فماذا يعمل أبو بكر ﷺ؟ وكيف يجيبها وهو يحبها ولا يرغب أبدًا في إزعاجها؟ كانت ذكرى من الرسول ﷺ وابنته التي كان يحبها ويعدها بضعة من نفسه. ولكن ارتباطه بسنة رسول الله ﷺ كان أقوى من أي رابطة أخرى، لذا قال لها: "واللهِ لا أَدَع أمرًا رأيت رسول الله ﷺ يصنعه فيه إلا صنعته."[٣] وأبلغها أن الرسول ﷺ قال: «لا نورثُ، ما تركناه صدقة.»[٤] فما تركه يجب صرفه في الوجوه التي كان يصرف فيها. إذن، فحتى في أحرج الأوقات لم يكن هناك أي انحراف عن السنة.

٣. الموقف من الذين امتنعوا عن أداء الزكاة

في تلك الأيام نفسها كان هناك من يتكاسل عن الصلاة أو يستثقل أداء الزكاة، وعندما عظمت فتنة الردة رأى عمر ﷺ أن يُسمح بعدم أداء الزكاة فترة من الوقت حتى تقوى شوكة الإسلام بعد تلك الفتنة التي انتشرت في كل مكان، واستند في ذلك إلى حديث عن رسول الله ﷺ حيث يقول: «أُمِرت أن أقاتل الناسَ حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدًا رسول الله، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابهم على الله.»[٥]

ولكن أبا بكر ﷺ لم يقبل هذا وقال قولته المشهورة: "واللهِ لأقاتلن من فرَّق بين الصلاة

---

[١] البداية و النهاية لابن كثير، ٣٣٥/٦؛ مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ٢٥١/٤.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٦/ ٣٣٦؛ كنز العمال للهندي، ١٠/ ٥٧٩.

[٣] البخاري، الفرائض ٣؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ١/ ٤.

[٤] البخاري، الْخُمُس ١، المغازي ١٤؛ مسلم، الجهاد ٥٢؛ المسند للإمام أحمد، ١/ ٤.

[٥] البخاري، الإيمان ١٧؛ مسلم، الإيمان ٣٦.

والزكاة، فإن الزكاة حق المال، واللهِ لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله ﷺ لقاتلتُهم على منعها."[١] وهكذا أظهر مدى حساسيته ومدى اتباعه للرسول ﷺ.

ولم يكن عمر بن الخطاب ﷺ أقل منه حساسية في هذا الأمر، فعندما كان يذكّر بآية أو بحديث نبوي وهو يخطب أويتكلم أو يعطي تعليماته يقف حالاً ويصبح أذنا صاغية، لذا أُطلق عليه وصف "الوقّاف عند الحق."[٢] وهناك روايات في كتب التاريخ والحديث بأن عمر بن الخطاب اعترف بأنه قد أخطأ وأن امرأة خاصمته قد أصابت قائلا: "اللّهم غَفْرًا، كل الناس أفقه من عمر!"[٣] ومثل هذا الاعتراف زاد من قدر هذا العملاق. وهناك أمثلة متعددة في هذا الموضوع، وكلها تظهر أن هذا الرجل العملاق لم يكن يتأخر أبدا عن الاعتراف بالحق، ولا يعترض أبدا على الحق، بل لا يخطر ذلك على باله.

٤. مدى الحساسية في اتباع السنة

أ- كان عمر ﷺ رجل فراسة ومنطق وكياسة، ورجلاً عبقريًا، فعرض له مرة مسألة دية أصابع اليد فاجتهد فيها برأيه إذ جعل في الخنصر ستًا من الإبل وفي البنصر تسعًا وفي الوسطى عشرًا وفي السبابة اثنتي عشرة وفي الإبهام ثلاث عشرة، ولكن ما أن بلغه حديث رسول الله ﷺ: «دية أصابع اليدين والرجلين سواء عشرة من الإبل لكل أصبع» حتى رجع عن رأيه متبعًا سنة رسوله ﷺ.[٤]

ب- جاء في رواية عن عبد الله بن السعدي أنه قدم على عمر في خلافته فقال له عمر: ألم أُحَدَّثْ أنك تلي من أعمال الناس أعمالاً فإذا أعطيتَ العُمالة كرهتها، فقلت: بلى. فقال عمر: ما تريد إلى ذلك؟ قلت: إن لي أفراساً وأعبدًا وأنا بخير، وأريد أن تكون عُمالتي صدقةً على المسلمين. قال عمر: لا تفعل فإني كنت أردتُ الذي أردتَ وكان رسول الله ﷺ يعطيني العطاء فأقول: أعطه أفقر إليه مني حتى أعطاني مرة مالاً فقلت: أعطه أفقر إليه مني، فقال النبي ﷺ «خذه فتَموّلْهُ وتَصدّقْ به، فما جاءك من هذا المال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذه، وما لا فلا تُتبعه نفسك.»[٥]

---

[١] البخاري، الزكاة ١؛ مسلم، اللإيمان ٣٢؛ الترمذي، الإيمان ١؛ المسند للإمام أحمد، ١/ ١٩.

[٢] البخاري، الإعتصام ٢، تفسير سورة (٧) ٥.

[٣] كنز العمال للهندي، ٥٣٧/١٦-٥٣٨.

[٤] الترمذي، الديات ٤؛ أبو داود، الديات ١٨؛ تحفة الأحوذي للمباركفوري، ٦٤٩/٤؛ كنز العمال للهندي، ١١٨/١٥.

[٥] البخاري، الأحكام ١٧؛ مسلم، الزكاة ١١١.

ج- رأى عمر بن الخطاب ﷺ يومًا الصحابي زيد بن خالد الجهني ﷺ وهو يصلي ركعتين بعد صلاة العصر فضربه بالدرة، لأن الصلاة وإن كانت معراج المؤمن إلا أنها تتبع مواقيت معينة، فإن صادفت الصلاة مواقيتها الصحيحة كانت عبادة وإلا أصبحت بدعة. وجمهور الصحابة والعلماء يرون أنه لا توجد صلاة نافلة بعد صلاة العصر، ولكن الصحابي زيد بن خالد ﷺ قال لعمر: "يا أمير المؤمنين! فوالله لا أدعهما أبدا بعد إذ رأيت رسول الله ﷺ يصليهما" فجلس عمر إليه وقال: "يا زيد بن خالد، لولا أني أخشى أن يتخذها الناس سلما إلي الصلاة حتي الليل لم أضرب فيهما."[١]

وتوجد رواية حول هذا الموضوع من أم المؤمنين أم سلمة رضي الله عنها: صلى النبي ﷺ بعد العصر ركعتين وقال: «شغلني ناس من عبد القيس عن الركعتين بعد الظهر.»[٢] ويجوز أن زيد بن خالد الجهني ﷺ رأى صلاة رسول الله ﷺ في حالة مثل هذه الحالة، ومهما كان منشأ هذه المسائل الفقهية فالذي يهمنا هنا هو إظهار مدى تمسك الصحابة بالسنة.

عندما طعن عمر بن الخطاب ﷺ الذي كان متمسكًا بالسنة كل التمسك -وهو يصلي- سُئل وهو على فراش الموت أن يستخلف فقال: "إن أستخلِفْ فقد استخلف من هو خير مني أبو بكر، وإن أَترك فقد ترك من هو خير مني رسول الله ﷺ."[٣] أي أنه إن استخلف أو لم يستخلف فلن يكون معارضًا للسنة، ولكن عندما يكون الموضوع موضوع اختيار سبيل من بين السبل، فلاشك أن سبيل الرسول ﷺ سيكون هو الأرجح، لذا سلك عمر ﷺ طريقًا وسطًا واضعًا ظروف الأمة ومصلحتها بنظر الاعتبار، فجعل اختيار الخلف من وظيفة ستة من الصحابة الذين توفي الرسول ﷺ وهو عنهم راضٍ والذين كانوا ضمن الأحياء من العشرة المبشرة بالجنة. وجعل ابنه عبد الله بن عمر حَكمًا والقَعْقَاع حارسًا، وأوصاهم بالإسراع في تعيين الخلف لكيلا تبقى الأمة دون رأس.[٤]

د- في أثناء خلافة عمر بن الخطاب ﷺ وعندما كان يطوف حول الكعبة اقترب عمر ﷺ من الحجر الأسود الذي قبّله الكثير من الأنبياء فقال: "إني أعلم أنك حجر لا تضر ولا

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٢/ ٢٢٣؛ فتح الباري لابن حجر، ٢/ ٧٨.

[٢] البخاري، المواقيت ٣٣، السهو ٨؛ مسلم، المسافرين ٢٩٧؛ النسائي، المواقيت ٣٦.

[٣] البخاري، الأحكام ٥١؛ مسلم، الإمارة ١١؛ أبو داود، الإمارة ٨؛ الترمذي، الفتن ٤٨.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/ ٣٤٢؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٧/ ١٥٥.

تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله ﷺ يقبلك ما قبلتك."[١] إذن، فتقبيله للحجر الأسود لم يكن إلا بسبب اتباعه السنة النبوية.

هـ - كان الصحابة الكرام يعرفون أن السنة النبوية أمانة مقدسة لديهم، وأنهم يتقربون إلى الله تعالى بمقدار قربهم من السنة، وأنهم إن ابتعدوا عن السنة -معاذ الله- فلن يلقوا أي معاملة كريمة في الدار الآخرة.. وهي معاملة الخائن للأمانة.

في رواية لميسرة بن يعقوب أن عليًا ﷺ شرب الماء قائمًا ثم قال: "إن أشربْ قائمًا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب قائمًا، وإن أشربْ جالسًا فقد رأيت رسول الله ﷺ يشرب جالسًا."[٢]

إذن، يجب فهم الحدود جيدًا ويجب التصرف في مختلف الأمور والشؤون حسب تصرفه ﷺ، ونقل سنته كما هي إلى الأجيال القادمة. صحيح أن هناك توصيات للرسول ﷺ في الشرب قاعدًا وأن هناك فوائد فيه، إلا أن هذا لا يعني عدم جواز الشرب قائمًا، وليس من الملائم تصعيب الأمور في هذه المسائل.

و- في رواية عن عبد بن خير عن علي ﷺ قال: "لو كان الدين بالرأي لكان أسفل الخُفّ أولى بالمسح من أعلاه وقد رأيت رسول الله ﷺ يمسح على ظاهر خفيه."[٣] إذن، نجد هنا استسلامًا مطلقًا للسنة وعدم العمل بالرأي وبالاجتهاد الشخصي عند وجود خبر في السنة. وهذا يشير إلى مبلغ تمسكهم بالسنة.

ز- كان الصحابة كلهم سواء أكان عليًا أم عثمان أم أبا بكر أم عمر ﷺ أو أي صحابي آخر عندما يبلغهم وجود أثر أو حديث عن رسول الله ﷺ يخالف رأيهم أو اجتهادهم الشخصي في أي أمر من الأمور تراجعوا عن آرائهم فورًا واتبعوا السنة.

وكمثال على ذلك نورد اجتهاد عمر ﷺ في القتل الخطأ، إذ كان يرى أن دية المقتول خطأ لا تقع على القاتل بل على ورثته حسب قاعدة "بِحَسَبِ المغْرم المغنمُ"، ويقال لهؤلاء "العاقلة" وكان عمر ﷺ يرى أن الدية للعاقلة، ولا ترث المرأة من دية زوجها حتى قال له الضحاك بن سفيان: "كتب إليّ رسول الله ﷺ أن أُورِّثَ امرأة أَشْيَم الضبابيّ من دية زوجها" فرجع عمر عن رأيه.[٤]

ح- كان أمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح ﷺ قريبًا من قلب عمر ﷺ إلى درجة أنه

---

[١] البخاري، الحج ٥٠؛ مسلم، الحج ٢٤٨-٢٥١.

[٢] البخاري، الأشربة ١٦؛ أبو داود، الأشربة ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ١/١٣٤.

[٣] أبو داود، الطهارة ٦٣؛ الدارمي، الوضوء ٤٣؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١/ ٢٩٢.

[٤] أبو داود، الفرائض ١٨؛ الترمذي، الفرائض ١٨؛ ابن ماجه، الديات ١٢.

قال وهو على فراش الموت: "لو كان أبو عبيدة حيًّا لولّيته."[١] عندما أقبلت الدنيا على المسلمين بعد طول مشقة وحرمان لم يتغير شيء عند أبي عبيدة ﷺ ولم تستطع الدنيا إغراءه، ففي إحدى المرات دخل عمر ﷺ إلى خيمة أبي عبيدة ﷺ عندما كان قائدًا على الجيش الإسلامي فرأى من بساطة خيمته ما جعله يبكي ويقول له: "غيَّرَتْنا الدنيا كلنا غيرَك يا أبا عبيدة."[٢]

أجل، كان يحبه جدًا، ولكن عمر ﷺ عندما توجه إلى الشام لزيارة جنده ووصل إلى "سَرْغ" لقيه قائد الجند أبو عبيدة ﷺ مع أصحابه فأخبروه أن الوباء وقع بأرض الشام فاستشار عمر أصحابه في الذهاب أو عدم الذهاب إلى هناك فاختلفوا، وكان من رأي أبي عبيدة المضي حيث قال لعمر: "أفِرارًا من قدر الله؟" فقال عمر: "لو غيرُك قالها يا أبا عبيدة! نعم، نفِرّ من قدر الله إلى قدر الله. أرأيت لو كان لك إبل هبطت واديًا له عُدوتان إحداهما خصبة والأخرى جدبة أليس إن رعيتَ الخِصْبَة رعيتَها بقدر الله وإن رعيت الجَدْبَة رعيتها بقدر الله." فجاء عبد الرحمن بن عوف وكان متغيبا في بعض حاجته، فقال: إن عندي في هذا علمًا، سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إذا سمعتم به بأرض فلا تقدَموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم بها فلا تخرجوا فرارًا منه»، فحمد عمر الله ثم انصرف.[٣]

وهكذا تقطرت السنة النبوية في قلوب هذه الأرواح المرهفة متغذية بحوادث الحياة وتقلباتها وظروفها التي لا يمكن نسيانها، وانتقلت إلى كتب المحققين والمحدثين حتى وصلت إلينا.

د . دِقّتهم في الرواية

لم يكن الصحابة الكرام ولا تابعوهم بإحسان ولا تابعو التابعين من نمط الأشخاص الذين يقبلون ويتبعون كل ما يسمعونه، فمع أن قلوبهم كانت صافية ونقية إلا أنهم كانوا دقيقين لا يقبلون شيئًا إلا بعد التمحيص والتدقيق ولاسيما إن كان الموضوع متعلقًا بالسنة النبوية. لذا، حفظوا السنة بدقة كبيرة وسجلوها في الكتب وحققوا الروايات تحقيقًا دقيقًا ثم نقلوها بالدقة نفسها. وهناك أمثلة عديدة جدًا على هذا ندرج هنا بعضها.

---

[١] المسند للإمام أحمد، ١/ ١٨؛ المستدرك للحاكم، ٢٦٨/٣.

[٢] مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ١١/ ٢٧٢؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/ ١٧.

[٣] البخاري، الطب ٣٠؛ مسلم، السلام ٩٨.

١- تحذير النبي ﷺ

قال رسول الله ﷺ: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار» وفي رواية أخرى «من كذب عليّ متعمدًا فليتبوأ مقعده من النار.»[١]

في ذلك العهد الذي كان الفرق بين الصدق والكذب كالفرق بين الرسول ﷺ وبين مسيلمة الكذّاب وكالفرق بين السماء والأرض.. في ذلك العهد الذي كان الصدق أهم سمة له وأهم صفة ما كان بوسع مؤمن ولاسيما إن كان هذا المؤمن صحابيًا أو تابعيًا أن يكذب في أمر عادي، فكيف يجرؤ على الكذب على رسول الله ﷺ نفسه؟ فما كان بمقدور أحدهم أن يلفق شيئًا عن الرسول ﷺ متبعًا في ذلك أهواءه. يقول علي بن أبي طالب ﷺ: "إذا حدثتكم عن رسول الله ﷺ حديثًا فوَالله لأن أخِرّ من السماء أحَبّ إليّ من أن أكذب عليه."[٢] كما قال رسول الله ﷺ: «من حدّث عني بحديث يرى أنه كذب فهو أحد الكاذبين»[٣]

إذن، فأمام كل هذه التحذيرات والتهديدات، هل يمكن للذين أرشدوا العالم إلى الصدق وإلى الحق وإلى النور وكانوا أئمة الهدى والحق أن ينحرفوا ويدخلوا ضمن دائرة هذا التهديد والوعيد؟

٢- حرص الصحابة والتابعين

ولكون هذه المسألة تتطلب كل هذه الحساسية فقد تناولها الصحابة بحرص شديد ودقة متناهية، لذا نرى الكثير من الصحابة يحذرون من رواية الحديث، حتى أن صحابيًا جليلاً مثل ابن مسعود ﷺ الذي كان بعض الصحابة يظنونه من أهل بيت الرسول ﷺ لكثرة تردده وتردد أمه على بيت الرسول ﷺ والذي قال في حقه عمر بن الخطاب ﷺ عندما بعثه إلى الكوفة: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي وخذوا منه"،[٤] هذا الصحابي الجليل نرى وصفه وحاله عندما كان يضطر إلى رواية حديث عن رسول الله ﷺ.. عن عمرو بن ميمون قال: ما أخطأني ابن مسعود عشية خميس إلا أتيته فيه، قال: فما سمعته يقول بشيء قط "قال رسول الله"، فلما كان ذات عشية قال: "قال رسول الله" قال: فنكس. قال: فنظرت إليه فهو قائم مُحللةً أزرار قميصه، قد اغْرَوْرقتْ عيناه، وانتفخت

---

[١] البخاري، العلم ٣٨؛ مسلم، الزهد ٧٢؛ أبو داود، العلم ٤؛ الترمذي، الفتن ٧٠.

[٢] البخاري، استتابة المرتدّين، ٦؛ مسلم، الزكاة ١٥٤؛ أبو داود، السنة ٢٨.

[٣] مسلم، المقدمة، ١؛ الترمذي، العلم ٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ٥.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٧/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٩١/٩.

أوداجه. قال: أو دون ذلك، أو فوق ذلك، أو قريباً من ذلك، أو شبيهاً بذلك.[١]

كان الزبير بن العَوّام حواري رسول الله ﷺ وابن عمته البطلة صفية من المسلمين الأوائل ومن العشرة المبشرة بالجنة، ولكنه كان قليل الرواية عن الرسول ﷺ وقد سأله ابنه عبد الله بن الزبير مرة عن سبب ذلك قائلاً: إني لا أسمعك تحدث عن رسول الله ﷺ كما يحدث فلان وفلان فقال: أما إني لم أفارقه ولكن سمعته يقول: «من كذب عليّ فليتبوأ مقعده من النار.»[٢]

أما الصحابي أنس بن مالك ﷺ الذي خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات فقد قال: "لولا أني أخشى أن أخطئ لحدثتكم بأشياء سمعتها من رسول الله ﷺ."[٣]

يقول التابعي الكبير عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ الذي قابل خمسمائة صحابيًّا: "لقد أدركت في هذ المسجد عشرين ومائة من الأنصار من أصحاب رسول الله ﷺ، ما منهم أحدٌ يحدث بحديث إلا ودّ أن أخاه كفاه الفُتيا.[٤]

في السنوات الأولى لظهور الإسلام فتح الأرقم بن أبي الأرقم ﷺ بيته للرسول ﷺ، أما ابنه زيد فقد صحب الرسول ﷺ وأدرك خلافة أبي بكر وعمر ﷺ وكان أمين بيت مال المسلمين، ولكنه عندما رأى أن عثمان بن عفان ﷺ بدأ يوزع بعض ماله الذي أودعه في بيت مال المسلمين على بعض أقربائه حمل مفاتيح البيت وسلمها إلى عثمان ﷺ مُعلنًا استقالته من عمله لأن الناس سوف يظنون به الظنون، هذا الصحابي الجليل جفل عندما طلب منه التابعي عبد الرحمن بن أبي ليلى ﷺ أن يحدثه عن رسول الله ﷺ واعتذر. إليكم الرواية: عن عبد الرحمن بن أبي ليلى قال: قلنا لزيد بن الأرقم: حدِّثْنا عن رسول الله ﷺ قال: "كبِرنا ونسينا، والحديث عن رسول الله ﷺ شديد."[٥]

أ. الحرص في الرواية

يجب على الراوي للحديث أن يكون ملمًا باللغة العربية إلمامًا جيدًا لكي لا تتسلل كلمة أجنبية إلى سياق الحديث. ومع أنه يجوز إيراد معنى الحديث إن تعذر إيراد نصه، إلا أن الصحابة الكرام ﷺ كانوا حريصين جدًا على كل كلمة بل على كل حرف عند رواية

---

[١] ابن ماجه، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤٥٢/١.

[٢] البخاري، العلم ٣٨؛ أبو داود، العلم ٤؛ ابن ماجه، المقدمة، ٤.

[٣] مسلم، المقدمة، ٢؛ الدارمي، المقدمة، ٢٥.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١١٠/٦؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٦٣/٤.

[٥] ابن ماجه، المقدمة، ٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٧٠/٤.

الحديث. فمثلاً عندما أورد الصحابي عبيد بن عمير ﷺ حديث «مَثَل المنافق كمثل الشاة الرابضة بين الغنمين» في مجلس ضم الصحابي عبد الله بن عمر ﷺ غضب هذا الصحابي وقال: كلا، لم يقل هكذا. فسأله عمير: وكيف قال إذن؟ فقال: قال رسول الله ﷺ: «مَثَل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين.» علمًا بأن الفرق بين الروايتين هو الفرق بين "الرابضة" و"العائرة" فقط.

أما في "المسند" فقد جاءت رواية الحديث عن عبيد الله بن عمير بهذه الصيغة:

«إن مثل المنافق يوم القيامة كالشاة بين الربيضين من الغنم، إن أتت هؤلاء نطحتها، وإن أتت هؤلاء نطحتها.» بينما يورِد عبد الله بن عمر ﷺ هذا الحديث مقطع "كشاة بين الغنمين" بدلاً من "كشاة بين الربيضين" لأنه سمعه هكذا عن رسول الله ﷺ.[١]

وانتقل هذا الحرص من الصحابة إلى التابعين وإلى تابع التابعين. فمثلاً نرى العالم المشهور سفيان بن عيينة يروي الحديث التالي: "نهى رسول الله ﷺ عن الدُّبّاء والمُزَفَّت أن يُنتبَذ فيه." ولكن عندما روى هذا الحديث مرة في مجلسه بصيغة "نهى رسول الله ﷺ عن الدُّبّاء والمُزَفَّت أن يُنبَذ فيه" قال سفيان: أنا لم أسمع هكذا من الزُهرى.[٢] بينما الفرق بين الصيغتين هو فقط بين الفعل الخماسي "ينتبذ" والفعل الثلاثي "ينبذ" وليس بينهما فرق كبير في المعنى. ولكن الصحابة والتابعين وتابعي التابعين كانوا حريصين جدًا في رواية الحديث عن رسول الله ﷺ كما قاله تمامًا.

لذا، فأمام مثل هذا الحرص والحساسية الشديدة في رواية الحديث أيمكن أن يأخذ أحد مأخذ الجد ما يزعمه البعض من أن الصحابة كانوا ينقلون ما يسمعونه عن الرسول ﷺ بكلماتهم وتعابيرهم، لذا فلا مجال لاتخاذ الأحاديث أساسًا في التشريع؟

عن البراء بن عازب ﷺ قال قال رسول الله ﷺ: «إذا أتيتَ مَضْجعَك فتوضأْ وضوءك للصلاة ثم اضطجع على شقك الأيمن وقل: اللّهم أسلمت نفسي إليك وفوضت أمري إليك وألجأت ظهري إليك رهبة ورغبة إليك لا ملجأ ولا منجى منك إلا إليك آمنت بكتابك الذي أنزلت وبنبيك الذي أرسلت. فإنْ مِتَّ متّ على الفطرة، واجعلهن آخر ما تقول» فقلتُ: أستذكرهن "ورسولك الذي أرسلت" قال: «لا، ونبيك الذي أرسلت.»[٣]

---

[١] مسلم، صفات المنافقين ١٧؛ النسائي، الإيمان وشرائعه ٣١؛ المسند للإمام أحمد، ٦٨/٢؛ المسند للطيالسي، ص٢٤٨.

[٢] الكفاية للبغدادي، ص١٧٨.

[٣] البخاري، الدعوات ٦؛ مسلم، الذكر ٥٦.

وسواءٌ استطعنا أن نحدس الفرق الذي عناه رسولنا ﷺ من وجوب قول "بنبيك" وليس "برسولك" أم لم نستطع فقد ألزمَنا قراءة الدعاء بهذه الصيغة.

أجل، إن الإنسان عندما يغمض عينيه وينام فإنه يدخل إلى عالم الرؤية والأحلام، أي يدخل إلى عالم فيه جزء من النبوة (هذا الجزء يبلغ ٤٦/١). أي أن النوم والرؤيا له علاقة بالنبوة وليس بالرسالة التي تتطلب الصحو، أي تتطلب صحوة العين والقلب. لذا، فالدقة والحرص والحساسية التي أبداها الرسول ﷺ في هذا الموضوع أبداها الصحابة الكرام عند تلقّيهم للأحاديث وعند نقلهم وروايتهم لها.

ب. التدارس

لم يكتف الصحابة الكرام ﷺ بنقل الأحاديث وروايتها، بل كانوا يتدارسونها فيما بينهم لكي يحيطوا بمعانيها. وكما تدارسوها فقد طلبوا من طلابهم تدارسها أيضًا، فمثلاً نرى الصحابي الجليل أبا سعيد الخدري ﷺ يقول لطلابه: "تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث"[١] كما كان الصحابي الجليل ابن عباس ﷺ يقول: "رُدُّوا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه "قد حدثته مرة"، فإنه من كان سمعه يزداد به علمًا ويسمع من لم يسمع."[٢] ذلك لأن الصحابة الكرام كانوا يعرفون مدى أهمية الحديث والسنة، ويعرفون من أحاديث رسول الله ﷺ أن الملائكة تضع أجنحتها رضا لطالب العلم،[٣] لذا، حرصوا على حفظ الحديث وتدارسه ثم روايته ونقله. هذا هو الجو الذي تم فيه حفظ الحديث ونقله إلينا.

٣- تحقيق الصحابة والتابعين

بجانب تدارس الصحابة للأحاديث فيما بينهم، كانوا أمام أي أمر أو مسألة تثار يبحثون عما إذا كان هناك حديث في هذه المسألة، أي أنهم كانوا يدركون مدى الأهمية التشريعية للسنة وللحديث، ومع كونهم رجال صدق واستقامة إلا أن هذا لم يكن يمنعهم أن يكونوا رجال تحقيق أيضًا فما كانوا يقبلون كل ما سمعوه.

جاءت مرة إلى أبي بكر ﷺ امرأة تسأله عن نصيبها من ميراث حفيدها، فقال لها أبو بكر

---

[١] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[٢] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[٣] أبو داود، العلم ١؛ الترمذي، العلم ١٩؛ النسائي، الطهارة ١١٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

ﷺ: "ما أجد لك في الكتاب من حق، وما سمعت رسول الله ﷺ قضى لك بشيء، وسأَسْأل الناس" ثم سأل الناس فشهد المغيرة بن شعبة أن رسول الله ﷺ أعطاها السدس، فقال له أبو بكر ﷺ: ومن سمع ذلك معك؟ قال: محمد بن مسلمة، فأعطاها السدس.[١] كانت عائشة أم المؤمنين رضي الله عنها التي جاء حديث ضعيف في حقها «خذوا نصف دينكم من هذه الحُميراء»[٢] ذكية وفطنة تسأل وتحقق كل شيء، فعن ابن أبي مُلَيْكة أن عائشة زوج النبي ﷺ كانت لا تسمع شيئًا لا تعرفه إلا راجعت فيه حتى تعرفه، وإن النبي ﷺ قال: «من حوسب عُذّب»، قالت عائشة فقلت: أوليس يقول الله تعالى ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَابًا يَسِيرًا﴾ (الانشقاق:٨)؟ فقال: «إنما ذلك العرضُ ولكن من نوقش الحساب يهلك.»[٣]

وبصدد قيام الصحابة بتحقيق ما يسمعونه يرد هنا موضوع الأوجه المختلفة التي أنزل فيها القرآن الكريم، وهناك روايات عديدة حول هذا الموضوع نورد هنا ماجاء في صحيح البخاري عن عمر بن الخطاب ﷺ قال: سمعت هشام بن حكيم بن حِزَام يقرأ سورة الفرقان على غير ما أقرؤها، وكان رسول الله ﷺ أقرأنيها، وكدت أن أعجل عليه، ثم أمهلته حتى انصرف ثم لبّبته بردائه فجئت به رسول الله ﷺ فقلت: إني سمعت هذا يقرأ على غير ما أقرأتنيها فقال لي: «أرسله.» ثم قال له: «اقرأ.» فقرأ قال: «هكذا أنزلت»، ثم قال لي: «اقرأ» فقرأت، فقال: «هكذا أنزلت، إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤا منه ما تيسر.»[٤]

وكمثال آخر نورد هذه الرواية عن أبي سعيد الخُدري قال: كنت في مجلس من مجالس الأنصار إذ جاء أبو موسى كأنه مذعور، فقال: استأذنت على عمر ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت. فقال: ما منعك؟ قلت: استأذنت ثلاثًا فلم يؤذن لي فرجعت وقال رسول الله ﷺ: «إذا استأذن أحدكم ثلاثًا فلم يؤذَن له فليرجع.» فقال: "والله لتُقيمن عليه بينة" أمنكم أحد سمعه من النبي ﷺ؟ فقال أُبيّ بن كعب: والله لا يقوم معك إلا أصغر القوم. فكنت أصغر القوم فقمت معه فأخبرت عمر أن النبي ﷺ قال ذلك.[٥]

---

[١] الترمذي، الفرائض ١٠؛ ابن ماجه، الفرائض ٤؛ الموطأ، الفرائض ٨.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٠/٨؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٧٤/١؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٣٩٩؛ الفردوس للديلمي، ١٦٥/٢.

[٣] البخاري، العلم ٣٥؛ مسلم، الجنة ٧٩.

[٤] البخاري، الخصومات ٤؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٧٠؛ أبو داود، الوتر ٢٢؛ النسائي، الافتتاح ٣٧؛ الموطأ، القرآن ٤.

[٥] البخاري، الاستئذان ١٣؛ مسلم، الأدب ٣٣، ٣٤، ٣٧؛ أبو داود، الأدب ١٢٨.

أ. الرحلة من أجل التحقيق

كان الصحابة يولون تحقيق الحديث أهمية بالغة إلى درجة أنهم كانوا يسافرون من بلد إلى بلد ويقطعون المسافات الطويلة أيامًا وليالي لتحقيق حديث واحد أو لسماع حديث واحد. إذ يروي عطاء بن أبي رباح -الذي تتلمذ عليه كبار العلماء- أن الصحابي أبا أيوب الأنصاري ﷺ أراد أن يحقق حديثًا سمعه من النبي ﷺ وعلم أن الصحابي الوحيد الباقي على قيد الحياة من الذين سمعوا هذا الحديث هو عُقبة بن عامر وكان مقيمًا في مصر فتوجه إليه، أي سافر من المدينة المنورة إلى مصر من أجل تحقيق حديث واحد يعرفه.

خرج أبو أيوب إلى عُقبة بن عامر وهو بمصر يسأله عن حديث سمعه من رسول الله ﷺ فلما قدم أتى منزل مسلمة بن مخلّد الأنصاري وهو أمير مصر، فأخبر به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: "ما جاء بك يا أبا أيوب؟" قال: "حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغير عقبة فابعث من يدلني على منزله." قال فبعث معه من يدله على منزل عقبة، فأخبر عقبة به فعجل فخرج إليه فعانقه وقال: "ما جاء بك يا أبا أيوب؟" فقال: حديث سمعته من رسول الله ﷺ لم يبق أحد سمعه غيري وغيرك في ستر المؤمن. قال: نعم سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من ستر مؤمنًا في الدنيا عن خزية ستره الله يوم القيامة.»[1] فقال له أبو أيوب: "صدقت" ثم انصرف أبو أيوب إلى راحلته فركبها راجعًا إلى المدينة، فما أدركته جائزة ابن مخلد إلا بعريش مصر.[2]

وهناك رواية عن جابر بن عبد الله قال: بلغني حديث عن رجل من أصحاب النبي ﷺ سمعه من النبي ﷺ لم أسمعه منه فسِرت شهرًا إليه حتى قدمت الشام، فإذا هو عبد الله بن أُنيس فأرسلتُ إليه أن جابرًا على الباب، فرجع إليّ الرسول فقال: أجابر بن عبد الله؟ قلت: نعم. فخرج إليّ فاعتنقني واعتنقته. قال: قلت: حديث بلغني أنك سمعته من رسول الله ﷺ لم أسمعه منه في المظالم، فخشيت أن أموت أو تموت. قال: سمعتُ النبي ﷺ يقول: «يُحشر الناس -أو العباد- عُراةً غُرْلاً بُهْمًا، فيناديهم بصوت يسمعه من بَعُدَ كما يسمعه من قَرُبَ: أنا الملك، أنا الديّان، لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة وأحد من أهل النار يطلبه بمظلمة، ولا ينبغي لأحد من أهل النار أن يدخل النار وأحد من أهل الجنة يطلبه

---

[1] البخاري، المغازي ٣؛ مسلم، البر والصلة ٥٨؛ أبو داود، الأدب ٣٨؛ الترمذي، الحدود ٣.

[2] الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص١١٨؛ جامع بيان العلم لابن عبد البر، ٣٩٢/١؛ الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٠٢.

بمظلمة حتى يقتصه منه، حتى اللطمة.» قال: وكيف، وإنما نأتي عراةً غُرْلاً؟ قال: بالحسنات والسيئات.[١]

ب. رحلة التابعين

لم تقتصر الرحلات من أجل تحصيل الحديث على الصحابة الكرام فقط، بل استمرت في العهود التي تلت عهد الصحابة. فسعيد بن المسيّب كان يسافر أيامًا وليالي في طلب حديث واحد،[٢] وكان مسروق بن الأجدع يرحل من أجل حرف واحد.[٣] وعن كثير بن قيس قال: "كنت جالسًا عند أبي الدرداء في مسجد دمشق فأتاه رجل فقال: يا أبا الدرداء! أتيتك من المدينة، مدينة رسول الله ﷺ لحديث بلغني أنك تحدث به عن النبي ﷺ. قال: فما جاء بك تجارةٌ؟ قال: لا. قال: ولا جاء بك غيره؟ قال: لا."[٤]

انتقل الحرص الذي أبداه الصحابة في رواية الأحاديث إلى التابعين، وكما سنشرح فيما بعد فقد ورث هذا العلم -حسب تعبير الأعمش- أناس كان أحبَّ إليهم أن يخروا من السماء ولا يزيدوا "واوًا" أو "ألفًا" أو "دالاً" على الحديث،[٥] إذ كانوا يتحرجون جدًا ويحرصون على ألا يتبادل حرفا "الواو" و"الفاء" مكانهما في الحديث، أي الحفاظ على متن الحديث مثلما صدر عن الرسول ﷺ.

وعلى الرغم من كون الصحابة الكرام بأجمعهم عدولاً لا يتسلل الكذب إلى أي أحد منهم إلا أن أئمة التابعين كانوا يحققون ما سمعوه من حديث ويراجعون الصحابة الآخرين كذلك. فمثلاً نرى أبا العالية -وكان من كبار علماء التابعين- يقول: "كنا نسمع الرواية عن أصحاب رسول الله ﷺ ونحن بالبصرة فما نرضى حتى نركب إلى المدينة فنسمعها من أفواههم."[٦]

ففي رواية مسلم عن ابن سيرين أنه قال: "لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سَمُّوا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، ويُنظر إلى أهل البدع

---

[١] المسند للإمام أحمد، ٤٩٥/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٤٥/١٠-٣٤٦؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٧٨/٣؛ الأدب المفرد للبخاري، ص٣٣٧؛ جامع بيان العلم لابن عبد البرر، ٣٨٩/١-٣٩٠.

[٢] تذكرة الحفاظ للذهبي، ٥٥/١؛ الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص١٢٧؛ الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٠٢؛ جامع بيان العلم لابن عبد البرر، ٣٩٥/١.

[٣] جامع بيان العلم لابن عبد البر، ٣٩٦/١؛ الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص١٢٧.

[٤] الترمذي، العلم ١٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ الرحلة في طلب الحديث للبغدادي، ص٧٨.

[٥] الكفاية للبغدادي، ص١٧٨.

[٦] الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٠٢- ٤٠٣.

فلا يؤخذ حديثهم"،[١] فلم يكونوا في العهود الأولى يسألون عن الإسناد، أي عن الشخص الذي روى هذا الحديث عن رسول الله ﷺ، ولكن حينما وقعت الفتنة بعد شهادة عمر بن الخطاب ﷺ -الذي كان بابًا موصدًا أمام الفتنة- ومقتل عثمان بن عفان ﷺ والحوادث التي جرت في عهد علي بن أبي طالب ﷺ بدأ وضع الحديث وإن كان في نطاق ضيق، إذ وُضعت أحاديث ضد عثمان ﷺ، ودفع هذا بعض البسطاء إلى اختراع أحاديث في صالحه وللدفاع عنه وكأنه يحتاج إلى مثل هذا الدفاع. كما تم وضع أحاديث في الثناء وفي مدح علي بن أبي طالب ﷺ -مع أن هذا العملاق لا يحتاج إليها- وذلك مقابل الأحاديث الموضوعة للطعن فيه.

لذا، فما أن ظهرت الأحاديث الموضوعة حتى بدأ الأئمة الكبار بالاستفسار عن "السند" وبتحقيق الأحاديث. فبدأ علماء مثل شعبة والشعبي والثوري رحمهم الله بتحقيق دقيق عند جمع الأحاديث. ونجد حادثة مشابهة في رواية وردت في صحيح مسلم لمجاهد بن جَبْر قال: جاء بشير العدوي إلى ابن عباس، فجعل يحدّث ويقول: "قال رسول الله ﷺ، قال رسول الله ﷺ" فجعل ابن عباس لا يأذن[٢] لحديثه ولا ينظر إليه. فقال: يا ابن عباس! مالي لا أراك تسمع لحديثي؟ أحدثك عن رسول الله ﷺ ولا تسمع؟ فقال ابن عباس: إنا كنا مرة إذا سمعنا رجلاً يقول: "قال رسول الله ﷺ" ابتدرته أبصارنا وأصغينا إليه بآذاننا، فلما ركب الناس الصعب والذلول[٣] لم نأخذ من الناس إلا ما نعرف.[٤]

يروي العالم الأندلسي الكبير ابن عبد البر عن الشعبي الذي كان من كبار أئمة التابعين عن الربيع بن خثيم الحديث الآتي: «من قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك وله الحمد يحيي ويميت وهو على كل شيء قدير عشر مرات كن له كعتق رقاب أو رقبة»، قال الشعبي: فقلت للربيع بن خثيم: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: عمرو بن ميمون الأودي. فلقيت عمرو بن ميمون فقلت: من حدثك بهذا الحديث؟ فقال: عبد الرحمن بن أبي ليلى، فلقيت ابن أبي ليلى فقلت: من حدثك؟ قال: أبو أيوب الأنصاري صاحب رسول الله ﷺ.[٥] وبعد هذا البحث والتدقيق اطمأن الشعبي إلى صحة الرواية.

---

[١] مسلم، المقدمة، ٥.

[٢] لا يأذن: أي لا يستمع إليه ولا يصغي.

[٣] ركب الناس الصعب والذلول: أي سلك الناس كل مسلك مما يُحمد أو يُذم.

[٤] مسلم، المقدمة، ٤.

[٥] المحدث الفاصل للرامهرمزي، ص٢٠٨؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٢٢-٢٢٣.

٤- حملة ضد الوضع والوضاعين

في تلك العهود بدأت حملة ضد الكذب وإعلان حرب ضده، إذ بدأ العلماء من أمثال ابن شهاب الزهري وابن سيرين وسفيان الثوري وعامر بن شراحيل الشعبي وإبراهيم بن يزيد النخعي وشعبة وقتادة بن دِعامة وهشام الدستوائي ومسعر بن كُدَام الهلالي بإعلان حملة ضد وضع الحديث وضد الوضاعين وفرز الأحاديث الصحيحة عن الأحاديث الموضوعة.

وعندما كان أبو هلال وشعبة وسعيد بن أبي صَدَقة يروون حديثًا عن قتادة بن دِعامة واختلفوا في صيغة الحديث هل كان كذا أم كذا، راجعوا هشام الدستوائي ليكون حَكمًا. وعندما كان شعبة والثوري يختلفان كانا يراجعان مسعر بن كُدَام الهلالي.[١]

كان هؤلاء العلماء يتعقبون من يرون فيه تعصبًا مذهبيًا، فإذا شكّوا في رواية أحدهم وقفوا أمامه وحاسبوه وسألوه: ممن سمعت هذا الحديث؟

أ. مهمة الحفظ ودوره

في هذه الأثناء كان عباقرة الحفظ يحفظون الأحاديث دون توقف، فقد روى أبو زرعة الرازي أن أحمد بن حنبل رحمه الله كان يحفظ ألف ألف حديث مختلف من ناحية السند والمتن ومختلف من ناحية الصحة من صحيح أو حسن أو ضعيف،[٢] واختار في مسنده المشهور أربعين ألف حديث من بين ثلاثمائة ألف حديث، هذا علمًا بأن من بين هذه الأحاديث البالغ عددها أربعين ألفًا بعض الأحاديث المكررة وبعض الزوائد التي أضافها ابنه عبد الله.

أما يحيى بن معين الذي نذر حياته كلها لأحاديث رسول الله ﷺ فقد حفظ حتى الأحاديث الموضوعة، وعندما سأله أحمد بن حنبل مرة عن سبب قيامه بكتابة "الجامع" لمعمر عن أبان عن أنس مع أنه يعلم أنها موضوعة قال له: رحمك الله يا أبا عبد الله، أكتب هذه الصحيفة عن عبد الرزاق عن معمر على الوجه فأحفظها كلها وأعلم أنها موضوعة حتى لا يجيء بعده إنسانٌ فيجعل بدل أبان ثابتًا ويرويها عن معمر عن ثابت عن أنس بن مالك فأقول له: "كذبت إنما هي عن معمر عن أبان لا عن ثابت."[٣]

---

[١] المحدث الفاصل للرامهرمزي، ص٣٩٥؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٢٩.

[٢] تهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني، ١/٦٤.

[٣] الجامع لأخلاق الراوي وآداب السامع للبغدادي، ٢/٢٨٣؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص ٢٢٩ .

فبدءً من الإمام الزهري إلى يحيى بن سعيد القطّان، ومن البخاري ومسلم إلى الدارقطني والحاكم نرى المئات من كبار محققي الأحاديث وحفاظها.

ب. شعور الالتزام بالحق ورعايته

مطاردة الكذب والوضع والوقوف ضد الكذب وإعزاز الحق وعدم السماح بقول غير الحق.. كان هذا شعارهم.. فمثلاً خطب عمر بن الخطاب ﷺ مرة فقال: ألا لا تغالوا في صَداق النساء، وإنه لا يبلغني عن أحد ساق أكثر من شيء ساقه رسول الله ﷺ أو سيق إليه جعلتُ فضل ذلك في بيت المال. ثم نزل فعرضت له امرأة من قريش فقالت: يا أمير المؤمنين، لَكتاب الله أحق أن يتبع أم قولك؟ قال: كتاب الله، فما ذاك؟ قالت: نَهيتَ الناس آنفا أن يتغالوا في صداق النساء والله تعالى يقول في كتابه: ﴿وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنْطَارًا فَلاَ تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا﴾ (النساء:٢٠)؟ فقال عمر: كل أحد أفقه من عمر -مرتين أو ثلاثا-. ثم رجع إلى المنبر فقال للناس: "إني كنت نهيتكم أن تغالوا في صداق النساء، فليفعل رجل في ماله ما بدا له."[١]

وعلى هذا المنوال تصرف كبار علماء التابعين، فمثلاً نرى زيد بن أبي أُنيسة يقول: "لا تأخذوا عن أخي"،[٢] قد يكون بسبب عدم دقة أخيه أو توهمه أو تعصبه المذهبي أو لسبب آخر لا نعرفه، وعندما سئل الإمام علي بن المديني -وهو إمام الكثير من المحدثين الكبار من مستوى الإمام البخاري ومسلم وأول من كتب عن الصحابة- عن أبيه قال: "سلوا عنه غيري" فأعادوا المسألة فأطرق ثم رفع رأسه فقال: "هو الدين، إنه ضعيف."[٣]

أما الإمام وكيع بن الجرّاح الذي تربى في مدرسة أبي حنيفة وتتلمذ عليه الإمام الشافعي القائل بأنه لم ينس شيئًا سمعه طوال حياته. وقد ذكره الشافعي في قصيدته:

شكوتُ إلى وكيع سوء حفظي فأرشدني إلى ترك المعاصي
وأخبرني بأن العلم نور ونور الله لا يهدى لعاصي[٤]

كان والد هذا الإمام الكبير على بيت المال، لذا فعندما كان يروي عنه كان يقرن معه

---

[١] كنز العمال للهندي، ١٦/٥٣٦-٥٣٨.
[٢] مسلم، المقدمة، ٥.
[٣] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٣٣.
[٤] ديوان الإمام الشافعي للإمام الشافعي، ص٦٩.

آخر،[١] لأنه كان يخشى أن يقوم والده الموظف لدى الدولة بتخفيف بعض العبارات من أجل الدولة.

ج. كتب العلل

كتب هؤلاء الأشخاص العظام كتبًا عديدة في العلل، أي قدموا كتبًا تتناول سند الأحاديث ومتونها بالتحليل الدقيق. وكتبوا عن الضعفاء والمتروكين أي عن الرواة الضعفاء والذين لا يجوز أخذ الأحاديث عنهم بل يجب تركهم وأعلنوا هذا ونشروه، فقد كانوا حساسين جدًا في هذا الموضوع إلى درجة أن أحدهم كان يراقب -كما قلنا- والده لأنه موظف في خزينة الدولة لكيلا يحرف رواية الحديث، ونرى آخر يقول إن والده روى الحديث حتى بلغ عمره كذا سنة، ولكن ما إن كبر حتى ضعفت ذاكرته، لذا قام بمنع الزوار من لقائه.

يقول الإمام عبد الرحمن بن مهدي -وهو من كبار أئمة الحديث-: "سألت شعبة وابن المبارك والثوري ومالك بن أنس عن الرجل يُتهم بالكذب، فقالوا: أنشره، فإنه دين."[٢] وعن يحيى بن سعيد قال: "سألت سفيان الثوري وشعبة ومالكًا وابن عُيينة عن الرجل لا يكون ثبتًا في الحديث فيسألني الرجل عنه، قالوا: أخبر عنه أنه ليس بثبت."[٣]

وعن أبي بكر بن خلاّد قال: قلت ليحيى بن سعيد: أما تخشى أن يكون هؤلاء الذين تركت حديثهم خصماءَك عند الله يوم القيامة؟ فقال: لأن يكونوا خصمائي أحبّ إليّ من أن يكون خصمي رسول الله ﷺ يقول لي: لِمَ لم تَذُبّ الكذب عن حديثي.[٤]

هـ . وضع الحديث

أجل، لقد دونت السنة في ظل مثل هذه الدقة والحساسية، ومع ذلك فلا نستطيع أن نقول إنه لم يتم وضع أحاديث كاذبة. وضعت أحاديث كاذبة ولكنها ارتطمت بالحراسة المشددة التي وضعها الصحابة والتابعون، ولم تستطع أن تفلت منها، ومن أفلت منها ظهرت للعيان بمرور الزمن ولم تستطع أن تدخل إلى كتب صحاح السنة، وعلاوة على هذا فقد اتبعت الطرق التالية أيضًا في هذا الموضوع:

---

[١] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٣٣.
[٢] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٣٤.
[٣] مسلم المقدمة، ٥.
[٤] علوم الحديث لابن الصلاح، ص٣٨٩.

١) فرز الأحاديث الموضوعة

أ- الاعتراف

ففي كثير من الأحيان كان صاحب الأحاديث الموضوعة يعترف في أواخر حياته وقبل وفاته بالأحاديث التي وضعها واختلقها، أو بعد توبته من مذهبه الباطل ورجوعه إلى مذهب أهل السنة والجماعة.

ب- الكذب تحت المراقبة

كان وضاع الأحاديث تحت مراقبة جيدة، وذلك بالأساليب التي شرحناها سابقًا، فمن كذب مرة واحدة في حياته لم يؤخذ حديثه. ولم يكن يؤخذ الحديث من صاحب الوهم والنسيان وإن كان صادقًا ثقة، فلنأخذ مثالاً يوضح ما نقول:

كان هناك شخص زاهد وصاحب تقوى اسمه ابن أبي لهيعة تردد اسمه كثيرًا في سنن أبي داود، وكان يروي الحديث ولكن ليس من ذاكرته وحفظه بل من كتبه، وعندما ضاعت منه هذه الكتب فقد منزلته في رواية الحديث فجأة، وبدأ العلماء يتحفظون من أخذ الحديث عنه، فالإمام البخاري مثلاً بدأ لا يأخذ منه سوى الأحاديث المؤيدة بالأحاديث الأخرى وسوى الفتاوي.

ج- دلالة الأسلوب

كما نعلم فهناك موضوع الأسلوب في الأدب، فمثلاً من قرأ "موليير" ثلاثين مرة، أو قرأ "شِكِسبير" أو "تولستوي" أو "دانته" أو "نجيب فاضل" أو "نور الدين طُوبْجُو" أو "سَزائِي قَرَه قُوجْ" مرات عديدة يستطيع أن يستدل على كتاباتهم من أسلوبهم من ضمن أكوام من الكتب. فهذا موضوع تعوّد على أسلوب معين ومعرفة به، ولا يحتاج هذا إلى قراءة لثلاثين مرة في أكثر الأحيان، بينما كان أئمة الحديث -الذين ذكرنا أسماء بعضهم- قد نذروا حياتهم للحديث وكانوا في الوقت نفسه من كبار علماء اللغة ومن أبطال الذاكرة القوية فعرفوا أسلوب الرسول ﷺ معرفة جيدة لأنهم كانوا يعيشون معه صباح مساء، لذا كان بإمكانهم معرفة أحاديث الرسول ﷺ وفرزها عن غيرها بكل سهولة، فما أن يقرأوا النص مرة أو مرتين حتى يستطيعوا القول بأنه حديث أو أنه ليس بحديث.

د- القرآن والأحاديث المتواترة هي المحك والمقياس

قسمت الأحاديث حسب كثير من علماء الحديث إلى حديث متواتر وحديث آحاد. فإذا كان الحديث مرويًّا عن جماعة لا يمكن إتفاقهم على الكذب عُدّ "حديثًا متواترًا." والحديث المتواتر يعد ركنًا من أركان العلم الثلاثة عند أهل السنة، أما الأحاديث خارج المتواترة فتعد "أحاديث آحاد" أي هي الأحاديث التي نُقلت من راوٍ واحدٍ. ومع أن بعض الأحاديث التي كانت أحاديث أحاد في زمن الصحابة إلا أنها اشتهرت في عهد تابعي التابعين فأطلق عليها اسم "الأحاديث المشهورة" إلا أن التصنيف الأساسي هو التصنيف إلى حديث "متواتر" وحديث آحاد. وأحاديث الآحاد هذه تُعرض على القرآن والسنة، فإن تماشت معهما قبلت وإلا عدت من الأحاديث التي فيها نظر وأصبحت موضع نقاش وحساب.

هـ- لقاء وراء الزمان والمكان

مع أن ما سنقوله لم يدرج ضمن أصول الحديث إلا أن هناك أناسًا ربانيين تجاوزوا الزمان والمكان وأخذوا بعض الأحاديث من الرسول ﷺ مباشرة. فمثلاً يقول محيي الدين بن عربي إنه أخذ هذا الحديث الذي لا نستطيع عده حديثًا صحيحًا والذي لا يوجد في أي كتاب من كتب الحديث الصحاح من الرسول ﷺ مباشرة: «كنتُ كنزًا لا أُعرَف، فأحببت أن أُعْرَفَ فخلقتُ خلقًا فَعرّفْتُهُمْ بي فَعَرَفوني.»[1]

ونقل عن الإمام الكبير جلال الدين السيوطي أنه التقى رسول الله ﷺ في اليقظة مرارًا. أما الإمام البخاري فكان عند قيامه بتدوين أي حديث من الأحاديث التي توصل إليها بجهوده وتدقيقه يتوضأ ويصلي ركعتين ويتوجه بقلبه إلى الرسول ﷺ متضرعًا وقائلاً: "هل هذا الحديث منكم يا رسول الله؟" ويتصرف حسبما يتلقاه من إشارات قلبية.[2]

هناك جانب للروح يتجاوز الزمان والمكان.. وما نعرفه عن الزمان والمكان ليس شيئًا قطعيًا، كما أن الأمور المعروفة في هذا الموضوع ليس شيئًا كثيرًا. فـ"أينشتاين" يقول بوجود بُعد رابع غير أبعاد المكان الثلاثة -مع أن هذا لم تتم البرهنة عليه بمعطيات القوانين الفيزيائية حتى الآن- هذا مع العلم أن كثيرًا من أولياء الله وقفوا على هذا الأمر، وكانت أحوالهم التي تتجاوز الزمان والمكان إشارة إلى التجليات الجوانية لنظام الوجود.

---

[1] كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٢/٢؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١٧٩؛ النوافح العطرة للصعيدي، ص٢٦٤

[2] تهذيب التذهيب لابن حجر، ٤٩/٩ ؛ فتح الباري لابن حجر، المقدمة، ص٥١٣.

و- تأليف كتب عن الرواة

كتبت كتب مفصلة حول رواة الأحاديث سواء أكانوا من الصحابة أم من التابعين أم من تابعي التابعين، أين ولدوا؟ إلى أين هاجروا؟ أين أقاموا؟ أين عاشوا؟ أين توفوا؟ أين نشروا علومهم ومع من التقوا؟ وممن أخذوا علومهم؟ تناولت هذه الكتب كل هذه الأمور والتفاصيل.

كان علي بن المديني أول من كتب في هذا الموضوع، إذ سجل في كتابه "كتاب معرفة الصحابة" عن الصحابة الذين هاجروا من مكة أو من المدينة فسجل فيه من ذهب منهم إلى الطائف أو إلى الشام، ومن ذهب إلى الكوفة أو إلى البصرة أو إلى بلاد ما وراء النهر وأين بقوا ومع من التقوا ومن درسوا عليه. ونستطيع أن نعد الكتب التالية من الكتب المشهورة في هذا المجال:

- كتاب "الاستيعاب" لابن عبد البر،
- كتاب "الإصابة في تمييز الصحابة" لابن حجر،
- كتاب "أسد الغابة في معرفة الصحابة" لابن الأثير،
- كتاب "الطبقات" لابن سعد،
- كتاب "التاريخ" لابن عساكر،
- كتاب "التاريخ" للبخاري،
- كتاب "التاريخ الكبير" ليحيى بن معين.

فمن هذه الكتب كتب تناولت تاريخ ثلاثة آلاف من الصحابة، ومنها من تناولت حياة خمسة آلاف أو عشرة آلاف من الصحابة. فعندما نطلع على كتاب "الكاشف" للذهبي نراه يعطي معلومات عن كل شخص يذكره: أسماء الأشخاص الذين أخذ عنهم الأحاديث وأسماء الأشخاص الذين رووا عنه. وهكذا نستطيع تقييم الأحاديث من ناحية السند بعد إحاطتنا علمًا بسلسلة الأحاديث ومن روى الحديث وممن روى هذا الحديث.

ز- تدقيق كتب الحديث وتمحيصها

ومع كل هذا التدقيق والتمحيص والحيطة والحذر تسللت بعض الأحاديث الموضوعة إلى كتب الحديث الصحاح، لذا تم القيام بنخل الأحاديث مرة أخرى وتمييز اللآلئ الحقيقية عن اللآلئ المصنوعة وألفت كتب عديدة في هذا المجال. فقام المقدسي ولأول

مرة بجمع الأحاديث الموضوعة في كتابه "التذكرة الكبرى" وتبعه الآخرون، وكان مقياس المقدسي وغيره مِمَّنْ ألفوا في هذا الموضوع شديدًا بل حتى قاسيًا جدًا إلى درجة أن "ابن الجوزي" حكم على بعض الأحاديث الواردة في مسند الإمام أحمد الذي يحتوي على أكثر من أربعين ألف حديث بالوضع أو بالضعف أو بالترك مع أن الإمام أحمد بن حنبل إمام مذهبه، وبدأ بتقييم الأحاديث الواردة في المسند، وجاء بعده الحافظ ابن حجر العسقلاني فتناول الأحاديث التي حكم عليها ابن الجوزي بالوضع أو الضعف أو الترك، ومحصها من جديد ودققها في كتابه "القول المسدّد في الذبّ عن مسند أحمد"، ونتيجة لهذا التدقيق والفرز استطاع أن يبرهن على صحة أحاديث "المسند" عن طرق أخرى مختلفة عدا ثلاثة عشر حديثًا ذكر أنه لا يستند إلى أساس متين.

وأريد هنا أن أجذب انتباه القراء إلى أن الكثير من المحدثين يتهمون "ابن الجوزي" بالتساهل وعدم الدقة لأنه أسند الضعف أو الوضع إلى كثير من الأحاديث الصحيحة. لذا، قام ابن حجر الملقب بخاتم الحفاظ والإمام جلال الدين السيوطي بتدقيق الأحاديث التي عدها "ابن الجوزي" موضوعة من جديد فقال السيوطي: "لم أر ضمن هذه الأحاديث أي حديث موضوع، بل فيها أحاديث ضعيفة فقط"،[1] وقام السيوطي بتدقيق كتاب "الموضوعات الكبرى" لابن الجوزي والأحاديث التي قال إنها موضوعة، وذلك في كتابه المشهور: "اللآلئ المصنوعة" حيث بيّن فيه أي حديث من تلك الأحاديث موضوعة وأيًّا منها متروكة وأيًّا منها صحيحة.

وعدا هذا فقد كتب بعض المستدركات، إذ تم فيها جمع الأحاديث التي تعد صحيحة حسب المقاييس والشروط التي وضعها البخاري ومسلم ولكنهما لم يدرجاها في صحيحهما، بل جمعت ضمن كتب أخرى، وأشهرها "المستدرك" للحاكم النيسابوري. وبعده جاء مستدرك الإمام الذهبي الذي قال ابن حجر في حقه أنه صرف حياته في الإعجاب به وأنه كان يكتب أدعية في تقوية الذاكرة ثم يبلعها لكي يهب الله له ذاكرة كذاكرة الذهبي. وقام الذهبي في مستدركه هذا بتدقيق ما جاء في مستدرك الحاكم بكل عناية وحرص وحلله وأوضح كل شيء من جديد.

ثم كتبت بعض الكتب حول الأقوال التي اشتهرت لدى العامة بأنها أحاديث، فكتب السخاوي كتابه المعروف بـ"المقاصد الحسنة"، وكتب العجلوني كتابه "كشف الخفاء" حيث

---

[1] اللآلئ المصنوعة للسيوطي، ٢/١.

تناولا هذه الأقوال وبيّنا أيًّا منها حديثًا نبويًّا وأيا منها ليس بحديث، فبجانب الأحاديث العديدة التي تحض على العلم إلا أن بعض ما اشتهر لدى العامة من أقوال أمثال: «العلم من المهد إلى اللحد» و«اطلبوا العلم ولو بالصين»،[١] و«خير الناس من ينفع الناس»[٢] ليست بأحاديث مثلما أوضحا ذلك.

إذن، فبعد كل هذه الجهود في التدقيق والتمحيص وبعد بذل كل هذه العناية في جمع الحديث وتحليله وفرزه وتدقيقه أيمكن النظر بعين الشك إلى الأحاديث الموجودة في كتب الصحاح، وهل من الإنصاف محاولة التشكيك في النبع وفي المصدر الثاني للدين الإسلامي؟ وكيف يمكن تفسير هذه المحاولات؟

٢) أمثلة من الأحاديث الموضوعة

شرحنا فيما سبق الجهود الكبيرة التي بذلها علماء الحديث العظام في جمع الأحاديث وفرزها فأصبحنا نعرف بفضل هذه الجهود الكبيرة الأحاديث الصحيحة والأحاديث الموضوعة بوضوح تام، لأن السنة التي هي تفسير للقرآن الكريم مشمولة بالوعد الإلهي بالحفظ ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ﴾ (الحجر:٩). ولكن هذه السنة تعرضت لهجوم المستشرقين ولهجوم بعض السائرين في ركابهم، لذا فسنقوم باستعراض أمثلة من الأحاديث الموضوعة، ثم باستعراض بعض الأحاديث الصحيحة التي تعرضت لها ألسنة البعض.

هناك رواية وردت على أنها حديث وهي: «أبو حنيفة سراج أمتي.»[٣] صحيح أن أبا حنيفة أصبح سراجًا لأمة محمد ﷺ، فقليل من خدم الإسلام خدمته بعد الصحابة، غير أن هذا الكلام لم يصدر من فم سيد المرسلين ﷺ، بل هو قول أملاه التعصب المذهبي.

ومثال آخر: «اتخِذوا الديكَ الأبيض»،[٤] الديك الأبيض محبوب من قبل الناس، ولكن نقاد الحديث بينوا أنه حديث موضوع من قبل بعض الرواة الكذابين، وأنه ليس بحديث، وقد يكون واضع هذا الحديث أحد تجار الديوك.

---

[١] كنز العمال للهندي، ١٠/١٣٨؛ فيض القدير للمناوي، ١/٥٤٢؛ كشف الخفاء للعجلوني، ١/١٣٨؛ الفردوس للديلمي، ١/٧٨.

[٢] كنز العمال للهندي، ١٦/١٢٨؛ كشف الخفاء للعجلوني، ١/٣٩٣.

[٣] كشف الخفاء للعجلوني، ١/٣٣؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٤٧.

[٤] كشف الخفاء للعجلوني، ١/٣٦.

هناك قول شائع بين الناس وهو: «اتق شر من أحسنت إليه»،[١] وهذا القول علاوة على أنه ليس بحديث فإنه يخالف المنطق، ولو عكسنا هذا القول أي لو قلنا: "أَحسِنْ إلى من اتقيتَ شره" لكان هذا أقرب إلى المنطق، ذلك لأن الإحسان يلين قلب الإنسان.

أحسن إلى الناس تستعبد قلوبهم فطالما استعبد الإنسان إحسانُ

وهناك قول أو حكمة مأثورة تقول: "الإنسان عبد الإحسان" أما القول الأول فهو كذب صريح لا يمكن إسناده إلى الرسول ﷺ.

قلت قبل قليل بأن الكلام المذكور والمنسوب إلى الرسول ﷺ لا يتفق مع العقل ومع المنطق. أجل، فالإسلام دين العقل والمنطق، إلا أن كونه عقليًا ومنطقيًا شيء واستناده إلى العقل والمنطق شيء آخر. فالإسلام حقيقة فوق مستوى الإنسان.. حقيقة وضعها الله تعالى وبلغها الرسول ﷺ، ووظيفة الإنسان هي الوصول إلى هذه الحقيقة، وإلا فإن العقول المنفردة لا تستطيع الوصول إلى أفق هذه الحقيقة وحدها أبدًا.

هذه هي الحقيقة.. ومع ذلك نرى جهود بعض المحافل العلمية لجر الموضوع إلى مجرى آخر، فمثلاً يسندون القول التالي إلى الرسول ﷺ (أو ما معناه): عندما تنقلون مني حديثًا فتشاوروا فيما بينكم فإن كان موافقًا للحقيقة فصدقوه واتخذوه أساسًا لدينكم، لا يهم إن كنت أنا قائل ذلك الكلام أم لا، المهم أن يكون الكلام موافقًا للحقيقة.

هذا الكلام ليس بكلام الرسول ﷺ أبدًا، ذلك لأن الله تعالى وحده هو الذي يعلم الحقيقة وحده ويعينها والرسول ﷺ هو الذي ينقل إلينا هذه الحقيقة فقط، والحقيقة لا تتبع المقاييس التي يضعها الأشخاص، ولا يمكن اتخاذ هذه المقاييس معيارًا لأحاديث الرسول ﷺ. على العكس تمامًا فإن على الأشخاص أن يوازنوا تصرفاتهم حسب السنة النبوية، أي حسب أقواله وتصرفاته.

هناك حديث مختلق آخر وهو: «وُلدت في زمن الملك العادل»،[٢] وهو كلام مختلق في مدح الملك الإيراني "أنوشيروان"، فالرسول ﷺ لا يحتاج إلى مدح مضاف إليه بسبب شخص آخر، لأنه هو الذي أعطى الزهو والفخر للزمان والمكان، ولا يعلي مرتبة مثل هذا الرسول الكريم أن ملكاً عادلاً كان يعيش في زمانه.

وهناك قول متداول بين الناس وسمعناه من المنابر كثيرًا على أنه حديث نبوي وهو ليس

---

[١] كشف الخفاء للعجلوني، ١/٤٣؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٥٠.

[٢] كشف الخفاء للعجلوني، ٢/٣٤٠؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٢٥٩.

كذلك مع أنه لا يخالف العقل والمنطق وهو: «النظافة من الإيمان.»[١] ومع كون معنى هذا القول صحيحًا إلا أنه ليس بحديث. قلنا إن معناه صحيح إذ ورد في حديث صحيح: «الطُّهور شطر الإيمان، والحمد لله تملأ الميزان.»[٢]

وقول خادع آخر: «تختموا بالعقيق.»[٣] مثل هذا الكلام لم يصدر عن الرسول ﷺ، ولكن هناك حديث روته أمنا عائشة رضي الله عنها وهو: «تخيموا بالعقيق»، أي اضربوا خيامكم في العقيق. والعقيق اسم وادٍ بين المدينة المنورة ومكة المكرمة. ولما كانت الكتابة في العهود الأولى خالية من التنقيط فقد انقلبت كلمة "تخيموا" إلى "تختموا"، واختلطت عليهم كلمة "العقيق" فظنوها حجر العقيق، ثم أضافوا في نهايته كذباً آخر وهو «فإنه ينفي الفقر.»[٤]

وحديث موضوع آخر وهو «النظرة إلى وجه جميل عبادة.» وهو قول مكذوب وضلالة وانحراف.كما أن: «اطلبوا العلم ولو بالصين»[٥] ليس بحديث بل هو حديث موضوع. الغاية من وضعه -كما توهم واضعوه- إظهار اهتمام الإسلام بالعلم. ففي القرآن الكريم وفي السنة النبوية الكثير من الحض على العلم والتشويق له بحيث لا نحتاج إلى مثل هذه الأقوال الشبيهة بسجع الكهان، فالقرآن الكريم يقول مثلاً: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ﴾ (فاطر:٢٨) ويقول: ﴿هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (الزمر:٩) وفي الحديث الصحيح: «إن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم.»[٦] فوجود عشرات من الآيات والأحاديث النبوية الصحيحة تغنينا عن أقوال موضوعة.

و . الأحاديث الصحيحة المتهمة بالوضع

بينما لا نرى من يتكلم ضد هذه الأقوال المنتشرة والمحسوبة كأحاديث بل حتى أنها تكون أحيانًا موضوعًا للخطب والمقالات. فإننا نرى من يتهم بالوضع الكثير من الأحاديث الموجودة في صحاح البخاري ومسلم وغيرهما من كتب الأحاديث الستة.

---

[١] الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٩١.

[٢] مسلم، الطهارة ١؛ الترمذي، الدعوات ٨٦.

[٣] كنز العمال للهندي، ٦٦٣/٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٢٩٩/١-٣٠١؛ كتاب الموضوعات لابن الجوزي، ٥٧/٣.

[٤] كنز العمال للهندي، ٦٦٣/٦-٦٦٤؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٢٩٩/١.

[٥] كشف الخفاء للعجلوني، ١٣٨/١؛ الفردوس للديلمي، ٧٨/١؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص٢٥٢.

[٦] أبو داود، العلم ١؛ الترمذي، العلم ١٩؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧.

١) بشارة التوراة

فمن هذه الأحاديث الحديث التالي الوارد في صحيح البخاري: «في التوراة: [يا أيها النبي إنا أرسلناك شاهدًا ومبشرًا ونذيرًا وحِرْزًا للأميين، أنت عبدي ورسولي، سميتك المتوكل، ليس بِفَظٍّ ولا غليظ ولا سَخّاب في الأسواق، ولا يدفع بالسيئة السيئة، ولكن يعفو ويغفر، ولن يقبضه الله حتى يقيم به الملةَ العوجاء بأن يقولوا: لا إله إلا الله فيفتح بها أعينًا عُميًا وآذانًا صمًا وقلوبًا غلفًا.]»[١]

قام بعض المستشرقين ومن يسير خلفهم في العالم الإسلامي بنقد هذا الحديث وزعموا أنه موضوع، والسبب بسيط وهو كون رواة الحديث هم عبد الله بن عمرو بن العاص وابن عباس وأنس وأبو هريرة وكذلك وجود كعب الأحبار ضمن الرواة.

أولاً ليس هناك في هذا الحديث شيء يناقض صفات الرسول ﷺ أو أي حادثة تاريخية أو أي وصف قرآني للرسول ﷺ، ثم نستطيع ذكر أن التوراة والإنجيل لا يزالان حافلين ببشارات وإشارات حول رسولنا ﷺ رغم تحريفهما، والقرآن الكريم يقول في حق الذين يؤمنون بالرسول ﷺ من أهل الكتاب: ﴿الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ﴾ (الأعراف:١٥٧) ويقول أيضًا في نهاية سورة الفتح: ﴿ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ﴾ (الفتح:٢٩).

إذن، ألا يخبرنا القرآن الكريم بأن التوراة والإنجيل يتحدثان عن رسول الله ﷺ وعن أصحابه؟ حتى أن العلامة حسين الجِسْر ثبت في نسخ التوراة والإنجيل الموجودة حاليًا ١١٤ إشارة تتعلق برسولنا ﷺ. ولا يسع الإنسان إلا الذهول من كثرة هذه البشارات رغم كل هذا التحريف والتغيير، وسوف يأتي اليوم الذي ستؤيد البحوث صحة إنجيل بَرنابا إن شاء الله حيث نجد فيه اسم رسولنا ﷺ صراحة، أجل، فإن التبشير باسم الرسول الذي سيأتي من بعده كان من أهم وظائف عيسى عليه السلام.

ثم إن معظم من دخل الإسلام كان إما من المشركين أو من النصارى أو من اليهود، وكان كعب الأحبار مسلمًا من أصل يهودي، ويقول عنه مفكر العصر الحديث "إن معلوماته أسلمت أيضًا بعدما أشهر إسلامه."[٢]

وكان ينقل بعض الإسرائيليات التي لا تخالف القرآن والسنة في المواضيع التي سكت

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٤٨) ٣، البيوع ٥٠؛ الدارمي، المقدمة، ٢.

[٢] صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم لبديع الزمان سعيد النورسي، ص٣٤.

عنها القرآن والسنة. ولم يكن -كما ادعى البعض- عدوًا متعصبًا ضد الإسلام. أما اتهامه بوجود علاقة بينه وبين مقتل عمر بن الخطاب ﷺ فهي تهمة اختلقت بعد عدة عصور. وكان كبار الصحابة من أمثال ابن عباس وأبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عمرو ﷺ يستمعون إليه وهو ينقل إليهم بعض أخبار التوراة، ولكن ما كان يكذب لا هو ولا أحد من هؤلاء الصحابة الكرام. فالكذب ما كان ليقرب حتى من أحلامهم، لذا فالقيام باتهام أحاديث صحيحه بالوضع واتهام رواتها من كبار الصحابة دون أي مبرر وبملاحظات سطحية وارتجالية مع كون الحوادث والوقائع التاريخية واضحة جدًا في هذا الخصوص لا يقصد منه سوى النيل من السنة النبوية التي هي الركن الثاني للإسلام ومحاولة هدمها.

٢) التوسل

والحديث الصحيح الآخر الذي جوبه بالاعتراض هو عن أنس ﷺ أن عمر بن الخطاب ﷺ أخذ بيد العباس ﷺ في عام القحط وتوسل به إلى الله تعالى واستمطره قائلاً: "اللّهم إنا كنا نتوسل إليك بنبينا ﷺ فتسقينا وإنا نتوسل إليك بعم نبينا فاسقنا" فيُسقَون.[1]

جاء الاعتراض على هذا الحديث في كتاب ابن أبي الدنيا وفي كتاب "البيان والتبيين" للجاحظ الذي كان تلميذًا من تلاميذ "النظّام" إمام المعتزلة المعروف بإنكاره للكثير من الأحاديث الصحيحة والمعروف أيضاً بنظرته المادية، إذ يقول الجاحظ في كتابه هذا إن في حادثة استسقاء عمر ﷺ اضطرابًا كثيراً إذ ترد مرة بأنه دعا وهو على المنبر، ومرة أنه دعا بعد الصلاة.

أولاً: إن الجاحظ ليس بمحدث، وعلاقته مع الحديث علاقة أي إنسان عادي، أما ابن أبي الدنيا فهو رغم كونه شخصاً تقياً إلا أن كثيراً من المحدثين يتفقون على احتواء كتابه على الكثير من الأكاذيب والأخطاء. إذن، فكيف يمكن إصدار حكم على حديث ما استناداً إلى مثل هؤلاء؟ ولو قال أحدهم إن الحديث الفلاني رواه الإمام الغزالي لضحكوا منه، لأنه مع كونه مفكراً إسلامياً فريداً وكبيراً إلا أنه لم يكن محدثاً، حتى أن زين الدين العراقي -الذي يعد مجددًا في علم الحديث- تناول الأحاديث الواردة في كتاب "إحياء علوم الدين" فأشار إلى الصحيح وإلى الحسن وإلى الضعيف منها، أي قام بنقد وتقييم الأحاديث الواردة فيه.. فلا يسأل من الطبيب علوم الهندسة ولا من الكيمياوي علوم الطب.. إذن،

---

[1] البخاري، الاستسقاء، ٣، فضائل أصحاب النبي ١١.

فإن الاعتراض على هذا الحديث لا يستند إلى أساس علمي ولا إلى أساس متين.

ثانيًا: إن التوسل ليس شيئًا غريبًا أو مستهجنًا، فالقرآن الكريم يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ وَابْتَغُوا إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ﴾ (المائدة:٣٥). وكان الصحابة الكرام يطلبون من النبي ﷺ أن يدعو لهم، وهذا الطلب مبني على الأمر نفسه، أي أمر التوسل. فمثلاً جاء بدوي إلى الرسول ﷺ في أحد الأيام وشكا إليه القحط وطلب منه أن يستسقي لهم فرفع رسول ﷺ يديه ودعا: «اللّٰهم اسقنا غيثًا» فلم يلبث حتى تجمعت السحب وأرعدت وبدأ المطر ينزل مدرارًا، واستمر المطر أيامًا حتى اشتكى الناس وجاءوا إليه ورجوه الدعاء لتحبس السماء ماءها فدعا فأمسكت السماء ماءها، وشكلت الغيوم تاجًا فوق المدينة وذهب الناس إلى بيوتهم تغمرهم أشعة الشمس حتى أن الرسول ﷺ تبسم أمام هذا المنظر وقال ووجهه مشرق: «أشهد أن الله على كل شيء قدير وأني عبد الله ورسوله.»[١]

وقد ورد في أحاديث صحيحة حادثة انحباس ثلاثة مؤمنين في مغارة وقيام كل واحد منهم بالتوسل لله بأعماله الصالحة للتخلص من ذلك المأزق، فذكر أحدهم بره بوالديه، وذكر الآخر ابتعاده عن غواية ابنة عمه خشية من الله تعالى، وذكر الثالث قيامه بتنمية وتشغيل أجرة شخص خدمه ولم يتيسر له تسليمها له ثم قيامه بإعطاء هذا المال الذي نماه له عند لقائه به.. ذكروا هذا ودعوا الله تعالى أن يخلصهم مما هم فيه من الضيق بحرمة هذه الأعمال الصالحة.[٢] كما وجد في عهد الرسول ﷺ من استعان بالوسيلة وأقرهم الرسول ﷺ على ذلك، فمثلاً جاءه أحدهم يشتكي من عمى عينيه فعلمه الرسول ﷺ أن يتوضأ ثم يصلي ركعتين ثم يدعو الله تعالى بالدعاء الآتي: «اللّٰهم إني أسألك وأتوجه إليك بنبيك محمد نبي الرحمة يا محمد! إني توجهت بك إلى ربي في حاجتي هذه لتُقضى لي، اللّٰهم فشَفِّعْه فيّ.»[٣] وما أن نفذ ذلك الشخص توصية الرسول ﷺ حتى تخلص من العمى وأصبح مبصراً.

فإذا كان القرآن الكريم يوصينا بالبحث عن وسيلة إليه، وإذا كان الرسول ﷺ يوصينا بالتوسل بالقران، وإذا كان يجوّز التوسل به كما يوصي بالتوسل بأعماله الصالحة،[٤] إذن، فما الغرابة في التوسل، ولماذا يستهجنون قيام عمر بن الخطاب ﷺ بالتوسل عند استسقائه المطر؟ ليس هذا إلا تمردًا على السنة وتشكيك بها من دون مبرر.

---

[١] البخاري، الاستسقاء ١٤؛ أبو داود، الاستسقاء ٢؛ ابن ماجه، الإقامة ١٥٤؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٢٥٣-٢٥٦.

[٢] انظر: البخاري، الإجارة ١٢؛ مسلم، الذكر ١٠٠.

[٣] ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٨٩؛ الترمذي، الدعوات ١١٨.

[٤] انظر: البخاري، الإجارة ١٢؛ مسلم، الذكر ١٠٠.

٣) الإناء الذي ولغ فيه الكلب

هناك حديث آخر رواه البخاري ومسلم وأبو داود والنسائي وابن ماجه وابن حنبل رفضه المستشرقون ومن يسير في أثرهم، وذلك لمجرد أن عقولهم لم تستطع استيعابه أو لكون الرواة هم إما أبو هريرة أو عبد الله بن عمر أو أنس ﷺ والحديث هو: «طهور إناء أحدكم إذا وَلَغ فيه الكلب أن يغسله سبع مرات أُولاهن بالتراب.»[١] ويرد الحديث في رواية أخرى بصيغة: «إذا شرب الكلب في إناء أحدكم فليغسله سبع مرات.»[٢]

وتعبير "سبع" الوارد في الحديث قد يقصد منه العدد "سبعة" نفسه أو هو يرمز إلى الكثرة، لذا رأى فقهاء المذهب الحنفي أن غسل الإناء ثلاث مرات يكفي، أي إذا كان غسل الإناء ثلاث مرات يكفي لنظافته تم الاكتفاء بذلك.[٣]

يمكن كتابة كتاب في المعاني الشاملة لهذا الحديث الشريف، وهو إشارة من إشارات النبوة، فقد تم في العصر الحديث فقط معرفة وجود أمراض تنتقل من الكلاب إلى الإنسان. وهذه المسألة المهمة في موضوع حفظ الصحة نبهت إلى وجود أمراض مشتركة بين الإنسان والكلب لوجود بعض الجراثيم والفيروسات التي تستطيع العيش في الكلب وفي الإنسان وتسبب لهما المرض، أي أن هذا الحديث يعد معجزة نبوية، وقد ظهرت كتابات لا تعد ولاتحصى في المجلات العلمية حول هذا الخصوص.

٤) حديث الذباب

وشبيه بالحديث السابق ما جاء في حديث صحيح آخر تناوله بالنقد حتى "موريس بوكاي" الذي بدأنا نترجم كتبه بكل تقدير، إذ ادعى أن المسلمين قبلوا هذا الحديث نتيجة ذهول أو جهل، إلا أن النتيجة كانت في صف رواة الحديث من أمثال أبي هريرة وخيبة وخسرانا للمستشرقين وتابعيهم، والحديث هو: «إذا وقع الذباب في إناء أحدكم فليغمِسْه كله ثم ليطرحه.»[٤] ليس في الإمكان نقد الحديث من ناحية السند، ذلك لأننا نجد أن رواته

---

[١] البخاري، الوضوء ٣٣؛ مسلم، الطهارة ٩١؛ أبو داود، الطهارة ٣٧؛ الترمذي، الطهارة ٦٨؛ النسائي، الطهارة ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٤٥، ٢٥٣

[٢] البخاري، الوضوء ٣٣؛ مسلم، الطهارة ٩٠.

[٣] الهداية للمرغناني، ١/٢٣.

[٤] البخاري، الطب ٥٨، بدء الخلق ١٧؛ أبو داود، الأطعمة ٤٨؛ النسائي، الفرج ١١؛ ابن ماجه، الطب ٣١؛ الدارمي، الأطعمة ١٢؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٢٩، ٢٤٦.

هم البخاري وأبو داود والنسائي والدارمي وابن حنبل، وأن الصحابة والأمة قبلته ولم يورد علماء الحديث أي اعتراض حوله حتى وصوله إلينا.

كان أئمة المعتزلة أول من اعترضوا عليه لأنه خالف العلم الموجود آنذاك ثم اعترض عليه المستشرقون ورجال العلم في القرن العشرين، هذا علمًا بأن هذا الحديث يشكل وحده معجزة، ذلك لأن الرسول ﷺ يجلب الأنظار قبل كل شيء إلى قيام الذباب بنقل الجراثيم لأن الحديث يستمر هكذا: «فإن في أحد جناحيه شفاء وفي الآخر داء.»

فعندما يريد الذباب أن يحط على مكان نراه يستعمل أحد جناحيه باحتياط وهو نادرًا ما يحط على مكان لا يستطيع أن يطير منه كالعسل مثلاً، فدماغه الصغير جدًا مخطط ومبرمج لتسيير أموره الحياتية، ولكن هذا الذباب ينقل معه للإنسان عندما يحط على وجهه أو طعامه أمراضًا عديدة كالتيفود والكوليرا والديزانطري. وهكذا نرى أن العلم متأخر عن رسول الله ﷺ -الذي أعلن أن في أحد جناحي الذباب داء وفي الآخر دواء- عدة عصور. وقد كشف علم الطب الآن هذه الحقيقة التي عبر عنها الرسول بكلمات قليلة. إذن، فإن رد هذا الحديث -الذي قبلته الأمة أربعة عشر قرنًا- لمجرد وجود أبي هريرة ضمن الرواة أو لمجرد عدم استيعاب عقولهم له يعد قرارًا مستعجلاً لا يتلاءم مع العلم ولا مع الحقيقة.

ولا تقتصر صفة حمل الداء في جانب وحمل الدواء في جانب آخر على الذباب فقط، فالأمر وارد أيضًا لدى العقرب ولدى النحل، فعندما يلسع العقرب شخصًا يأخذون العقرب ويسحقونه ويضعونه على موضع اللسع فيكون شفاء، أما النحل فنراها تصنع العسل في جانب والسم في جانب آخر.

٥) شد الرحال إلى المساجد الثلاثة

وحديث صحيح آخر تعرض للنقد على أساس أنه يهدم قواعد السنة ولكونه مرويًا عن الصحابة عن كعب الأحبار، أو لمظنة أنه يقدس المسجد الأقصى باسم اليهودية. والحديث هو: «لا تُشد الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجدي هذا والمسجد الأقصى»[1] ويرد المسجد الأقصى في بعض الروايات قبل المسجد النبوي.

أولاً: لا يوجد مؤمن يشعر بأي غضاضة عند مدح المسجد الأقصى، لأنه المسجد الذي

[1] البخاري، الصلاة في مسجد مكة ١؛ مسلم، الحج ٥١١؛ الترمذي، الصلاة ١٢٦؛ النسائي، المساجد ١٠؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٩٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢٣٤/٣.

يذكر القرآن الكريم عنه ﴿بَارَكْنَا حَوْلَهُ﴾ (الإسراء:١)، وهو المكان الذي عرج إليه الرسول ﷺ في ليلة المعراج وأمّ أرواح الأنبياء العظام فيه. فالمسجد الأقصى ليس معبدًا لليهود، بل هو رمز لحكم الإسلام الذي هو دين الله المبين. فالبقعة المباركة التي تضم المسجد الأقصى هي البقعة التي فتحها يوشع بن نون فتى الرسول العظيم موسى عليه السلام عندما رأى أن جماعته قد نضجت وتهيأت للأمر، ثم أصبح فتح هذه البقعة المباركة من نصيب عمر بن الخطاب رضي الله عنه ثم للقائد الإسلامي العظيم صلاح الدين الأيوبي وسيكون فتحها الأخير من نصيب الربانيين في المستقبل القريب إن شاء الله. المسجد الأقصى رمز، وفقده هزيمة معنوية، وفتحه من جديد سيكون رمزًا لوجدان الإسلام ذاته.. فإذا كان المسجد الأقصى يملك قيمة ومكانة كبيرة في كتاب الله وقام الرسول ﷺ بالتعبير عن هذه القيمة والمكانة فما الداعي لتكذيب هذا الحديث؟ أما كونه مرجحًا على المسجد النبوي فهذا موضوع يمكن مناقشته، أما العبادة في المسجد الأقصى وفي غيره من الأماكن المماثلة فلا توجد عبادة خاصة لها، وتعيين زمان ومكان العبادات يعود للشارع، ففي رواية عن ابن عباس أن امرأة نذرت أن تصلي في المسجد الأقصى إن شفاها الله من مرضها، وعندما شفيت بدأت تستعد للسفر، وقبيل سفرها زارت أم المؤمنين ميمونة رضي الله عنها وأعلمتها بأمرها فقالت لها ميمونة رضي الله عنها: أجلسي فكلي ما صنعت وصلي في مسجد الرسول ﷺ فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «صلاة فيه أفضل من ألف صلاة فيما سواه من المساجد إلا مسجد الكعبة.»[1]

أجل، إن الصلاة يمكن أن تؤدى في كل مكان ما دام الله تعالى لم يخصص زمانًا خاصًا ومكانًا خاصًا للعبادة والطاعة.. فمن نذر أن يضحي هنا أضحية يستطيع أن يذبح أضحيته في مكان آخر، ومن نذر أن يضحي في مكان آخر يستطيع أن يوفي بنذره هنا أيضًا. وعندما تناولت أمنا ميمونة رضي الله عنها الموضوع من هذه الزاوية أرادت أيضًا أن تبرز أهمية وأفضلية الصلاة في المسجد النبوي، ومع ذلك فإن بعض الفقهاء الكرام استثنوا المسجد الحرام من هذه القاعدة العامة لكونه مشتملاً على بعض الخصوصيات مثل إمكانية الصلاة فيه على الدوام وإمكانية الطواف حوله إلى جانب أداء الصلاة، لذا قالوا بأن من نذر أضحية في المسجد الحرام عليه أن يوفي بنذره هناك. ولا تقلل هذه المسألة الفقهية ولا كلام أمنا ميمونة رضي الله عنها من قيمة المسجد الأقصى أو من قيمة أي مسجد آخر ومنزلته.

---

[1] البخاري، الصلاة في مسجد مكة ١؛ مسلم، الحج ٥١٠؛ الترمذي، المواقيت ١٢٦؛ النسائي، المناسك ١٢٤.

٦) الطائفة الملتزمة بالحق

وحديث صحيح آخر تعرض للتكذيب يرينا مستوى المكذبين له، وهو حديث: «لا تزال طائفة من أمتي ظاهرين على الحق لا يضرهم من خذلهم حتى يأتي أمر الله وهم كذلك.»[١]

من الصعب فهم السبب في معارضة هذا الحديث، فالتاريخ الإسلامي لم يشهد على مدى أربعة عشر قرنًا أي عهد انمسح فيه الإسلام من الدنيا ومن القلوب ولم يجد له مناصرين ومعاونين. أجل، فالتاريخ لا يحدثنا عن عهد لم يكن للإسلام جماعة عملت في سبيله.. لندع الماضي ولنتأمل القرن العشرين وهو أكثر القرون تهجمًا على الدين وعلى المتدينين، ومع ذلك لم يستطيعوا إزالة الدين ومسحه من الوجود، إذن، فأين الجانب غير المقنع في هذا الحديث؟ قامت الشيوعية بمطاردة الدين في ديارها وأعلنت عليه حربًا ضروسًا بهدف مسحه من الوجود، ولكن كان هناك على الدوام حتى في تلك البلاد الشيوعية من نذر نفسه للدين، بل إن الإنسانية بعد أن سبحت في مستنقع الكفر كل هذه السنوات تفتش الآن عن مخرج وعن منقذ لها، فلا تجد إلا الدين -والدين الإسلامي على الأخص- لأن الدين الإسلامي شمعة إلهية لا يمكن إطفاؤها بالنفخ.

قدمت تفاسير عديدة لكلمة "الجماعة" الواردة في الحديث، فالبخاري يقول: "إنهم أهل الشام"،[٢] ذلك لأن الشام كان في عهده مركز العلم، ومع أن الخلافة كانت قد انتقلت من الشام إلى بغداد إلا أن بلاد الشام حافظت على صفة مركزيتها هذه عدة قرون، فالعلماء الكبار من أمثال الأوزاعي والليث بن سعد ومالك كانوا يرسلون طلابهم إلى الشام ليلتفوا حول الأمراء وينشروا العلم.

ورأى آخرون أن المقصود بـ"الجماعة" هم المحدثون، ورأى آخرون أنهم هم المفسرون. وعلى أي حال فلو تجنبنا حصر معنى "الجماعة" في الحديث في زمان معين أو في مجموعة معينة لكان ذلك أفضل وأقرب إلى معنى الحديث. فهذه الجماعة وجدت على الدوام.. في الشام مرة وفي غيرها مرة.. مرة حول عمر بن عبد العزيز ﷺ ومرة حول الإمام الغزالي ﷺ، وأخرى حول الإمام أحمد السرهندي ﷺ أو حول مولانا خالد البغدادي ﷺ أو حول آخر.. ولكن المهم أنهم وجدوا على الدوام وسيوجدون في المستقبل أيضًا على الدوام.

---

[١] البخاري، الاعتصام ١٠، التوحيد ٢٩؛ مسلم، الإمارة ١٧٠؛ أبو داود، الفتن ١؛ الترمذي، الفتن ٥١؛ ابن ماجه، المقدمة، ١.

[٢] البخاري، التوحيد ٢٩.

٧) غسل اليدين بعد الاستيقاظ

هناك حديث آخر تعرض للرد من قبل من لم يفهموه وهو حديث: «إذا استيقظ أحدكم من نومه فلا يُدخل يده في الإناء حتى يغسلها ثلاث مرات، فإن أحدكم لا يدري أين باتت يده، أو أين كانت تطوف يده.»[١]

وقد استهزأ أحمد أمين صاحب كتاب "فجر الإسلام" و"ضحى الإسلام" بهذا الحديث قائلاً: "ألا يعرف الإنسان أين كانت تطوف يده؟" واستهزأ به أيضًا أبو رَيّة والمستشرق "غولتسهر" الذي يُعد أستاذًا لهؤلاء. ولكن أحقًا يعلم الإنسان أين كانت يده تطوف في الليل؟ أنا أرى أن هذا الحديث يتضمن معجزة من ناحية علم حفظ الصحة جاوزت الأزمان وهي تظهر وتبين حقائق مهمة.

قد يكون الإنسان مصابًا بحساسية أو مرض جلدي، وقد يحك في الليل دون أن يشعر بعض أجزاء جسده، وعلم الطب اليوم يقول إن ملايين الجراثيم توجد تحت الأظافر، إذن، أيجوز مثل هذا الإنسان الذي لوث أظافره وتحت أظافره بالجراثيم أن يمد يده عند فطوره صباحًا إلى الطعام أو إلى إناء الماء؟ ألا يعني ذلك أنه يفتح الطريق للجراثيم لتغزو جسمه؟

إذن، فإن رد مثل هذا الحديث الذي قبلته الأمة منذ البداية حتى الآن والذي لا يتناقض مع العلم بل يتماشى ويتلاءم معه، وذلك لمجرد أن بعض المستشرقين -ومن ورائهم بعض المستغربين في العالم الإسلامي- لم يعجبهم رواة هذا الحديث من الصحابة، أو لأن المستوى العلمي في عهد هؤلاء المستشرقين لم يكن كافيًا لفهم هذا الحديث، أيجوز رد هذا الحديث استنادًا إلى هذه الأسباب الواهية؟

٨) لقاء النبي موسى عليه السلام في المعراج

من بين الأحاديث التي حاولوا ردها هو الحديث الوارد حول لقاء رسول الله ﷺ بموسى عليه السلام في المعراج والذي أرشد رسولنا ﷺ إلى تقليل أوقات الصلاة -التي فرضت بادئ الأمر خمسين وقتا- إلى خمس أوقات،[٢] مع أن هذا الحديث رواه أوثق الرواة من رجال الكتب الستة وغيرها.

---

[١] البخاري، الوضوء ٢٦؛ مسلم، الطهارة ٨٧-٨٨؛ أبو داود، الطهارة ٥٠؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٤١، ٢٥٢، ٢٦٥.

[٢] البخاري، الصلاة ١؛ مسلم، الإيمان ٢٦٣؛ النسائي، الصلاة ١؛ ابن ماجه، إقامة الصلاة ١٩٤؛ المسند للإمام أحمد، ٩/٢٠٨.

أولاً: إن هذا كان لقاء ولم يكن مراجعة، وحتى لو راجع رسولنا ﷺ موسى عليه السلام لما كان في الأمر غرابة، فالرسول ﷺ كان في المعراج لأول مرة، أما موسى عليه السلام فكان في ذلك العالم منذ زمان كنبي مكرم. ثم إن رسولنا ﷺ كان مثال الأدب سواء تجاه الله تعالى أو تجاه النبي موسى عليه السلام، وكان يبحث دائمًا عن اليسر في سبيل أمته. وكان لقاؤه مع موسى عليه السلام ضمن هذا الإطار. ثم إن كان هذا مراجعة فمراجعته لموسى عليه السلام كانت مهمة من زاوية تلطيف الجو مع بني إسرائيل أو مع اليهود من الناحية النفسية والاجتماعية. كما أن الرسول ﷺ جاء مصدقًا لجميع الأنبياء، وكان هذا اللقاء يعبر عن هذا المعنى، وكان قبوله وتصديقه لجميع الأنبياء قبولاً رائعًا حتى أنه لم يأذن بتفضيله على الأنبياء السابقين أو عدم احترامهم.. وعندما غمز أحدهم في حق موسى عليه السلام تدخل حالاً وقال: «لا تُخَيِّروني على موسى، فإن الناس يصعقون يوم القيامة فأكون أول من يفيق فإذا موسى باطش جانب العرش، فلا أدري أكان فيمن صعق فأفاق قبلي أو كان ممن استثنى الله.»[1] أي قام بحفظ حق موسى عليه السلام.

ثم إننا لا نعرف جميع أبعاد المكان، لذا لا نعرف في أي بُعد جرت بعض الحوادث، فمثلاً هناك حديث ذكر في الكثير من كتب الأحاديث الصحيحة ككتب أحمد بن حنبل ومسلم وابن ماجه عن تميم الداري -الذي أسلم بعد أن كان نصرانيًا- الذي ذكر خبر "الجسّاسة" والدجال في إحدى الجزر، فهل يمكن إنكار مثل هذا الحديث بدعوى أن الداري كان قبل إسلامه نصرانيًا وأنه جلب هذا من النصرانية؟ وهل يمكن إنكاره بدعوى أن هذا أمر غير ممكن؟ ألا يمكن أن نعد هذا رؤية لأشخاص في حالة التحول؟ ولا نقول إننا يجب أن نعده هكذا، علمًا بأننا لا ندري في أي بعد مكاني شاهد الداري هذه الحادثة.

ثم هناك أحاديث عديدة حول نزول المسيح عليه السلام[2] -مهما كانت طبيعة هذا النزول- فهل علينا أن ننظر إلى جميع هذه الأحاديث على أساس أنها مختلقة من قبل النصرانيين؟ ألم يكن عيسى عليه السلام من أولى العزم من الرسل الذي نؤمن بنبوته والذي بشر بقدوم رسولنا ﷺ؟ إنه نبينا أيضًا مثله في ذلك مثل إبراهيم وداود وسليمان وموسى عليهم السلام. ثم أيمكن قبول التخاطب عن بُعدٍ، وتحت الماء بطريقة "تليباثي" وتحضير الأرواح وتنويم

---

[1] البخاري، الخصومات ١، الأنبياء ٢٥؛ ابن ماجه، الزهد ٣٣؛ المسند للإمام أحمد، ٣٣/٢.

[2] البخاري، البيوع ١٠٢، الأنبياء ٤٩؛ مسلم، الإيمان ٢٤٢-٢٤٧؛ أبو داود، الملاحم ١٤؛ الترمذي، الفتن ٢١، ٥٤؛ ابن ماجه، الفتن ٣٣؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤٠/٢، ٣٩٤، ٥٣٨، ٦٧/٤.

الإنسان عن بعد وبوساطة التلفون ولا يمكن قبول الحوادث المذكورة سابقًا، والتي لا نعرف في أي بُعد حدثت، أو لا يمكن قبول حديث "شق الصدر" مثلا الذي ورد في كتب معتبرة مثل كتاب "الشفاء" للعلامة القاضي عياض وفي "الدلائل" لأبي نعيم الأصبهاني وفي "الشمائل" لابن كثير وفي غيره من الكتب وذلك لمجرد عدم إمكان تفسيره بالعقل أو بالعلوم التجريبية؟

أجل، إن الذين يحاولون هدم السنة بإنكار مثل هذه الأحاديث الصحيحة سيذهبون، أما السنة فستبقى إلى الأبد.

ز . العوامل التي أدت إلى كثرة الأحاديث

أشار بعض المستشرقين ومن تبعهم في العالم الإسلامي إلى كثرة الأحاديث وإلى أن بعض الصحابة أكثروا من رواية الأحاديث، وزعموا باستحالة صدور كل هذه الأحاديث عن الرسول ﷺ وذلك وصولاً إلى غاية محددة، وهي إلقاء الشبه والشكوك على الأحاديث الصحيحة وعلى السنة النبوية.

١ – أهمية الحديث

من الواضح عدم وجود أي مستند متين لمثل هذا الزعم وأمثاله. ذلك لأن للحديث – كما أوضحنا ذلك– أهمية قصوى في الدين الإسلامي وفي حياة المسلم، وكان الصحابة الكرام ﷺ على وعي كامل بهذا في كل حين، لذا كانوا حريصين على التقاط كل كلمة تخرج من بين شفتي الرسول ﷺ وكل عمل أو حركة من حركاته أكثر من حرص صاحب الجواهر على جواهره، لأنهم كانوا يعلمون أن سر سعادة الدنيا والآخرة موجود ضمنها، لذا كانوا حريصين على تدارس كل كلمة وكل سلوك أو إقرار صادر منه وعلى نقشه في ذاكرتهم ثم جعله دستورًا لحياتهم.

أجل، كانوا يراقبون حركات وسكنات الرسول ﷺ طوال ثلاثة وعشرين عاماً عن قرب ويقلدونه في كل مرحلة وفي كل صفحة من صفحات حياتهم، وكان الرسول ﷺ يشرح لهم ولكل المسلمين الذين سيأتون إلى الدنيا حتى يوم القيامة كل ما يهمهم في حياتهم الدنيوية والأخروية بشكل يستطيعون فهمه واستيعابه. وكان أحيانًا كما يقول أبو زيد عمرو بن أخطب: "صلّى بنا رسول الله ﷺ الفجر وصعد المنبرَ فخطبَنا حتى حضرت الظهر فنزل فصلى. ثم صعد المنبر فخطبنا حتى حضرت العصرُ ثم نزل فصلى. ثم صعد

المنبر فخطبنا حتى غربت الشمس فأخبرنا بما كان وبما هو كائن، فأعلمُنا أحفظُنا."[١]

كان الصحابة الذين معه يعون كلامه هذا طوال ثلاثة وعشرين عامًا ويعضون عليه بالنواجذ مثلما قال الرسول ﷺ.[٢] كان يصلي أمام أصحابه ثم يقول لهم «صلوا كما رأيتموني أصلي.»[٣] ويحج معهم ويقول لهم: «خذوا مناسككم عني.»[٤] لذا، كان من الطبيعي أن يتابع الصحابة كل كلمة منه وكل حركة بكل حرص ويحفظوها ويجعلوا كلامه هذا دستورًا لحياتهم وينقلوه إلى الأجيال القادمة.

أجل، لقد حفظ الصحابة الأحاديث ومزجوها بحياتهم ونقلوها لأنهم كانوا شديدي الارتباط برسول الله ﷺ، وقد آمنوا أن كل كلمة وكل تصرف منه باب مفتوح إلى الجنة، ونحن أيضًا نؤمن بهذا. كانوا يحبونه من أعماق قلوبهم، وما كانوا يحفظون أحاديثه فقط، بل يحتفظون بكل شعرة منه ويتسابقون في ذلك، إذ كانوا يتبركون بكل شيء منه ويجعلونه أعز ذكرى عندهم وكأنه شيء جاء من الغيب أو من اللانهاية، وأنا شخصيًا لم أنس رغم كل حوادث الدهر كلمات بعض الأشخاص الذين كنت أجلهم سواء أكانت هذه كلمات مديح أو كلمات تنبيه، وسواء أكانت ترغيبًا أم ترهيبًا، وأعتقد أن الأمر وارد بالنسبة لكل مسلم.

٢- الذكريات التي خلفت آثارها

إذا كان كل مؤمن لا يستطيع نسيان أقوال بعض من يجلهم من العلماء الذين يتمنون لو كانوا عبيدًا عند باب الرسول ﷺ ويحتفظ بهذه الأقوال كأعز ذكريات لديهم، فكيف يمكن للصحابة الكرام -وهم من هم من المرتبة العالية من سمو النفس والخلق- أن ينسوا جواهر كلام المصطفى ﷺ الذي أخرجهم من الظلمات إلى النور، ومن الجهالة والتوحش إلى العلم وجعلهم مربي العالم ومرشديه؟ هذا محال، فهم لم ينسوا. وإذا كنتم أنتم تتسابقون لرؤية شعرات من لحيته الشريفة وتتزاحمون من أجلها تزاحمًا كبيرًا فكيف يستطيع الصحابة رضوان الله عليهم أن يستهينوا بذكراه وهم على تلك الدرجة من القرب منه؟!

كان أنس ﷺ يضم خف الرسول ﷺ إلى صدره بقوة مخافة أن يأخذه منه أحد، وعندما سمع أمير المؤمنين معاوية في الشام أن هناك شخصًا يحتفظ بجبة الرسول ﷺ بذل وزنها ذهبًا

---

[١] مسلم، الفتن ٢٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣٤١/٥.

[٢] الترمذي، العلم ١؛ أبو داود، السنة ٥؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦؛ الدارمي، المقدمة، ١٦.

[٣] البخاري، الأذان ١٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥٣/٥.

[٤] مسلم، الحج ٣١٠؛ أبو داود، المناسك ٧٧؛ النسائي، المناسك ٢٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٣٦٦/٣.

ليحصل عليها. لقد احتفظوا بقربته سنوات طويلة، أما قوسه ونبله وأشياء أخرى فلا تزال محفوظة في "قصر طوب قابي" وهي مصدر نشوة لقلوبنا وعيوننا، وعندما جلب السلطان سليم الأول هذه الأمانات المقدسة ووضعها في "طوب قابي"، ووضع حولها قراء يتلون القرآن الكريم صباح مساء دون انقطاع، ودامت هذه العادة عصورًا عدة وحتى سنوات قريبة،[1] وكثير من المسنين عندنا يعرفون هذا جيدًا. أما السلطان أحمد سلطان الدولة العثمانية التي امتدت في قارات ثلاث فقد تمنى لو كان في الإمكان أن يضع قالب أثر قدم الرسول ﷺ في الطين فوق رأسه كتاج قائلاً: "كم أتمنى أن أضع أثر قدميه المباركتين فوق رأسي."

فإذا كان الذين أتوا بعده بعدة عصور يبجلون ذكراه كل هذا التبجيل، أيمكن أن يستهين صحابته الكرام بذكراه وهم الذين عاشوا معه؟ كلا، أبدًا. هذا، علمًا بأن الأشياء التي تعد ذكرى منه لا تُعد مساوية في الأهمية للسنة في حياة المؤمن، فإذا كانت مخلفاته المباركة يحافظ عليها كل هذه المحافظة فكيف إذن، بأحاديثه وسنته؟

يروي أحمد بن حنبل في مسنده: كان للعباس ميزاب على طريق عمر بن الخطاب، فلبس عمر ثيابه يوم الجمعة -وقد كان ذُبح للعباس فرخان- فلما وافى الميزاب صب ماء بدم الفرخين فأصاب عمر وفيه دم الفرخين، فأمر عمر بقلعه ثم رجع فطرح ثيابه ولبس ثيابًا غير ثيابه ثم جاء فصلى بالناس، فأتاه العباس فقال: والله إنه للموضع الذي وضعه النبي ﷺ. فقال عمر للعباس: "وأنا أعزم عليك لما صعدت على ظهري حتى تضعه في الموضع الذي وضعه رسول الله ﷺ." ففعل ذلك العباس ﷺ.[2]

إذن، فكيف تستطيع جماعة هذا دأبها في احترام وتوقير وتبجيل أصغر ذكرى للرسول ﷺ إبداء أي إهمال نحو أحاديثه ﷺ، ذلك لأن الحديث يعني الدين ويعني الحياة ويعنى "الحقيقة الأحمدية" بتعبير المتصوفة، ويعني بالنسبة إلينا الجسر بين الحياة الدنيا والحياة الآخرة.

٣- حث النبي وترغيبه في تحصيل العلم

وكما قلنا سابقًا فقد حث النبي ﷺ على طلب العلم وشوق إليه فقال مثلاً: «من سلك طريقًا يطلب فيه علمًا سلك الله به طريقًا من طرق الجنة، وإن الملائكة لتضع أجنحتها رضًا لطالب العلم، وإن العالم ليستغفر له من في السموات ومن في الأرض والحيتان في جوف

---

[1] هذه العادة تستمر اليوم والحمد لله. (المترجم)

[2] المسند للإمام أحمد، ١/٢١٠.

الماء، وإن فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب، وإن العلماء ورثة الأنبياء، وإن الأنبياء لم يورثوا دينارًا ولا درهماً وورَّثوا العلم، فمن أخذه أخذ بحظٍ وافر.»[١]

أي كان يشوق أتباعه لبلوغ أهداف وآفاق عليا. فإذا كان العلم يطلب الآن -عدا استثناءات قليلة- من أجل بلوغ المراتب أو في سبيل المعيشة، فقد كان يُطلب آنذاك في سبيل رضا الله تعالى. وكانت الحياة العلمية آنذاك نابضة بالحياة إلى درجة أن سفيان بن عُيينة حفظ القرآن وهو ابن أربع سنين وكتب الحديث وهو ابن سبع سنين وبلغ درجة الاجتهاد والفتوى وهو شاب حدث.[٢] وكما أوضحنا سابقًا فقد كان هناك ترغيب كبير لمذاكرة الأحاديث وشوق كبير لها، فحسب رواية الدارمي كان أبو سعيد الخدري وابن عباس يقولان لطلابهما: "تذاكروا الحديث، فإن الحديث يهيج الحديث"[٣] و"رُدُّوا الحديث واستذكروه فإنه إن لم تذكروه ذهب، ولا يقولن رجل لحديث قد حدثه "قد حدثته مرة"، فإنه من كان سمعه يزداد به علمًا ويسمع من لم يسمع."[٤]

ودامت هذه الحيوية العلمية في عصر التابعين ثم في عصر تابع التابعين بل دامت في العصور الخمسة الأولى إلى درجة أن ابن حجر العسقلاني الذي يعد من أواخر الحفاظ والذي عاش قبل خمسة عصور تقريبا يقول إنه قرأ "صحيح مسلم" في بضع جلسات أي أنه استوعب "الجامع الصحيح" لمسلم في بضع جلسات، ذلك لأنهم كانوا يملكون شوقًا كبيراً لعلوم القرآن والسنة آنذاك، وكانوا يقومون بتحصيل هذه العلوم ضمن شعور العبادة ونشوتها، ودام هذا الأمر مدة أربعة أو خمسة عصور حتى أن الإمام النووي انكب على العلم ولم يتزوج مخافة أن تشغله مطاليب المعيشة والأسرة عن تحصيل العلم وتفرغ للعلم وحده.[٥] أما العالم الكبير "السرخسي" فقد ألف كتابه "المبسوط" المؤلف من ثلاثين جزء في قاع بئر[٦] ومن ذاكرته وحفظه حيث أملاه على طلابه، ومن طريف ما يروى في حق هذا

---

[١] أبو داود، العلم ١؛ الترمذي، العلم ١٩؛ النسائي، الطهارة ١١٣؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٧؛ المسند للإمام أحمد، ٢٤١/٤.

[٢] الطبقات الكبرى للإمام الشعراني، ٤٨/١؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٥٩/٨.

[٣] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[٤] الدارمي، المقدمة، ٥١.

[٥] العلماء العزاب الذين آثروا العلم على الزواج لعبد الفتاح أبو الغدة، ص١٤٦.

[٦] الأعلام للزركلي، ٣١٥/٥.

العلامة أن أحد طلابه قال له يومًا إن الإمام الشافعي كان يحفظ ثلاثمائة صحيفة، عند ذلك قال هذا العالم العملاق: إذن، فقد كان يحفظ زكاة حفظي.[١] ولو قمت بِعَدّ الصفحات التي كتبها هؤلاء العلماء الأعلام من أمثال ابن حجر وابن جرير والسيوطي وفخر الدين الرازي لما استطعت إكمال العد في أسبوع كامل.

وهذه الأسماء التي ذكرناها تعود إلى العهود الأخيرة نوعًا ما. أما إذا رجعنا إلى عهد الصحابة ثم إلى عهد التابعين لرأينا المنظر التالي:

٤- شوق إلى العلم يتجاوز أفق تفكيرنا

كان محمد بن سيرين عتيق الصحابي الكريم أنس بن مالك ﷺ الذي خدم رسولنا ﷺ عشر سنوات ومن كبار أئمة التابعين، وكان له ابن سماه باسم سيده: أنس بن سيرين. يقول أنس بن سيرين إنه عندما وصل إلى الكوفة رأى أن أربعة آلاف من الأشخاص يأخذون دروسًا في الحديث في جوامعها. تصوروا وجود أربعة آلاف طالب من طلاب علم الحديث في مدينة واحدة.[٢] أما في الشام فقد كان في حلقة أبي الدرداء ١٥٠٠ طالب علم. ومن ضمن الأربعة آلاف طالب الذي ذكره أنس بن سيرين كان من ضمنهم ٤٠٠ من الفقهاء.[٣] فما معنى وجود أربعمائة فقيه؟ إن العالم الإسلامي اليوم الذي يبلغ تعداده مليارًا ونصفًا لا يملك أربعمائة فقيها. والفقيه هو الشخص الذي يستنبط الأوامر الدينية من خلال الكتاب والسنة والإجماع، فأبو حنيفة فقيه وأبو يوسف فقيه والإمام محمد فقيه والإمام الشافعي فقيه والإمام مالك فقيه، أما الإمام أحمد بن حنبل الذي كان يحفظ ألف ألف من الأحاديث[٤] فلم تطلق عليه صفة الفقه بسهولة. وعندما قال العالم أبو جعفر الطبري: "إن أحمد بن حنبل ليس بفقيه" قام الحنابلة برجم داره. قد يكون أحمد بن حنبل فقيهًا أو لا يكون، ولكن كلام الطبري هذا يشير إلى مدى صعوبة إطلاق صفة الفقيه على أحدهم. لذا، يجب النظر إلى أمر وجود أربعمائة فقيه في عهد التابعين في جوامع الكوفة ضمن أربعة آلاف شخص يتلقون علم الحديث من هذه الزاوية.

كان الشوق إلى العلم في ذلك العهد قويًا إلى هذه الدرجة، وكانوا يسافرون من مدينة

---

[١] أصول السرخسي للسرخسي، ١/٥.

[٢] المحدث الفاصل للرامهرمزي، ص٤٠٨، ٥٦٠؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص١٥٠-١٥١.

[٣] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص١٥١.

[٤] وفيات الأعيان لابن خلكان، ١/٦٤.

إلى أخرى من أجل حديث واحد. وكان سفر أئمة الحديث من أجل سماع حديث واحد يشير إلى مدى أهمية الحديث عندهم. وقد أدى هذا الشوق الكبير عندهم وهذا الاهتمام الذي كانوا يشعرون به نحو الحديث بمرور الزمن إلى تمرس كبير في هذا الموضوع، ولم يكن تمرسهم هذا وقفًا على متون الحديث فقط بل كان يشمل السند أيضًا، وهو أمر مهم جدًا من ناحية معرفة مدى صحة الحديث.

ونستطيع هنا أن نتذكر الإمام البخاري كمثال في هذا الموضوع، فعندما جاء إلى بغداد أراد عشرة من دارسي الحديث قياس درجة علمه بالحديث ومعرفة مدى قوة ذاكرته، وذلك أمام جم غفير من الناس، فبدأ كل واحد منهم يقرأ له عشرة من الأحاديث ولكن بعد تغيير وتبديل السند رأسًا على عقب وتغيير مواضع الرواة، أي القيام بوضع اسم راو لحديث مكان راو آخر لحديث آخر، وهكذا خلطوا رواة مائة حديث، فمثلا نعرف أن رواة الحديث المشهور عن النية هم الحُميدي عن سفيان بن عُيينة عن يحيى بن سعيد الأنصاري عن محمد بن إبراهيم التيمي عن علقمة بن وقّاص الليثي عن عمر بن الخطاب ﷺ، ولكنهم عندما رووا هذا الحديث للبخاري وضعوا اسم راو آخر مكان اسم يحيى بن سعيد، ووضعوا اسمًا آخر محل اسم علقمة ووضعوا اسم راوٍ آخر بدل اسم التيمي. وكما قلنا فقد قدموا له مائة حديث بعد تغيير أسماء رواتها. فذكر لهم البخاري أن اسم الراوي في الحديث الأول هو فلان وليس فلان وأن السند الصحيح له هو كذا وكذا حتى أتى على ذكر الأسانيد الصحيحة لجميع الأحاديث البالغة عددها مائة حديث، عند ذلك شهد جميع العلماء والحاضرون على قوة ذاكرته ورسوخ قدمه في علم الحديث،[١] وقد انبهر ابن خُزَيْمة بعلم البخاري في الحديث فقال: "ما تحت أديم السماء أعلم بالحديث من البخاري."[٢]

كان البخاري عالمًا جليل القدر لم يجعل علمه وسيلة لمتاع الحياة الدنيا، فعندما طلب منه أمير بخارى أن يأتي إلى قصره ليعلم أبناءه الحديث قال له هذا العالم الجليل: "إن العلم لا يذهب إلى الحاكم، فإن أراد الحاكم استحصال العلم له أو لأولاده فعليه أن يأتي هو وأولاده إلى العلم للحصول عليه." وعندما طلب منه الأمير أن يخصص في الأقل يومًا لأبنائه رفض الإمام البخاري هذا الطلب وقال بأنه لايستطيع تمييز أبناء الأمير عن سائر أبناء

---

[١] هدي الساري لابن حجر، ص٤٨٧.

[٢] تذكرة الحفاظ للذهبي، ٥٥٦/٢.

الأمة الإسلامية في دروسه. وكان هذا الجواب سببًا في قضاء أيام حياته الأخيرة في عزلة عن الناس، والوفاة في ديار الغربة.[١]

سافر الإمام البخاري مرة ليأخذ حديثًا من أحدهم، وعندما وصل إليه واقترب منه رآه وهو يحاول الإمساك بحصانه ويشير إلى حضنه، وعندما رأى الإمام البخاري أن حضنه فارغ وليس فيه شعير أو غيره قال إن من يكذب على الحصان ويحاول خداعه قد يكذب على الناس أيضًا، لذا رجع دون أن يأخذ منه الحديث.

هذه الدقة والحساسية التي تمَّ ضمنها جمع الحديث وتدوينه، والذين يهاجمون كتب الأحاديث الصحيحة والسنة ويدعون أن عدد الأحاديث كبير جدًا، إذن، فلابد أن هناك أحاديث مكذوبة دخلت إلى كتب الأحاديث الصحيحة، هؤلاء لا يعرفون مدى العشق العلمي لجامعي الأحاديث، وماذا كانت السنة تعني بالنسبة لهم، ويتناسون الشروط والظروف التي تم فيها جمعها، ولا يعرفون نوعية العلماء الذين جمعوها، والظاهر أنهم يقيسون هذه المسألة بالنسبة لحالتهم النفسية وحالتهم الروحية والمعنوية فيضلون ويضلون.

٥- التلاؤم البيئي

وعامل آخر وهو أن الجو كان ملائمًا جدًا لحفظ الأحاديث في عهد الصحابة والتابعين وتابعي التابعين. فهم أولاً كانوا يعرفون دقائق اللغة العربية.. والقرآن الكريم الذي أُنزل على رسولنا ﷺ كان معجزة لغوية قبل كل شيء، وكانت الفصاحة اللغوية أهم ما يعنى بها العرب آنذاك، والمعلقات السبع ترينا أنهم كانوا أساطين اللغة والشعر، ومع ذلك -أو بسبب ذلك- فقد انبهروا أمام القرآن الكريم وانعقدت ألسنتهم. فمثلاً نرى الشاعرة الخنساء وهي تنشد في الجاهلية أشعار الرثاء لأخيها صخر، وهي أبيات لا تزال تستدر دموعنا، لأنها أشعار نابعة من القلب، ولكنها بعد أن أسلمت ارتبطت بسلطان البيان رسول الله ﷺ إلى درجة أنها عندما استشهد أبناؤها الأربعة واحدًا إثر آخر في معركة القادسية تلوت من الألم -لأنها إنسانة وأم- إلا أنها قالت: "الحمد لله الذي شرفني بقتلهم وأرجو من ربي أن يجمعني بهم في مستقر رحمته"[٢] مظهرةً بذلك مدى ارتباطها بالقرآن وبالإسلام وبالرسول ﷺ.

وكانت الخنساء هذه شاعرة بليغة وعليمة بأسرار اللغة والشعر إلى درجة أنها أشارت إلى ثمانية أخطاء في أربعة أبيات لشاعر الإسلام حَسّان بن ثابت ﷺ الذي دعا له الرسول ﷺ من

---

[١] تهذيب التهذيب لابن حجر، ٥٢/٩؛ هدي الساري لابن حجر، ص٤٩٤.

[٢] أسد الغابة لابن الأثير، ٩٠/٧؛ أعلام النساء لعمر رضا كحالة، ٣٧٠/١.

الله أن يؤيده بروح القدس في الذب عن الإسلام بأشعاره.[١] فأثبتت بذلك مدى إحاطتها بدقائق الشعر واللغة. هذه الشاعرة تركت الشعر أمام الأحاديث التي تشع نورًا للرسول ﷺ. ولم يقتصر هذا عليها، بل إن معظمهم كانوا من الفصحاء والشعراء آنذاك، ولكنهم أمام آيات القرآن الكريم وأمام أحاديث الرسول ﷺ تركوا الشعر واقتصروا على الترنم بآيات القرآن وبأحاديث الرسول ﷺ، فأصبحوا هم ومن جاء بعدهم على معرفة بأسلوب النبي ﷺ ويستطيعون تمييز كلامه وحديثه وأسلوبه عن سائر أحاديث الآخرين وأساليبهم.

٦- جودة القريحة وقوة الحفظ

وعامل آخر وهو كون أناس ذلك العهد السعيد عباقرة في قابلية الحفظ عن ظهر قلب. فنحن الآن نعد من يحفظ القرآن في أربعة أشهر عبقريًا. نعد أشخاصًا مثل العالم "ألماليلي حمدي" الذي تعلم اللغة الفرنسية في ستة أشهر من النوادر، بينما كانت قابليات أناس ذلك العهد في هذه الساحة أكبر، فمثلاً نرى أن أبا هريرة -وهو الشخص الذي أصبح هدفًا للمستشرقين الذين يحاولون بالهجوم عليه هدم عمود من أعمدة السنة- لا ينسى شيئاً مما يسمعه مرة واحدة ولا يحتاج لسماعه مرة ثانية.[٢] ونرى أن زيد بن ثابت عندما أمره الرسول ﷺ بتعلم العبرانية[٣] تعلمها في ظرف ١٥-٢٠ يوماً فقط بحيث أصبح يستطيع قراءة الرسائل بالعبرية وترجمتها.

وعبقري آخر هو ابن عباس ﷺ الذي لُقّب بـ"حبر الأمة" وهو لا يزال حيًا، وكذلك أمنا عائشة رضي الله عنها.. هؤلاء الأشخاص كانوا أبطال الحفظ عن ظهر قلب، فما كانوا ينسون شيئًا سمعوه مرة واحدة، وكان عددهم بين الصحابة يبلغ المئات.

ولم يكن التابعون العظام أقل منهم في هذا الخصوص فنجد بينهم مثلاً ابن شهاب الزهري الذي عاش في عهد عمر بن عبد العزيز وقام بتصنيف الأحاديث لأول مرة[٤] والذي أصبح أيضًا هدفًا لهجوم المستشرقين. وكذلك قتادة بن دِعامة الذي قال لأبي حنيفة عندما قابله بأنه لم ينس شيئًا سمعه. ثم هناك "الشعبي" المشهور، وهناك إبراهيم بن يزيد النخعي

---

[١] البخاري، الصلاة ٦٨؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٥١؛ النسائي، المساجد ٢٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٢٢/٥.

[٢] البخاري، العلم ٤٢، البيوع ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٥٩، ١٦٠.

[٣] الترمذي، الاستئذان ٢٢؛ أبو داود، العلم ٢؛ المسند للإمام أحمد، ١٨٦/٥؛ أسد الغابة لابن أثير، ٢٨٩/٢؛ الإصابة لابن حجر، ٥٦١/١.

[٤] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٦١/٣.

والإمام الشافعي الذي ذكر أيضاً بأنه لم ينس شيئاً سمعه. نعم، كل واحد من هؤلاء كان بطلاً من أبطال الذاكرة.

ح . شروط الرواية بالمعنى

هناك علماء أجازوا رواية معنى الحديث ووضعوا لهذا بعض الشروط:

أ- يجب أن يكون الراوي ملمًا باللغة تمام الإلمام. فمن لم يكن ملما بدقائق اللغة لا يجوز له أن ينقل معاني أحاديث الرسول ﷺ، لأن الراوي يجب أن يكون فاهمًا ومدركًا للمعنى تمام الإدراك.

ب- يجب أن تكون الكلمة المرادفة لما جاء في الحديث مترادفة تمامًا لمعنى الكلمة الأصلية ولا تحمل معنى آخر، وأن تتم مراعاة سياق الحديث كذلك.

ج- يجب ألا يتم الالتجاء إلى رواية الحديث بالمعنى إلا إذا تم نسيان ألفاظ الحديث، لكي لا يضيع هنا لب ومعنى أي حديث صادر عن الرسول ﷺ، وذلك حسب قاعدة: "ما لا يُدرَك كلُّه لا يُتَرك كلُّه" فنستفيد من كل جواهر السنة.

١ . فروق الألفاظ في الأحاديث

هناك أحاديث مع أنها وردت بالفاظ مختلفة إلا أنها ليست من نوع الأحاديث المروية بالمعنى، و"التحيات" التي نقرأها في الصلوات الخمس كل يوم من هذه الأحاديث. فإضافة إلى صيغة "التحيات" التي يقرأها الأحناف والإمام الأوزاعي وسفيان الثوري وجمهور العلماء والتي رويت عن طريق ابن مسعود ﷺ هناك صيغة أخرى قرأها الشافعي نقلاً عن ابن عباس ﷺ، فهنا ترد كلمة "المباركات" بعد كلمة "التحيات"، وسقط حرف الواو بين الكلمتين، كما وردت في روايات ضعيفة صيغة ثالثة للتحيات قرأها عمر بن الخطاب ﷺ من فوق المنبر، لذا قد يدعي البعض بأن الصحابة لم يكونوا يحفظون جيدًا كل ما يسمعونه من النبي ﷺ، أو أنهم كانوا ينسون بعض الكلمات ثم يضعون بدلاً منها كلمات مناسبة من قبلهم، ولكن حقيقة الأمر ليست كذلك. لأن الصلاة فرضت قبل الهجرة بثلاث وفي رواية أخرى بخمس سنوات، إذن، فالصحابة القدماء أمثال عمر بن الخطاب أو ابن مسعود ﷺ صليا خلف الرسول ﷺ كل يوم خمس مرات لمدة تزيد على عشر سنوات، ومثل هذا الادعاء يضع هؤلاء العباقرة في قابلية الحفظ -والعياذ بالله- مكان الحمقى، وهو ادعاء لا يقول به حتى المجانين في مستشفى المجانين، لأنه يفترض عدم استطاعة هؤلاء الصحابة

الذين قضوا سنوات طويلة وهم يصلون خلف النبي ﷺ كما قضوا معه ثلاثا وعشرين سنة عدم استطاعتهم حفظ شيء يستطيعه طفل في الخامسة من عمره. فإذا عرفنا أن القرآن عندما جمع في عهد أبي بكر ﷺ تمت مراجعة ذاكرة هؤلاء الصحابة، وتمت المقارنة بين ما هو مكتوب ومسجل وبين ما حفظ في القلوب فكانت النتيجة تطابقهما وعدم وجود أي فروق بينهما، لذا فإن هذا الادعاء فيما يختص برواية الحديث سيلقي ظلال الشك والشبهة حتى على القرآن الكريم.

أما أصل المسألة فهي على ما نعتقد ما يلي: «إن القرآن أنزل على سبعة أحرف، فاقرؤوا ما تيسَّر منه»[1] حسبما ورد في الأحاديث الصحيحة. ولسنا هنا في معرض شرح ومناقشة هذا الموضوع. إلا أننا نقول إن الرحمة لذلك الشعب الأمي استوجبت إنزال القرآن هكذا ليسهل لهم تلاوته.

والأمر نفسه وارد بالنسبة للحديث النبوي الشريف، فرسول الله ﷺ كان يقرأ القرآن المنزل عليه مرة بوجه ومرة بوجه آخر، والشيء نفسه عمله مع دعاء "التحيات" مثلاً، إذ قرأها بوجه لابن مسعود ﷺ ولعمر بن الخطاب ﷺ بوجه آخر، فكما جاز قراءة القرآن على سبعة أوجه، جاز رواية الحديث بأوجه مختلفة، لذا يمكننا القول بأن جميع صيغ التحيات صادرة من الرسول ﷺ نفسه.

٢. جوامع الكلم

هناك جانب آخر لهذه المسألة المهمة وهو أن الرسول ﷺ هو صاحب "جوامع الكلم"، أي أنه كان يعبر بكلمات قليلة عن معان كثيرة وعميقة يمكن أن يؤلف كتاب كامل لشرحها. فضمن قواعد اللغة العربية ونحوها وأصولها، وضمن أساليب البيان والبديع يظهر أمامنا معنى جديد لم نفطن له من قبل، لذا فمن يقرأ هذه الأحاديث النبوية لابد أن يقول: "لا يمكن لأي عبقري أن يقول مثل هذا الكلام دعك من الصحابة الذين نشأوا في بيئة أمية وتعلموا كل ما تعلموه منه ﷺ." فهذه الأحاديث كالجواهر النفيسة تحتفظ بقيمتها ومصداقيتها إلى يوم القيامة، لذا فلا بد أنها أحاديث نبي مؤيد بالوحي الإلهي، لذا لا يمكن الاستخفاف بها مطلقًا، أي نستطيع أن نقول بأن الأحاديث مهما بدا عددها كبيرًا بالنسبة لبعضهم هي كلمات خرجت من بين شفتي الرسول ﷺ المباركتين وننظر إليها على هذا الأساس.

---

[1] البخاري، فضائل القرآن ٥؛ مسلم، كتاب المسافرين ٢٧٠؛ أبو داود، الوتر ٢٢.

ط . كتابة السنة في عهد الرسول ﷺ ثم تدوينها من بعده

إن الرأي القائل بأن بداية تدوين السنة كانت في عهد عمر بن عبد العزيز رأي صحيح ولكنه رأي ناقص، لأنه يهمل أمراً مهماً وهو أن بعض الصحابة كان يكتب السنة في عهد الرسول ﷺ مثلما كان بعضهم يكتب القرآن.

١- نفير القراءة والكتابة الذي بدأ بالقرآن الكريم

كان معظم العرب في عهد الرسول ﷺ يجهلون القراءة والكتابة، ولكن عدد من كان يقرأ ويكتب من أهل مكة لم يكن بالقليل، لأن أهل مكة كانوا على اتصال دائم بالقبائل الموجودة حواليها، وانفتحت أبواب القراءة والكتابة بعد بدء نزول القرآن، ذلك لأن كل مسلم كان في حاجة لقراءة القرآن ليعرف الأحكام والمعاني الواردة فيه كضرورة دينية، أي كان نزول القرآن الكريم إيذانًا ببداية نفير عام للعلم والثقافة. فقد وردت في طبقات ابن سعد أن عدد كتاب الوحي الذين كانوا يتحلقون حول الرسول ﷺ كان يقارب الأربعين.[١] ولم يكن هؤلاء مجرد أشخاص يعرفون القراءة والكتابة، فمعنى كاتب الوحي هو الشخص الذي نذر نفسه لكتابة القرآن، أي بالتعبير الدارج اليوم نستطيع أن نقول إنه مدير قلم الرسول ﷺ وسكرتيره.

كان هناك حث كبير وتشجيع على تعلم القراءة والكتابة في تلك الأيام، حتى أن فدية بعض أسرى بدر كانت قيام كل أسير بتعليم عشرة من الأفراد القراءة والكتابة.[٢] كانت هذه حادثة فريدة وحادثة تعد متقدمة جدًا في ذلك العهد. أجل، لقد بدأ الناس في تلك الأيام سباقًا نحو تعلم القراءة والكتابة، ذلك لأنه كان بين يديهم شيء جديد وشيء فريد.. كان هذا ديناً جديداً وكان هذا قرآناً.. كان هؤلاء الناس ظمأى لمعرفته وفهمه من جميع جوانبه ليضيفوا إلى حياتهم معنى جديدًا مشرقًا.. لذا، كان القروي والحضري في انتظار وفي ترقب دائم ليدون ما يتنزل. وكان هذا شيئًا فريدًا ويحدث لأول مرة بالنسبة لكتاب إلهي مقدس سوف يبقى محفوظًا وسليمًا حتى يوم القيامة. فكما تم تدوين القرآن، كذلك تم تدوين سنة الرسول ﷺ الذي فسر القرآن وشرحه، ففصل مجمله وأوضح مبهمه وقيد مطلقه وخصص أحكامه العامة. ذلك لأن السنة كانت المصدر الثاني للتشريع لذا، هيئ حفظها فأصبحت صالحة للتدوين العام وللتدوين الرسمي.

---

[١] السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٢٩٨.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٢/٢.

٢- الأدلة ضد التدوين

لنلق نظرة على الأحاديث التي ساقها المستشرقون وبعض الكتاب المسلمين ممن تأثروا بهم كأدلة حول كون تدوين الحديث بعد عهد الرسول ﷺ. ينقل أبو سعيد الخدري في "تقييد العلم" الرواية التالية: "استأذنّا النبي ﷺ في الكتابة فلم يأذن لنا."[١] لم يجد المتخصصون في علم الحديث قيمة كبيرة لهذه الرواية التي ساقها "غولتسهر" ومقلدوه. ولاشك أن هناك رواية أخرى وردت في صحيح مسلم عن أبي سعيد الخدري أيضًا: «لا تكتبوا عني، ومن كتب عني غير القرآن فليمحه.»[٢]

وهناك رواية أخرى في كتاب "تقييد العلم" عن الصحابي الجليل صاحب الذاكرة القوية أبي هريرة ﷺ الذي كان يهتم اهتمامًا كبيرًا بالأحاديث وكان يرغب كل الرغبة في تدوينها غير أنه لم يكن في حاجة لذلك لقوة ذاكرته، فقد جاء في هذه الرواية أن الرسول ﷺ جاء إليهم فوجد بعضهم يكتب فسألهم عما يكتبون، فقالوا بأنهم يدونون الأحاديث التي سمعوها منه فقال لهم الرسول ﷺ: «أتدرون ما ضل الأمم من قبلكم إلا بما اكتتبوا من الكتب مع كتاب الله.»[٣]

هذه الروايات التي نقلناها واضحة، فهي حفظ جميع الكتب الإلهية سواء أكان هذا الكتاب هو القرآن أم التوراة أم الإنجيل، حفظ هذه الكتب من الاختلاط بأي كلام أو كتابة أخرى. وبينما كان من الواجب عدم كتابة أي شيء سواء أكان ذلك للأنبياء أم للآخرين بجانب هذه الكتب إلا أنه لم يتم رعاية هذا الأمر وكانت النتيجة أن اختلطت كتابات كثيرة بالتوراة، كما ازداد عدد الأناجيل بعد عدة عصور من نزول الإنجيل الواحد وازداد حجمه إلى مجلدات، وهكذا انحرفت كلتا الجماعتين عن الصراط المستقيم وسلكتا طريق الضلالة. وتتجلى هذه الحقيقة بشكل واضح عندما يتم عرض الأحاديث الصحيحة التي تجيز كتابة الأحاديث بل تأمر بها، ويتبين أنها أكثر من الأحاديث التي تمنعها.

يقول أبو هريرة ﷺ وهو الصحابي الذي نقلنا عنه رواية حول النهي عن كتابة الحديث: "ما من أصحاب النبي ﷺ أحد أكثر حديثًا عنه مني، إلا ما كان من عبد الله بن عمرو، فإنه كان يكتب ولا أكتب."[٤]

---

[١] الترمذي، العلم ١١؛ تقييد العلم للبغدادي، ص٣٢-٣٣.

[٢] مسلم، الزهد ٧٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣/١٢؛ الدارمي، المقدمة، ٤٢.

[٣] تقييد العلم للبغدادي، ص٣٤.

[٤] البخاري، العلم ٣٩؛ الترمذي، العلم ١٢، المناقب ٤٦؛ المسند للإمام أحمد، ٢/٢٤٩.

كان عبد الله بن عمرو بن العاص يكتب كل ما يسمعه عن الرسول ﷺ حتى قيل له: "أنت تكتب كل ما يقوله رسول الله ﷺ، بينما هو بشر يغضب ويرضى."[١] على إثر هذا الكلام ترك عبد الله بن عمرو كتابة الحديث وعرض الموضوع على الرسول ﷺ فأشار الرسول ﷺ إلى فمه المبارك قائلاً: «اكتب! فوالذي نفسي بيده ما يخرج منه إلا حق.»[٢]

صحيح أنه كان بشرًا، ولكنه كان نبيًا أيضًا، فرضاه وغضبه كان لله تعالى، لذا كان يقول الحق على الدوام، لأنه لم يكن ينطق عن الهوى ﴿وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ۞ إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحْيٌ يُوحَى﴾ (النجم:٣-٤). لقد التحمت فطرته مع وظيفته فكانت كلتاهما تحملان صفة النبوة.. لقد تم شرح صدره لذا، لم يبق هناك أي احتمال لتدخل طبيعته البشرية في مهام نبوته.. فكل ما قاله كان "دينًا"، لذا قال للصحابي: «اكتب.»

٣- الأدلة على تدوين الأحاديث

عندما نطالع المصادر فيما يتعلق بكتابة الحديث نرى الروايات التالية: كان رجل من الأنصار يجلس إلى النبي ﷺ فيسمع من النبي ﷺ الحديث فيعجبه ولا يحفظه، فشكا ذلك إلى النبي ﷺ فقال: يا رسول الله إني أسمع منك الحديث فيعجبني ولا أحفظه، فقال له الرسول ﷺ: «اِستعِنْ بيمينك» وأومأ بيده للخط.[٣]

وسأل رافع بن خَديج من الرسول ﷺ: يا رسول الله! إنا نسمع منك شيئًا أفنكتبه؟ فأجابه الرسول ﷺ: «اكتبوا ولا حرج.»[٤]

ونقرأ في سنن النسائي والدارمي أن الرسول ﷺ استكتب بعض الأحكام حول القصاص والدية وحول بعض الشرائع وأرسلها إلى عمرو بن حزم في اليمن،[٥] كما كتب كتابًا لوائل بن حُجر لقومه في حضرموت، فيه الخطوط الكبرى للإسلام وبعض أنصبة الزكاة وحد الزنا وتحريم الخمر وكل مسكر حرام.[٦] كما نقرأ في مقدمة الإمام الدارمي قول الرسول ﷺ: «قَيِّدوا العلم بالكتاب.»[٧]

---

[١] كتم رواة الحديث أسماء هؤلاء الأشخاص أدباً ثم لكونها غير ضرورية. (المترجم)

[٢] أبو داود، العلم ٣؛ المسند للإمام أحمد، ١٦٢/٢؛ الدارمي، المقدمة، ٤٣.

[٣] الترمذي، العلم ١٢.

[٤] مجمع الزوائد للهيثمي، ١٥١/١؛ كنز العمال للهندي، ٢٣٢/١٠؛ وانظر إلى روايات أخرى في هذا الصدد إلى: المسند للإمام أحمد، ٢١٥/٢.

[٥] النسائي، القسامة ٤٦؛ الدارمي، الديات ١، ٣، ١١، ١٢.

[٦] الإصابة لابن حجر، ٦٢٨/٣؛ السنة قبل التدوين لعجاج الخطيب، ص٣٤٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢٨٧/١.

[٧] الدارمي، المقدمة، ٤٣؛ المستدرك للحاكم، ١٠٦/١؛ كنز العمال للهندي، ٢٤٩/١٠.

كما نقرأ رواية عن أبي هريرة ﷺ وردت في كتب الأحاديث الصحيحة أن يمنيا اسمه أبو شاه استمع إلى خطبة للرسول ﷺ بعد فتح مكة فقام فطلب من الرسول ﷺ كتابة الخطبة له فقال الرسول ﷺ لأصحابه: «اكتبوا لأبي شاه.»[١]

عندما اشتد بالنبي ﷺ وجعه قبل وفاته بأيام قليلة قال لأصحابه: «ائتوني بكتاب أكتب لكم كتابًا لا تضلوا بعده» فقال عمر بن الخطاب ﷺ: إن النبي ﷺ غلبه الوجع وعندنا كتاب الله حسبنا.

كان هذا اجتهاد صحابي، أما ابن عباس فقد قال: إن الرزية كل الرزية ما حال بين رسول الله ﷺ وبين كتابه.[٢] ودام حزن ابن عباس ﷺ من هذا الأمر طوال حياته، ولكنه لم يحمل ضغنًا لعمر ﷺ، بل بقي على الدوام بجانبه، وعندما يسمع أن عمرَ سيخطب يحضر خطبته آتيًا إليه من البلد الذي هو فيه سواء أكان في مكة أم في البصرة.[٣]

لذا، يمكن القول أنه ما من قلب حمل كرها أو ضغينة على سيدنا عمر ﷺ جراء هذا الأمر، ذلك لأن الرسول ﷺ لم يكرر طلبه، وسواء أكان طلب الرسول ﷺ الكتابة لكي لا تقع أمته في الضلالة يتعلق بالخليفة الذي سيأتي بعده أم يتعلق بأمور أخرى فهذا لا نعرفه، نعرف أن الجميع -عدا شخصًا واحدًا- بايعوا الخليفة الأول، وعندما جاء عمر ﷺ إلى المقام نفسه تردد بعضهم في بيعته في بادئ الأمر ثم لم يبق هناك من لم يبايعه. أما في عهد عثمان وعلي ﷺ فقد ظهر الخلاف، فهل كان ما ينوي الرسول ﷺ قوله في كتابه هو العلم الذي عناه أبو هريرة ﷺ عندما قال: "حفظت عن رسول الله وِعاءين: فأما أحدهما فبثثته، وأما الآخر فلو بثثته قُطع هذا البُلعوم."[٤] أم كان يريد إفشاء الأسرار التي سبق وأن أودعها إلى الصحابي حُذيفة ﷺ؟ صحيح أن ما كان ينوي الرسول ﷺ كتابته بقي سرًا، إلا أننا نستدل من هذه الحادثة على أن الأحاديث كانت تكتب في عهد النبوة، وأنه كان أحيانًا يأمر بكتابتها.

كان هناك صحابة آخرون غير عبد الله بن عمرو بن العاص يكتبون الحديث، فمثلاً نرى أن عليًا ﷺ يعلق بجانب سيفه صحيفة تحتوي على بعض الأحاديث، فقد سأله أبو جحيفة: هل عندكم كتاب؟ قال: لا، إلا كتاب الله أو فهمٌ أعطيه رجل مسلم أو ما في هذه الصحيفة.

---

[١] البجاري، العلم ٣٩، اللقطة، ٧؛ أبو داود، العلم ٣؛ الترمذي، العلم ١٢.

[٢] البخاري، العلم ٣٩؛ مسلم، الوصية ٢٢؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢٥/١.

[٣] عمر بن الخطاب: جوانبه المختلفة وإدارته للدولة لشِبْلي النعماني، ٣٥٣/٢.

[٤] البخاري، العلم ٤٢.

قال: قلت: وما في هذه الصحيفة قال: العَقْل،[١] وفكاك الأسير، ولا يُقتل مسلمٌ بكافر.[٢]

كما كان لدى عمر بن الخطاب ﷺ صحيفة كان يعلقها بجانب سيفه وتحتوي على أحكام زكاة السوائم.[٣] ويذكر ابن سعد في طبقاته أن ابن عباس ﷺ عندما توفي ترك وراءه حمل بعير من الكتب، وكان أكثرها عبارة عما سمعه من الرسول ﷺ ومن الصحابة الكرام.[٤] كما ينقل ابن هشام أن الرسول ﷺ عندما شرف المدينة بمجيئه عقد معاهدة مع اليهود عدها البعض أول دستور قانوني إسلامي وكانت المعاهدة تبدأ هكذا: «بسم الله الرحمن الرحيم. هذا كتاب من محمد النبي ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش ويثرب ومن تبعهم فلحق بهم وجاهد معهم أنهم أمة واحدة من دون الناس...

...وأن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين، وإن يهود بني عوف أمة مع المؤمنين، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم، وأنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يُخاف فساده فإن مرده إلى الله ﷻ وإلى محمد رسول الله ﷺ.»[٥]

انتقلت الصحيفة التي أرسلها الرسول ﷺ إلى عمرو بن حزم -التي ذكرناها سابقًا- حول الديات والقصاص[٦] إلى حفيد حفيده أبي بكر بن محمد، كما انتقلت حزمة من الكتابة من أبي رافع -عتيق الرسول ﷺ- إلى أبي بكر بن عبد الرحمن بن الحارث،[٧] وهو من التابعين ومن كبار الفقهاء، وقد عد هذه الحزمة أكبر كنز حصل عليه طوال حياته.

كتبت هذه الأحاديث في زمن الرسول ﷺ على القطع الخشبية وعلى العظام وعلى الجلود تمامًا مثلما دوّن القرآن، ثم انتقلت إلى التابعين ومن ثم إلى تابع التابعين الذين حافظوا عليها ثم نقلوها إلى من جاء من بعدهم، كما نجد أن مجاهد بن جَبْر -وهو من كبار أئمة التابعين- يقول بأنه شاهد كتاب "الصحيفة الصادقة" وهي الصحيفة التي سجل فيها عبد الله بن عمرو بن العاص الأحاديث التي سمعها من الرسول ﷺ. يقول مجاهد بأنه رأى تلك الصحيفة أمام عبد الله بن عمرو بن العاص وأنه مد يده إليها ولكنه لم يسمح له بلمسها،[٨]

---

[١] العَقْل: الدية.

[٢] البخاري، العلم ٣٩؛ الترمذي، الديات ١٦؛ المسند للإمام أحمد، ١/١٠٠.

[٣] الترمذي، الزكاة ٤؛ أبو داود، الزكاة ٥؛ ابن ماجه، الزكاة ٩؛ الكفاية للبغدادي، ص٣٥٣، ٣٥٤.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/٢٩٣.

[٥] السيرة النبوية لابن هشام، ٢/٨-٩، ١٤٧.

[٦] النسائي، القسامة، ٤٦-٤٧؛ الدارمي، الديات ١٢.

[٧] الكفاية للبغدادي، ص٣٣٠.

[٨] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٢/٣٧٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٣/٣٥٠.

ذلك لأن عبد الله بن عمرو بن العاص كان يحافظ على صحيفته ويهتم بها أكثر من اهتمامه بعينيه، وحسب قول ابن الأثير فإن هذه الصحيفة كانت تحتوي على ما يقارب ألف حديث، وسند هذه الأحاديث هو عبد الله بن عمرو وابنه وحفيده أي عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده، وهناك ٥٠٠ حديث عن طريق هذا السند في كتب الأحاديث الصحيحة، وتعد تقريبًا بمنزلة ما يعده الكثير "السلسلة الذهبية" وهي سلسلة السند عن طريق زين العابدين عن الحسين عن علي بن أبي طالب ﷺ.

ي. الخلاصة

أجل، لم يتم تدوين الأحاديث بأمر من عمر بن عبد العزيز بعد مائة عام من وفاة الرسول ﷺ كما يدعي المستشرقون. دونت الأحاديث في عهد النبي ﷺ وحفظت ثم نقلت سواء كتابة أم شفاهًا إلى الأجيال التي جاءت فيما بعد. فقد ترك الصحابي جابر بن عبد الله مصدراً كبيراً سجل فيه أحاديث الرسول ﷺ.[1] وعلاوة على هذا نجد "الصحيفة الصحيحة" لهَمّام بن مُنَبِّه التي انتقلت من ذلك العهد أيضًا والتي تعد من المصادر المهمة للحديث.

لازم "هَمّام بن مُنَبِّه" أبا هريرة على الدوام، وكان يكتب كل حديث ينقله هذا الصحابي الذي كان من عباقرة الحفظ إلى درجة أنه ذكر مرة حديثًا لأستاذه فقال له أبو هريرة ﷺ بأنه لا يتذكر هذا الحديث فقام "هَمّام بن مُنَبِّه" وجلب إليه الصحيفة التي سجل فيها الأحاديث وقرأ منها هذا الحديث[2] فاقتنع أستاذه. وقد قام الأستاذ محمد حميد الله بنشر هذه الصحيفة. ثم إنه مما يجلب الانتباه أن هذه الأحاديث موجودة في مسند الإمام أحمد بن حنبل، كما يحتل القسم الأكبر منها أجزاء مهمة في كتب الحديث الصحاح أمثال البخاري ومسلم. وكما يدل هذا على تدوين الأحاديث في عهد الرسول ﷺ فهو دليل على انتقالها بشكل صحيح وتام إلى الصحابة ومنهم إلى التابعين وإلى تابع التابعين ومن ثم إلى كتب الحديث.

أمام هذه الوقائع التاريخية وأمام هذه الأحاديث يرى "أحمد محمد شاكر" -وهو من أكبر علماء الحديث في العصر الحديث - أن الأخبار والأحاديث التي تمنع الكتابة إما أنها نُسخت فيما بعد، أو أن النهي يعود إلى نهي كتابة الحديث مع القرآن لكي لا يختلط مع

---

[1] الكفاية للبغدادي، ص٣٥٤؛ تقدمة الجرح لابن أبي حاتم، ص٤٦.

[2] تهذيب التهذيب لابن حجر، ٥٩/١١.

القرآن أي شيء آخر.[١] هذه الحساسية الموجودة لدى الرسول ﷺ كانت موجودة لدى عمر ﷺ أيضًا، ذلك لأنه كان من الضروري حفظ القرآن سليمًا كما أنزل، وفهمُه جيدًا، وإدراك أهميته ووظيفته حسب مرتبته العالية لأنه كلام الله تعالى، وإلا كان من الممكن أن يختلط الحديث به ويفقد القرآن بذلك خصوصيته الفريدة ويتكرر ما جرى في الأمم السابقة. لذا، فإن الرسول ﷺ كان يشارك عمر ﷺ في الاهتمام والحساسية التي أبداها في هذا الموضوع. ولكن بعد ما توضح كل شيء وبعد أن تبين ما هو القرآن وما هو الحديث فقد تم السماح بتدوين الحديث تدوينًا مستقلاً عن تدوين القرآن.

بعد أن تم تدوين الحديث بهذا الشكل في العهد الأول تم تدوينه بشكل رسمي في عهد عمر بن عبد العزيز ﷺ الذي يطلق عليه اسم "عمر الثاني". فقد كانت هناك صحف حديث مختلفة في أماكن مختلفة، وكانت هذه الأحاديث تنتقل من فم إلى فم، فكما عارض عمر وابن عباس وأبو موسى الأشعري وأبو سعيد الخدري وزيد بن ثابت في العهود الأولى تدوين الحديث وفضلوا حفظها، كذلك نجد في عهد التابعين من يعارض تدوين الحديث مثل الشعبي والنخعي ممن كانت لهم اليد الطولى في الحديث ومن أصحاب الذاكرة القوية والقابلية الكبيرة في الحفظ، ولكن رغم هذا تم تدوين الأحاديث الموجودة في تلك الصحف السابقة، وكذلك الأحاديث التي كانت متداولة شفاهًا وحفظًا تدوينًا رسميًا في عهد الخليفة عمر بن عبد العزيز. إذ كما أدى استشهاد عدد كبير من حفاظ القران في معركة اليمامة إلى إثارة شعور عمر بن الخطاب ﷺ بضرورة جمع القرآن، كذلك أدى تمسك عمر بن عبد العزيز ﷺ بالسنة إلى قيامه بتدوينها.

نشأ عمر بن عبد العزيز ﷺ- الذي يعد لدى الكثيرين المجدد الأول الذي استحق بشارة الرسول ﷺ: «إن الدين بدأ غريبًا ويرجع غريبًا، فطوبى للغرباء، الذين يصلحون ما أفسد الناس من بعدي من سنتي»[٢] قبل ثلاثة عشر قرنًا- في قصر بني أمية، وكان حجة في التفسير وفي نقد الرجال، وحقق في البلاد الإسلامية التي توسعت كثيرًا إصلاحات عديدة في ظرف سنتين ونصف من خلافته حتى أصبحت هذه البلاد وكأنها تدار من قبل الملائكة، وكان قيامه بتدوين السنة إضافة إلى إصلاحاته الأخرى ذروة خدماته الكبيرة، إذ أصدر أمره بهذا الخصوص إلى والي المدينة أبي بكر بن محمد بن عمرو بن حزم -وهو حفيد

---

[١] الباعث الحثيث لأحمد محمد شاكر ص١٣٢-١٣٩.

[٢] مسلم، الإيمان ٢٣٢؛ الترمذي، الإيمان ١٣؛ المسند للإمام أحمد، ٤/٧٣.

الصحابي عمر بن حزم الذي استكتبه الرسول ﷺ صحيفة حول الديات والقصاص- فعهد هذا الوالي إنجاز هذا الأمر إلى أحد شباب التابعين من ذوي الفطنة والذكاء والعلم وهو محمد بن شهاب الزهري[1] الذي شمر عن ساعديه فورًا للقيام بهذه المهمة التي أنجزها بكفاءة واكتسب صفة وعنوان أول "مدون رسمي" للحديث في التاريخ الإسلامي، ومع أن الوالي أبا بكر بن حزم ساهم في هذا العمل أيضًا، إلا أن الخليفة عمر بن عبد العزيز توفي قبل أن يرسل له الوالي ما تم جمعه وتدوينه من الأحاديث.

ولم تقتصر فعالية تدوين الحديث التي بدأها الخليفة عمر بن عبد العزيز على جهود الإمام الزهري في المدينة فقط، بل ساهم فيها عبد الملك بن عبد العزيز بن جُرَيْج في مكة وسعيد بن أبي عروبة في العراق والأوزاعي في الشام ومحمد بن عبد الرحمن في المدينة أيضًا، وزائدة بن قُدامة وسفيان الثوري في الكوفة وحمّاد بن سلمة في البصرة، وعبد الله بن المبارك في خراسان حيث تركوا لأخلافهم ثروة كبيرة في هذا الموضوع.[2]

وبعد عهد التدوين جاء عهد "التصنيف" الذي يأتي بمعنى التأليف وترتيب الأحاديث حسب مواضيعها، ويعد العهد الذهبي لتاريخ الحديث في الإسلام، حيث نرى هنا أسماء مشهورة كأبي داود الطيالسي، ومسدّد بن مسرهد والحُميدي وأحمد بن حنبل صاحب "المسند"، ونرى من جانب آخر عبد الرزاق بن هَمّام وهو يؤلف "المصنف"، كما قام ابن أبي ذئب والإمام مالك بتأليف "الموطأ"، ويحيى بن سعيد القطّان ويحيى بن سعيد الأنصاري بتأليف كتبهم القيمة في هذا العهد الذهبي.

كان هؤلاء الأئمة الكبار شيوخ كبار المحدثين وأساتذتهم أمثال البخاري ومسلم وأبي داود والنسائي ويحيى بن معين. وأخيرًا حان وقت تأليف الكتب الستة من قبل مؤلفيها العظام، هذه الكتب التي عدت أوثق كتب الحديث، وقد عاش معظم هؤلاء المؤلفين الكبار في العصر نفسه تقريبًا. فقد كان البخاري صديقًا لمسلم، وتتلمذ الترمذي على البخاري، كما كان النسائي معاصراً لأبي داود. ولم يكن بين هؤلاء العلماء الأجلاء وبين عهد الرسول ﷺ سوى ثلاثة أو أربعة أجيال فقط، ولم يكن من الممكن أن يخطر الكذب حتى على أحلام هؤلاء العلماء الكبار الذين كانوا يشكلون الحلقات الذهبية لهذه السلسلة النورانية.

وهكذا تم حفظ السنة التي تعد نصف الدين بأوثق شكل، وبعيدًا عن كل شك وشبهة

---

[1] البخاري، العلم ٣٤.

[2] تاريخ بغداد للبغدادي، ٨٥/١٤؛ تذكرة الحفاظ للذهبي، ٢٢٩/١.

ومن قبل كبار المحققين الذين كانوا يزنون كل شيء ميزان الشعرة، وقد بدأ هذا الحفظ من عهد الصحابة واستمر إلى عهد التابعين وتابعي التابعين، ثم تدوينها وحفظها عن ظهر قلب والمحافظة عليها ثم تدوينها وتصنيفها ونقلها دون تغيير حرف منها حتى يومنا الحالي.

أجل، لقد عرف الصحابة قيمة السنة وأهميتها كمصدر ديني مهم وكمرشد لا يستغنى عنه وكمفسر مبارك للقرآن، وانتقل هذا الاهتمام إلى التابعين وإلى تابع التابعين حتى وصلت السنة تحت ظل كل هذا الاهتمام والرعاية إلى الأجيال الأخرى وإلى عصرنا الحالي.

الباب الثالث

الصحابة الكرام والتابعون العظام

(أ) الصحابة الكرام

الصحابة هم الذين نقلوا السنة النبوية بل حتى القرآن الكريم. فالأمانة الكبرى التي أرسلها الله المؤمن والمهيمن بوساطة جبريل الأمين إلى أفضل الخلق قاطبة وأكثرهم أمنًا.. إلى الأمين محمد ﷺ.. ثم كان الصحابة هم الذين نقلوا إلينا هذه الأمانة الكبرى كما هي تمامًا. لذا، نرى القرآن الكريم والسنة النبوية يتحدثان عنهم بكل ثناء،[1] بل مدحهم وأثنى عليهم الإنجيل والتوراة كذلك.[2]

عاشوا حياة مستقيمة، لم يكونوا مثال البطولة في بدر ومؤتة واليرموك فقط، بل كانوا في كل صفحة من صفحات حياتهم مثالاً يحتذى، إذ نظموا حياتهم وأوقفوها لحساب الدار الآخرة، وكانت كل خطوة من خطواتهم في سبيل نيل الرضا الإلهي. وعن طريق هؤلاء الذين ضربوا المثل الأعلى في الطهر والاستقامة وصلت إلينا السنة النبوية، لذا كان علينا أن نتطرق إلى الصحابة قليلاً، ثم إلى التابعين العظام الذين تبعوهم بأحسان.

---

[1] انظر هذه الآيات: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا في قُلُوبِهِم فَأَنزلَ السَّكِينَةَ عَلَيهِم وَأَثَابَهُم فَتحاً قَرِيباً﴾ (الفتح:١٨)؛ ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَموَالِهِم وَأَنفُسِهِم في سَبِيلِ اللهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَنَصَرُوا أُولَئِكَ بَعضُهُم أَولِيَاءُ بَعضٍ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِنْ وَلاَيَتِهِم مِن شَيءٍ حتى يُهَاجِرُوا وَإِنِ استَنصَرُوكُم في الدِّينِ فَعَلَيكُمُ النَّصرُ إِلاَّ عَلَى قَومٍ بَينَكُم وَبَينَهُم مِيثَاقٌ وَاللهُ بِمَا تَعمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ (الأنفال:٧٢)؛ ﴿لِلفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَموَالِهِمْ يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ وَرِضوَاناً وَينصُرونَ اللهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ۞ وَالَّذِينَ تَبَوَّؤا الدَّارَ وَالإِيمانَ من قَبلِهِم يُحِبُّونَ مَن هَاجَرَ إِلَيهِم وَلاَ يَجِدُونَ في صُدُورِهِم حَاجَةً مِمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنفُسِهِمْ وَلَو كَانَ بِهِم خَصَاصَة وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۞ وَالَّذِينَ جَاءوا مِن بَعْدِهِم يَقُولُونَ رَبَّنَا اغفِر لَنَا وَلإِخوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بالإيمانِ وَلاَ تَجْعَل في قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤوفٌ رَحِيم﴾ (الحشر:٨-١٠)؛ وانظر أيضاً: البخاري، فضائل الصحابة ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٤؛ الترمذي، المناقب ٥٦-٥٧.

[2] انظر هذه الآية: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَينَهُم تَرَاهُم رُكَّعاً سُجَّداً يَبتَغُونَ فَضلاً مِنَ اللهِ وَرِضواناً سِيمَاهُم في وُجُوهِهِم مِن أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُم في التَّورَاةِ وَمَثَلُهُم في الإِنْجِيلِ كَزَرعٍ أَخْرَجَ شَطْئَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغلَظَ فَاستَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ منهُم مَغفِرَةً وَأجراً عَظِيماً﴾ (الفتح:٢٩).

١- الصحابة وطبقات الصحابة

يُعد الحافظ ابن حجر أفضل من قدم تعريفًا للصحابة ولمن نستطيع إطلاق كلمة الصحابة عليهم. فالصحابي حسب تعريفه هو الشخص المؤمن الذي رأى رسول الله ﷺ ونال صحبته ولو قليلاً واستمع إليه ومات على الإيمان وعلى العهد.[١]

ومع أن هناك من اشترط للصحابي صحبة الرسول ﷺ مدة عام أو عامين، إلا أن جمهور العلماء متفقون على أن من لقي رسول الله ﷺ وتسنى له صحبته ولو قليلاً، واستفاد من ذلك الجو الروحاني ومات على الإيمان وعلى العهد فهو صحابي. أما الكافر فلو رأى الرسول ﷺ، ألف مرة فلا يُعد صحابيًا.

لا شك أن الصحابة ليسوا سواء، فهناك طبقات لهم، إذ لا يمكن أن يوضع في الكفة نفسها من آمن به وصحبه منذ البداية وجاهد معه، ومن آمن به بعد الهجرة ثم من بعد الفتح، وقد تناول القرآن والسنة هذا الموضوع من هذا المنطلق أيضًا. فالقرآن يتكلم عن السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠). ثم يتكلم عن الذين أنفقوا قبل الفتح وقاتلوا والذين أنفقوا بعده وقاتلوا وأنهما لا يستويان: ﴿لاَ يَسْتَوِي مِنْكُم مَنْ أَنْفَقَ مِنْ قَبْلِ الْفَتْحِ وَقَاتَلَ أُولَئِكَ أَعْظَمُ دَرَجَةً مِنَ الَّذِينَ أَنْفَقُوا مِنْ بَعْدُ وَقَاتَلُوا﴾ (الحديد:١٠).

ويمكن ملاحظة فرق الدرجات هذا في أقوال الرسول ﷺ. فمثلاً عندما قام خالد بن الوليد بمضايقة عمّار بن ياسر غضب رسول الله ﷺ وقال: «لا تؤذوا أصحابي.»[٢] وعندما آذى عمر أبا بكر قطب الرسول ﷺ حاجبيه وقال لعمر: «هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ هل أنتم تاركوا لي صاحبي؟ إني قلت: يا أيها الناس، إني رسول الله إليكم جميعًا فقلتم: كذبتَ، وقال أبو بكر: صدقتَ.»[٣]

وأفضل من صنف الصحابة هو الحاكم النيسابوري صاحب كتاب المستدرك، فهو يرى أن الصحابة ينقسمون إلى اثنتي عشرة درجة:

١. قوم تقدم إسلامهم بمكة كالخلفاء الأربعة.

٢. الصحابة الذين أسلموا قبل تشاور أهل مكة في دار الندوة.

---

[١] الإصابة لابن حجر، ١/٧.

[٢] المسند للإمام أحمد، ٤/٨٩-٩٠؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٤/١٣٢.

[٣] البخاري، تفسير سورة (٧) ٣؛ السنن الكبرى للبيهقي، ١٠/٢٣٦.

٣. مهاجرة الحبشة.
٤. أصحاب العَقَبة الأولى.
٥. أصحاب العَقَبة الثانية وأكثرهم من الأنصار.
٦. أول المهاجرين الذين وصلوا إلى النبي ﷺ بقباء قبل أن يدخل المدينة.
٧. أهل بدر.
٨. الذين هاجروا بين بدر والحُديبية.
٩. أهل بيعة الرضوان في الحُديبية.
١٠. من هاجر بين الحُديبية وفتح مكة كخالد بن الوليد وعمرو بن العاص.
١١. مسلمة الفتح الذين أسلموا بعد فتح مكة.
١٢. صبيان وأطفال رأوا النبي ﷺ يوم الفتح وفي حجة الوداع وغيرهما.[1]

٢- المنـــزلة الرفيعة للصحابة

هناك اتفاق أو إجماع بأن الصحابة أفضل الناس بعد الأنبياء. فالأنبياء هم أصحاب الفضائل الكبرى، وليس في وسع أحد الوصول إلى مرتبتهم. ثم يأتي بعدهم الصحابة، ومع ذلك يمكن القول أن هناك صحابة يصلون في بعض الفضائل إلى مرتبة أنبياء بني إسرائيل وليس في جميع الفضائل. أكرر القول بأن بعض الصحابة قد يصلون في بعض الفضائل - وليس في كلها- إلى مرتبة بعض الأنبياء. وقد يقترب بعض الأولياء والأصفياء أمثال الشيخ الكيلاني والإمام الرباني ومحمد بهاء الدين النقشبندي في بعض الفضائل من بعض الصحابة على قاعدة "رجحان المرجوح على الراجح"، ولكن علماء الجمهور العظام أمثال أبي حنيفة والإمام الشافعي من الذين تنورت عقولهم وقلوبهم وأصبح كلامهم حجة في الدين يرون أن الفضيلة المطلقة تعود بعد الأنبياء إلى الصحابة الكرام[2] يقول الإمام الرباني السرهندي "فإنما حصل للأصحاب في أول صحبة خير البشر عليه وعلى آله الصلاة والسلام بطريق اندراج النهاية في البداية قلما يحصل لكُمَّل الأولياء في النهاية، ولهذا كان الوحشي قاتل حمزة رضي الله عنه أفضل من أويس القرني الذي هو خير التابعين لنيله صحبة النبي ﷺ مرة واحدة. سئل عبد الله بن المبارك: أيهما أفضل معاوية أو عمر بن عبد العزيز؟ فقال:

---

[1] معرفة علوم الحديث للحاكم، ص٢٢-٢٤؛ الباعث الحثيث لأحمد محمد شاكر، ص١٣٧.
[2] شرح كتاب الفقه الأكبر لعلي القاري، ص٢٠٦؛ شرح العقيدة الطحاوية لابن العز، ٦٨٩/٣؛ علوم الحديث لابن الصلاح، ص٢٩٤؛ الكفاية للخطيب البغدادي، ص٤٦.

والله لَلغبار الذي دخل أنف فرس معاوية مع رسول الله ﷺ خير من عمر بن عبد العزيز كذا مرة. فينبغي أن يتأمل في أنه إذا كان بداية جماعة بحيث اندرجت فيها نهاية غيرهم ماذا تكون نهايتهم، وكيف يسعها إدراك الآخرين؟"[1]

٣- العوامل التي علت بمنـــزلة الصحابة

ما سبب المنزلة السامية للصحابة الكرام؟

أ. العلاقة بالرسالة

السبب الأول يعود إلى وجود علاقة بين الصحابة وبين نبوة رسول الله ﷺ ورسالته. وبوفاة الرسول ﷺ انسد باب النبوة، لذا لم يبق هناك سوى علاقة الولاية بين الرسول ﷺ والأولياء الذين جاءوا من بعده. وبدرجة سمو النبوة على الولاية سمت مرتبة الصحابة على مرتبة الأولياء.

ب. موضوع الانصباغ

والثاني هو موضوع الانصباغ. فوجود شخص في حضور شخص عظيم بضعة دقائق قد يفيده أكثر من قراءة مؤلفات ذلك الشخص العظيم لعدة ساعات. فالحضور في المجلس شخصيًا والاستفادة من الصحبة بشكل مباشر وقريب لاسيما إن كان هذا مجلس الرسول ﷺ.. مثل هذه الصحبة لا تغني عنها أي قراءة في كتاب ما، لأن الإنسان المحظوظ بتلك الصحبة يسمع الرسول ﷺ ويرى حركات يده ونظرات عينيه ويحس بالجو الروحي المشع في مجلسه. ولن يستطيع أحد أن يصل إلى هذا الجو من قراءة الكتاب. صحيح أن كل شخص يستطيع أن يقرأ حول صلاة الرسول ﷺ وكيف كان يقف للصلاة وكيف كان يركع ويسجد، ولكن لا يوجد كتاب يستطيع أن ينقل الجو الحقيقي لصلاة رسول الله ﷺ وزفرات صدره في أثنائها والخشوع الذي كان يأخذ بالباب مشاهديه. لن يستطيع أي كتاب أن ينقل هذا الجو أبدًا، لذا فالذي لا يفهم معنى الانصباغ في جو هذه الصحبة لن يستطيع فهم الصحابة ولن يستطيع إدراك عظمتهم. فلبلوغ مرتبة الصحابة يجب تجاوز المكان والرجوع في الزمن ١٤٠٠ سنة إلى الوراء والحضور في مجلس رسول الله ﷺ قائلاً له: فديتك يا رسول الله بأبي وأمي.

---

[1] المكتوبات للإمام الربّاني الفاروق السرهندي، ١/٧٠ (المكتوب رقم ٥٨).

ج. ديمومة اتباع الحق

والثالث أن حياتهم خلت من الكذب حتى في المزاح. ويصعب فهم هذا في يومنا الذي يختلط بعض الكذب بكلام أصدق الناس. كانوا آنذاك حديثي العهد بالإسلام.. أسلموا فانتقلوا من الكذب إلى الصدق، ومن سوء الخلق إلى حسن الخلق، ومن الظلام إلى النور، ولكي يصلوا إلى الجمال الذي وُعدوا به فقد ضحوا بأموالهم وأنفسهم عن طيب خاطر، وما كانوا على استعداد أن يفرطوا بهذه المنزلة التي حصلوا عليها بسعر غالٍ جدًا. وهؤلاء الذين تحلقوا حول مقام الصدق لرسول الله ﷺ كانوا بعيدين عن مقام الكذب الذي كان مقام مسليمة الكذاب، وما كانوا يرضون لأنفسهم أبدًا السقوط إلى تلك الهوة السحيقة.

أجل، لقد قطع الصحابة علاقتهم بدنيا الكذب وابتعدوا عنها وعن جميع المظاهر اللاأخلاقيه بسرعة على عزم أكيد بألا يرجعوا إليها مرة أخرى مهما كان الثمن.

وأظن أنه يصعب في أيامنا الحالية -التي راج فيها الكذب وسرى إلى السياسة واختلطت الأخلاق السيئة بالأخلاق الحميدة- فهم هذا على الوجه الصحيح والإحساس به، لذا فمن الصعب فهم الصحابة وفهم عظمتهم الفهم الصحيح، وهذا قد يؤدي إلى خطأ كبير وهو خطأ حسبان الصحابة رجالاً مثلنا، أي عدم التمييز بين النجوم المتلألئة في السماء وضوْء اليراع في الأرض.

د. الحيوية التي أوجدها الوحي

والعامل الرابع هو نزول موائد الوحي في عهد النبوة أمام الصحابة تترى، ففي كل يوم كانت هناك رسائل جديدة من مالك السموات والأرض ومن مليكهما، وكان الصحابة يتطهرون كل يوم بهذه الرسائل ويغتسلون بها. ففي يوم يشرع الأذان وفي يوم آخر تشرع إقامة الصلاة، وفي يوم آخر يشرع النكاح ويحدد بأربع نساء ويعلق بشرط، وفي يوم آخر يحرم الخمر وتلقى الأقداح على الأرض. هذه بعض الرسائل السماوية، فقد كانت هناك إشارات مبهمة أو صريحة يرونها في هذه الرسائل تتعلق بهم فمثلاً عندما يذكر الوحي: ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾ (الفتح:٢٩) ثم يذكر ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ﴾ كانت العيون تتجه إلى أبي بكر، وعندما ينزل الوحي ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ﴾ تتجه العيون إلى عمر بن الخطاب، وعندما يذكر الوحي ﴿رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾ تتجه الأنظار إلى عثمان بن عفان، وعند ذكر ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ﴾ (الأحزاب:٢٣) خطرت على القلوب بطولة أنس بن النضر واتجه

نظر أنس بن مالك إلى قبر عمه أنس بن النضر. ويستدعي الرسول ﷺ أُبيّ بن كعب ليقول له إن الله تعالى أمره أن يقرأ عليه سورة البينة التي تبدأ بالأية: ﴿لَمْ يَكُنِ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ وَالْمُشْرِكِينَ مُنْفَكِّينَ حَتَّى تَأْتِيَهُمُ الْبَيِّنَةُ﴾ (البينة:١) فسأله أُبيّ بن كعب مذهولاً: وهل ذكر أسمي يا رسول الله؟ فقال له الرسول ﷺ: «نعم.»[١] وعندما تنزل الآية ﴿فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا﴾ (الأحزاب:٣٧) كان يرد اسم زيد في الوحي وهو من أوائل المسلمين.

أجل، كان الله تعالى يذكرهم، وكانوا يذكرون الله تعالى.. كانوا على اتصال دائم بالله تعالى اتصالاً يليق بجلاله وعظمته بوساطة الرسول ﷺ الذي لو رأينا ظله في أحلامنا طرنا من السعادة أيامًا. هكذا انسابت أيام حياتهم وفي ظل مثل هذه العلاقة والفهم والوعي والإدراك والبصيرة، وكان هذا هو مستوى الذين نقلوا إلينا السنة، فقد كان من المحال أن يمر الكذب على خاطر أحد منهم. وقد توثق القرآن والسنة وتم إرساؤهما على أساس متين وقوي من قبل مثل هؤلاء الصحابة بحيث استحال إجراء أي تغيير أو تبديل فيهما.

هـ. أخوتهم في المحن والشدائد

أسلم الصحابة ووقفوا بجانب الدعوة الإسلامية في أيامها الصعبة والحالكة. صحيح أن الوقوف اليوم أيضًا بجانب الإسلام يعد صعبًا إلا أن تلك الأيام كانت أصعب وأحلك، وكان الإسلام آنذاك وحيدًا وغريبًا، ولكن الصحابة الكرام وقفوا بجانب دين الله وبجانب رسوله في تلك الأيام الحالكات، وينقل ابن عربي في كتابه "محاضرة الأبرار" كلام أبي بكر ﷺ إلى أبي عبيدة بن الجرّاح ﷺ لينقله إلى علي بن أبي طالب ﷺ الذي كان يصور حالهم في تلك الأيام إذ يقول معناه: "يا علي! عندما كنتَ أنت صغيرًا لا تعقل بعدُ لم نكن نحن نجرؤ على الخروج إلا بعد أن نأخذ الموت بنظر اعتبارنا عدة مرات، وكنا عندما نخرج نتوقع على الدوام سيفًا يمرق فوق رؤوسنا، وما كان أحد ليجرأ على قول لا إله إلا الله إلا وقد أخذ في حسبانه أن خنجرًا حادًا سيخترق جسده."[٢]

هذه هي الدرجة العالية التي بلغها هؤلاء الصحابة في الإسلام، لذا انفتحت أعين قلوبهم لعالم الحقائق في هبة واحدة. فعن أنس قال: إن رسول الله ﷺ دخل المسجد والحارث بن مالك نائم فحركه برجله، قال: «ارفع رأسك»، فرفع رأسه فقال: بأبي أنت وأمي يا رسول

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٩٨) ١-٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٢١-١٢٢؛ الترمذي، المناقب ٣٢٠؛ المسند للإمام أحمد، ٣/١٣٠، ١٣٧، ١٨٥.

[٢] محاضرة الأبرار ومسامرة الأخيار لابن عربي، ٢/١٧٩.

الله! فقال النبي ﷺ: «كيف أصبحت يا حارث بن مالك؟» قال: أصبحت يا رسول الله مؤمنًا حقًا. قال: «إن لكل حقٍ حقيقة، فما حقيقة ما تقول؟» قال: عزفت عن الدنيا، وأظمأت نهاري وأسهرت ليلي وكأني أنظر إلى عرش ربي فكأني أنظر إلى أهل الجنة فيها يتزاورون وإلى أهل النار يتعاوون. فقال له النبي ﷺ: «أنت امرؤ نوّر الله قلبَهُ، عرفتَ فالزم.»[١]

كان هذا هو مقدار قربهم من الله تعالى، لذا أصبح الله تعالى -كما ورد في حديث قدسي- بصرهم الذي يبصرون به وسمعهم الذي يسمعون به وألسنتهم التي ينطقون بها، وأيديهم التي يبطشون بها.[٢]

٤- الصحابة في القرآن

يقول الإمام ابن حزم مثل كثير من الأئمة والمجتهدين إن جميع الصحابة من أهل الجنة.[٣] ووجود العشرة المبشرين بالجنة بينهم وهم على قيد الحياة يدل على حيازتهم على نسبة وعلى حصة معينة من الجنة، وهناك أدلة عديدة تؤيد هذا الرأي في القرآن وفي السنة. ففي القرآن مثلاً نجد هذه الآيات في أواخر سورة الفتح ﴿مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللهِ﴾، فأكبر حقيقة بعد الإيمان بالله هي حقيقة أن محمدًا ﷺ هو الرسول الذي أرسله للناس كافة. ﴿وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَى عَلَى سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيَغِيظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُم مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا﴾ (الفتح:٢٩).

فما هو هذا الأجر العظيم الذي وعدهم الله تعالى؟ لا يصرح القرآن بماهية هذا الأجر لأنه يريد أن يكون لهم مفاجأة في فردوس فيه ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر.[٤]

عن أنس ﷺ: أصيب حارثة يوم بدر وهو غلام، فجاءت أمه إلى النبي ﷺ فقالت: يا رسول الله! قد عرفتَ منزلة حارثة مني، فإن يكُ في الجنة أصبر وأحتسب، وإن تكن

---

[١] كنز العمال للهندي، ١٣/ ٣٥٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٥٧/١.

[٢] البخاري، الرقاق ٣٨.

[٣] الإصابة لابن حجر، ١٠/١؛ الفصل في الملل والأهواء والنحل لابن حزم، ١١٩/٣.

[٤] انظر: البخاري، التوحيد ٣٥؛ مسلم، الإيمان ٣١٢؛ الترمذي، الجنة ١٥؛ ابن ماجه، الزهد ٣٩؛ الدارمي، الرقائق ٩٨، ١٠٥؛ المسند للإمام أحمد، ٣١٣/٢، ٣٧٠.

الأخرى ترى ما أصنع. فقال: «ويحكِ أَوَ هبلتِ؟ أَوَ جنةٌ واحدة هي؟ إنها جنان كثيرة وإنه لفي جنة الفردوس.»[1]

كان هذا صحابيًا شابًا من عامة الصحابة آمن فيما بعد، فإذا كان يحوز الفردوس -وهو أرفع درجات الجنة- فما بالك بكبار الصحابة الذين نقلوا إلينا السنة النبوية والحقيقة الأحمدية، وما بالك بمن يسند إليهم الكذب أو يراهم من أهل النار! ترى إلام يقود هذا الرأى؟

يقول القرآن الكريم أيضًا: ﴿وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (التوبة:١٠٠). وسيقول الله تعالى لكل نفس منهم: ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠). أجل، إن الله تعالى راضٍ عنهم ولو لم يرض عنهم البعض، وهم وإن استكثروا عليهم الجنة إلا أن الله ﴿وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).

ترك المهاجرون ديارهم وبيوتهم وأوطانهم وهاجروا.. وقبل ذلك تركوا رغباتهم النفسية وهجروها.. هاجروا من المعصية إلى الطاعة، ومن رغبات النفس إلى صفاء الروح ومن مكة إلى المدينة. أما الأنصار فهم الأبرار الذين فتحوا لهم قلوبهم وصدورهم وبيوتهم، ولكي ندرك مدى احتضانهم لإخوانهم المهاجرين يكفي قراءة هذه الحادثة:

آخى رسول الله ﷺ بين سعد بن الربيع وعبد الرحمن بن عوف، فأخذ سعد أخاه عبد الرحمن إلى بيته وكانت له امرأتان فعرض عليه أن يناصفه أهلَهُ ومالَه فقال: بارك الله لك في أهلك ومالك، دُلَّني على السوق. فأتى السوقَ فربح شيئًا من أقِطٍ وشيئًا من سَمْنٍ.[2] أجل، كان هذا هو نوع احتضانهم لإخوانهم ونمط أخوّتهم.

ومثال آخر نراه في قصة الصحابي أبي هريرة ﷺ الذي جاء من دَوْس وأسلم ولازم الرسول ﷺ يستمع إليه لكي ينقل لنا السنة فيما بعد، كان يصوم نهاره ويقوم ليله،[3] وكان جائعًا أكثر أوقاته، وقد يبلغ به الجوع درجة كبيرة، فيبدأ يتلوى من الألم ومن ينظر إليه يحسبه مجنونًا، إذ يقول ﷺ: "لقد رأيتني أُصرَع بين منبر رسول الله ﷺ وبين حجرة عائشة

---

[1] البخاري، الرقاق ٥١؛ الترمذي، تفسير سورة (٢٣) ٣.

[2] البخاري، النكاح ٧، البيوع ١، ٤٩؛ الترمذي، البر ٢٢.

[3] البداية والنهاية لابن كثير، ١١٨/٨-١٢٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٦٠٩/٢.

فيقول الناس: إنه لَمجنون، وما بي جنون، وما بي إلا الجوع."[١] ولم يكن أبو هريرة وحده يقاسي الفقر والجوع، بل كان هناك آخرون، ففي رواية عن أبي هريرة ﷺ قال: أتى رجل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله أصابني الجهد، فأرسلَ إلى نسائه فلم يجد عندهن شيئًا، فقال رسول الله ﷺ: «ألا رجل يُضيّف هذه الليلة يرحمه الله؟» فقام رجل من الأنصار فقال: أنا يا رسول الله. فذهب إلى أهله فقال لامرأته: ضيف رسول الله، لا تدّخريه شيئًا. فقالت: والله ما عندي إلا قوت الصِّبية. قال: فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم وتعالَيْ فأطفئي السراج ونطوي بطوننا الليلة. ففعلتْ ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ فقال: «لقد عجب الله ﷻ - أو- ضحك من فلان وفلانة فأنزل الله ﷻ: ﴿وَيُؤْثِرُونَ عَلَى أَنْفُسِهِم وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ﴾ (الحشر:٩).»[٢]

أجل، لقد أحرزوا مستوى ساميًا لا يخطر على خيال إنسان هذا العصر. كانت قلوبهم نقية طاهرة، ونفوسهم خالية من العوج، لذا أعلن الله تعالى عن رضاه عنهم وهم لا يزالون على قيد الحياة. فقد كانوا مؤمنين بحق، والله يحب المؤمنين ويرضى عنهم لذا، قال عنهم: ﴿لَقَدْ رَضِيَ اللهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنْزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا﴾ (الفتح:١٨).

لم يتراجع الصحابة الكرام عن عهدهم لرسول الله ﷺ ولا عن بيعتهم التي بايعوه ولا عن عهدهم مع الله تعالى، بل صدقوا ما عاهدوا الله عليه وبرهنوا على صدقهم هذا في كل حادثة وأمر، والقرآن الكريم يمدحهم ويخلد صدقهم هذا فيقول: ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب:٢٣).

أجل، لقد عاهدوا على أن يبذلوا أموالهم وأنفسهم في سبيل الله وفي سبيل الحصول على جنته وعلى رضوانه، وصدقوا ما عاهدوا الله عليه فاستشهد قسم منهم في المعارك ولم يتراجعوا ولم يهربوا في القتال. فها هو حمزة يستشهد في معركة أُحد ويرقى إلى مرتبة سيد الشهداء. وها هو أنس بن النضر يستشهد في أحد أيضًا ويلقى ربه. وها هو عبد الله بن جحش ومصعب بن عمير وعشرات غيرهم استشهدوا في بدر وفي أُحد. استشهد هؤلاء وبقي وراءهم آخرون ينتظرون دورهم في الشهادة ويبحثون عنها، منهم أبو عقيل.. انتظر

---

[١] صفة الصفوة للجوزي، ١/٢٩٢-٢٩٣؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/٣٧٨.

[٢] البخاري، تفسير سورة (٥٩) ٦؛ مسلم، الأشربة ١٧٢-١٧٤.

الشهادة في أُحد ثم انتظرها في فتح مكة، ثم انتظرها في معركة مؤتة، وأخيرًا لقيها في معركة اليمامة.

لم يغيروا عهودهم التي قطعوها على أنفسهم مع الله تعالى، ولم يتغيروا.. كانوا في اليوم الأخير من حياتهم مثل أول يوم عهدهم.. لم تغيرهم الدنيا ولم تفتنهم، ولم تلههم الشهوات، بل بقوا رجالاً صناديد حتى تمزقت أستار الظلام عن قافلة النور.

٥- الصحابة في الأحاديث الشريفة

لقد خلد القرآن الكريم ذكرى الصحابة -الذين كانوا القنوات الطاهرة التي نقلت إلينا السنة- بثنائه عليهم. والآن لنطلع على الأحاديث الشريفة في حق الصحابة الكرام وكيف أثنت عليهم:

أ. جاء في رواية وردت في صحيح البخاري وصحيح مسلم وغيرهما من كتب الأحاديث الصحيحة عن أبي سعيد الخدري ﷺ -وهو من شباب الصحابة الذين وقفوا أنفسهم لحفظ الحديث مثل أبي هريرة ﷺ- جاء في هذه الرواية: «لا تسبوا أصحابي، لا تسبوا أصحابي، فوالذي نفسي بيده، لو أن أحدكم أنفق مثل أُحد ذهبًا، ما أدرك مُدّ أحدهم ولا نصيفه.»[1]

ذلك لأنهم دافعوا عن الإسلام في أحلك وفي أصعب أيامه، لذا فأي قدح في حقهم لا يليق بأي مسلم، لذا فلا نستطيع نحن صرف أي كلام غير مناسب في حق الصحابة مثلما فعل منتسبو بعض المذاهب الباطلة بالأمس أو مثلما يفعل الآن بعض المستشرقين الذين أصبحت عداوة الإسلام دينهم، وبعض مقلديهم من المسلمين المساكين الذين أذهلهم التقدم المادي للغرب فأصبح هؤلاء المستشرقون قبلتهم ومحرابهم.

ب. يروي الترمذي عن عبد الله بن مغفَّل ﷺ: «اللهَ اللهَ في أصحابي، اللهَ اللهَ في أصحابي. لا تتخذوهم غَرَضًا بعدي، فمن أحبهم فَبحبي أحَبّهُمْ ومن أبْغَضَهم فببغضي أبْغضَهم، ومن آذاهم فقد آذاني، ومن آذاني فقد آذى الله، ومن آذى الله فيوشك أن يأخذه.»[2]

ج. وعن الإمام مسلم أيضًا:

«النجومُ أمنة للسماء، فإذا ذهبت النجومُ أتى السماءَ ما تُوعَدُ. وأنا أمنةٌ لأصحابي فإذا ذهبتُ

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٥؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢٢١؛ الترمذي، المناقب ٥٨.

[2] الترمذي، المناقب ٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٥٧/٥.

أتى أصحابي ما يوعَدون، وأصحابي أَمَنةٌ لأمتي، فإذا ذهب أصحابي أتى أمّتي ما يُوعدون.»[١]

فكما تنتشر النجوم عند قيام الساعة انتشار حبّات المسبحة، كذلك يعد الرسول ﷺ رأس المسبحة بالنسبة لأصحابه، وأصحابه رأس المسبحة بالنسبة لأمته، لذا كان الرسول ﷺ ضروريًا لانتظام صحابته، وصحابته يشكلون ضرورة لنظام أمته بأوليائها وأصفيائها وأبرارها.

د. يقول الرسول ﷺ في حديث رواه البخاري ومسلم وأصحاب الكتب الصحاح للحديث: «خير الناس قَرْني ثم الذين يلونهم ثم الذي يلونهم ثم يتخلف من بعدهم خلف تسبق شهادة أحدهم يمينهُ، ويمينُهُ شهادته.»[٢] ثم جاء عصر الكذب، عصر خلف الوعد حيث تسبق الشهادة اليمينَ ويسبقُ اليمين الشهادة.

أما عصر الصحابة والتابعين وتابعي التابعين فقد كان عصرًا بعيدًا عن الكذب ومبرأ منه، وبعد عصر تابعي التابعين ظهر الكذب فظهرت فرق المعتزلة والمرجئة والمشبّهة ثم انتشر الكذب، واليوم ساد الكذب بين المستشرقين الذين أسندوا الكذب إلى الصحابة والتابعين وتابعي التابعين، وتابعهم في هذا بعض المنذهلين بالغرب من المسلمين.

هـ. يقول ابن مسعود ﷺ -الذي قال في حقه عمر بن الخطاب لأهل الكوفة بأنه آثرهم على نفسه عندما أرسل لهم هذا الصحابي[٣]-: "إن الله نظر في قلوب العباد فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد ﷺ فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه يقاتلون على دينه."[٤] اختار له أصحابًا أمثال أبي بكر وعمر وعثمان وعلي وزبير وطلحة وعبد الرحمن بن عوف وأبي عبيدة بن الجرّاح وغيرهم.

و. كما ينقل أبو نعيم في كتابه الحلية عن عبد الله بن عمر: "من كان مُستنًّا فليستَنّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمد ﷺ كانوا خير هذه الأمة، أبرّها قلوبًا، أعمقها علمًا وأقلها تكلّفًا، قومٌ اختارهم الله لصحبةِ نبيه ﷺ ونقلِ دينه، فتشبهو بأخلاقهم وطرائقهم فهم أصحاب محمد ﷺ كانوا على الهُدى المستقيم والله رب الكعبة."[٥]

ز. ويروي صاحب الحلية أيضًا عن ابن مسعود ﷺ أنه قال: "أنتم أكثر صيامًا وأكثر

---

[١] مسلم، فضائل الصحابة ٢٠٧؛ المسند للإمام أحمد، ٣٩٩/٤.

[٢] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٢.

[٣] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٨٨/٣؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٩١/٩.

[٤] المسند للإمام أحمد، ٣٧٩/١؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٧٥/١.

[٥] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٠٥/١.

صلاةً وأكثر اجتهادًا من أصحاب رسول الله ﷺ وهم كانوا خيرًا منكم." قالوا: لِمَ يا أبا عبد الرحمن؟ قال: "هم كانوا أزهد في الدنيا وأرغب في الآخرة."[1]

٦- المكثرون من الصحابة

أكثر من تعرض لهجوم المستشرقين وهجوم تابعيهم ومقلديهم هم الصحابة المكثرون من رواية الحديث وعلى رأسهم أبو هريرة ﷺ.

لقد انتقل الدين إلينا بوساطة الصحابة الكرام، لذا فأي تعرض لهم يعد تعرضًا لديننا. ولكون الأمانة في عهدتنا الآن لذا، يتحتم علينا حفظ هذه الأمانة أي حفظ ديننا من أي هجوم أو تعرض. لقد أدى الصحابة الكرام مهمتهم على أتم وجه، وانقضت حياتهم في عهد كان بعيدًا عن كل طعن وتشهير. والحقيقة أنهم لا يحتاجون إلى من يدافع عنهم، ولكننا نريد البرهنة على تهافت هذا العذر، لأن الهدف من الهجوم على هؤلاء الصحابة هو النيل من ديننا في الأساس.

لقد انقضت العصور الأولى للتاريخ الإسلامي في نقاء وطهر، ولكن ما إن دخلت التيارات الفلسفية والتفكير الأجنبي بين المسلمين حتى ظهرت المذاهب الباطلة أمثال الجبرية والمرجئة والمعتزلة والمشبهة، وسلك أصحاب هذه المذاهب طريق اختراع الأحاديث لتأييد أهوائهم ومسالكهم، وكذلك الهجوم على الصحابة الذين رووا أحاديث رأوها مخالفة لمشاربهم الباطلة. لذا، نرى بعض أئمة المعتزلة كالنظّام وبعض أئمة الشيعة كأبي إسحاق وهم يهاجمون بعض أعمدة رواة الحديث من كبار الصحابة أمثال أبي هريرة ﷺ الذين قضوا حياتهم -كأي صحابي آخر- في شرف واستقامة وأصبحوا من مفاخرنا. لذا، فلأهمية هذا الموضوع فسنتناول بتعريف قصير لهؤلاء الصحابة بادئين بأبي هريرة وابن عباس وابن عمر وابن مسعود ﷺ جميعاً.

أ. أبو هريرة ﷺ

هو من قبيلة دَوْس اليمنية، أسلم في بداية السنة السابعة للهجرة وهاجر إلى المدينة ونال شرف البقاء بجانب رسول الله ﷺ أربع سنوات. فعندما أسلم طُفيل بن عمرو رئيس قبيلة دوس رجع إلى قبيلته وكأنه شعلة من نور فأسلم على يديه الكثير من أفراد

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١/١٣٦.

قبيلته، وكان أبو هريرة منهم حيث هاجر إلى المدينة بعد إسلامه.[١]

عندما وصل أبو هريرة ﷺ إلى المدينة كان رسول الله ﷺ على أبواب خيبر، فأسرع أبو هريرة والتحق بجيش الرسول ﷺ في خيبر. سأله الرسول ﷺ عن اسمه فقال: عبد الشمس. فأخبره الرسول ﷺ بأن الإنسان لا يكون عبدًا للشمس ولا للقمر بل يكون عبدًا لله، لذا سماه عبد الرحمن. ولكنه عُرف على الأكثر باسم أبي هريرة، ذلك لأن الرسول ﷺ رآه مرة وفي حجره قطة صغيرة فقال له: «يا أبا هريرة!» حيث عرف بهذا الاسم فيما بعد. وكان يفضل أن يدعوه الناس أبا هرّ لأنه كان فقيرًا معدمًا لايملك شيئًا، كما أن الرسول ﷺ دعاه مرة وهو في إحدى لحظاته السعيدة بأبي هرّ. وتفضيله أن يخاطبه الناس باسمه هذا دليل على مدى ارتباطه برسول الله ﷺ وحبه له.[٢]

أسلم أبو هريرة ولكن كانت لديه مشكلة يعدها مشكلة كبيرة، وهي أن أمه لم تكن قد أسلمت بعد، كان يحس بدَيْن كبير نحو والدته التي ربته وهو يتيم، فكان يتمنى اهتدائها للإسلام ويحاول ذلك لكي يوفيها جزءً من دينها عليه، لذا جاء إلى رسول الله ﷺ وطلب منه أن يدعو الله لكي يهديها إلى الإسلام وإلى نطق شهادة لا إله إلا الله.

ففي رواية عنه: كنت أدعو أمي إلى الإسلام وهي مشركة، فدعوتها يومًا فأسمعتني في رسول الله ﷺ ما أكره. فأتيت رسول الله ﷺ وأنا أبكي. قلت يا رسول الله! إني كنت أدعو أمي إلى الإسلام فتأبى عليّ، فدعوتها اليوم فأسمعتني فيك ما أكره، فادع الله أن يهدي أم أبي هريرة. فقال رسول الله ﷺ: «اللّٰهم اهدِ أم أبي هريرةَ» فخرجتُ مستبشرًا بدعوة نبي الله ﷺ. فلما جئتُ فَصِرْتُ إلى الباب فإذا هو مجافٌ (أي مغلق) فسمعتْ أمي خَشْفَ (أي صوت) قدميّ فقالت: مكانَك! يا أبا هريرة! وسمعت خضخضة الماء. قال: فاغتسلتْ ولبست درعها وعَجِلَتْ عن خمارها ففتحتِ البابَ. ثم قالت: يا أبا هريرة! أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدًا عبدُه ورسولُه. قال: فرجعْتُ إلى رسول الله ﷺ فأتيته وأنا أبكي من الفرح. قال قلت: يا رسول الله! أبشر قد استجابَ الله دعوتَكَ وهدى أم أبي هريرة. فحمدالله وأثنى عليه خيرًا. قال: قلت: يا رسول الله! ادع الله أن يحببني أنا وأمي إلى عباده المؤمنين ويحببهم إلينا. قال: فقال رسول الله ﷺ: «اللّٰهم حَبِّبْ عُبَيْدَكَ هذا -يعني أبا هريرة- وأمّهُ إلى عبادك

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/ ٣٢٨؛ الإصابة لابن حجر، ٤/٢٠٢-٢١٠؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ١/٣٤٥-٣٤٦.
[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٢٠٢-٢١٠.

المؤمنين وَحَبِّبْ إليهم المؤمنين.»[١] أجل، إن المؤمنين يحبون أبا هريرة، أما من لا يحبه فندع حكم ذلك للقارئ.

لازم أبو هريرة ﷺ النبي ﷺ ليلاً ونهاراً. كان من دهاة الحفظ عن ظهر قلب. في الليل كان ينام ثلثه ويتعبد الله في ثلثه ويصرف الثلث الأخير في تذكر الأحاديث التي سمعها ويكررها في قلبه. وأصبح في الوقت نفسه عالماً وفقيهاً وحافظاً للحديث، دعا مرة في المسجد فقال: اللّٰهم إني أسألك علماً لا يُنسى. فسمعه الرسول ﷺ وقال: «آمين.»[٢]

ولا شك أن لدعاء الرسول ﷺ له بالحفظ كان له أثر في قوة حفظه، وفي أحد الأيام قال أبو هريرة قلت لرسول الله ﷺ: يا رسول الله ﷺ إني أسمع منك حديثًا كثيرًا أنساه. قال: «ابسط رداءك» فبسطته، فغرف بيديه ثم قال: «ضُمَّه.» فضممته فما نسيت شيئًا بعده.[٣]

وعندما قيل له إنه يكثر من رواية الأحاديث قال: "إن إخواننا من المهاجرين كان يشغلهم الصفق بالأسواق، وإن إخواننا من الأنصار كان يشغلهم العمل في أموالهم، وإن أبا هريرة كان يلزم رسول الله ﷺ بشبع بطنه ويحضر ما لا يحضرون ويحفظ ما لا يحفظون."[٤]

كانت هذه هي الحقيقة.. لازم رسول الله ﷺ ولم يفارقه. كان يبقى جائعاً لعدة أيام، وكان يصوم صوم الوصال، أي أنه عندما لايجد شيئاً يفطر عليه يجدد صيامه، وهكذا كان يواصل صومه لثلاثة أو أربعة أيام.[٥] كان يتلوى أحياناً من الجوع ويتقلب على الأرض من الألم فيحسبه الناظر أن به صرعاً،[٦] وكان أحيانًا يقول لمن يراه أو يمر به استقرأتُك[٧] ويأتي هذا بمعنى: هل تقرأ لي القرآن؟ لم يكن أحد -في أكثر الأحيان- يفهم له سوى جعفر الطيار، لذا كان بعضهم يقرأ له بعض الآيات ثم ينصرف عنه، بينما فهم جعفر الطيار مرامه من هذا السؤال فأخذه إلى بيته وأطعمه.[٨]

وكما كان جعفر ﷺ يُطعم أبا هريرة، كان الرسول ﷺ يطعمه أيضًا كلما تيسر له ذلك. لم ينس أبو هريرة ﷺ شيئًا سمعه من الرسول ﷺ، نقل كل ما سمعه منه إلينا ليخلد أقواله إلى

---

[١] مسلم، فضائل الصحابة ١٥٨؛ المسند للإمام أحمد، ٣٢٠/٢؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٢٨/٤

[٢] المستدرك للحاكم، ٥٠٨/٣.

[٣] البخاري، العلم ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٢٩/٤-٣٣٠.

[٤] البخاري، العلم ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٥٩؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣٣٠/٤.

[٥] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٧٨/١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١١٨/٨.

[٦] البخاري، الاعتصام ١٦؛ الترمذي، الزهد ٣٩.

[٧] استقرأتك: أي أطلب "قِراك" أي أن تستضيفني عندك.

[٨] البخاري، الأطعمة ٣٢؛ فضائل أصحاب النبي ١٠.

يوم القيامة، وكان أبو هريرة يقول: لولا آيتان في كتاب الله ما حدثت حديثا ثم يتلو: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى مِن بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ ۞ إِلاَّ الَّذِينَ تَابُوا وَأَصْلَحُوا وَبَيَّنُوا فَأُولَئِكَ أَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَأَنَا التَّوَّابُ الرَّحِيمُ﴾ (البقرة:١٥٩-١٦٠).[١]

لولا هذا لما روى أي رواية عن الرسول ﷺ ويكفي لهذا الصحابي النقي الصحيفة والخفيف الدم والذي كان صاحب مزاح أيضا مكوثه أربع سنوات مع شخص عظيم مثل رسول الله ﷺ الذي كان يحب أصحاب السلوك العالي وعدم استغراب أحد قربه هذا منه ﷺ.. يكفيه هذا للدلالة على مدى علوه على ما اعتقد، ولا يدرك معنى هذا إلا الشخص الذي جرّب أن يكون قريبًا من شخص عظيم.

لم يكن للصحابة الكرام موقف سلبي من أبي هريرة كما يدعي البعض. فعندما روى عنه أبو أيوب الأنصاري ﷺ -الذي كان من أوائل من بايع رسول الله ﷺ في العَقَبة والذي نال شرف استضافته في بيته والضيف العزيز لمدينة إسطنبول-[٢] قال أبو الشعثاء: قدمت المدينة فإذا أبو أيوب يحدث عن أبي هريرة ﷺ فقلت: تحدث عن أبي هريرة وأنت صاحب منزلة عند رسول الله ﷺ؟ فقال: لأن أحدث عن أبي هريرة أحب إلي من أن أحدث عن النبي ﷺ.[٣]

لم يكن أبو أيوب الأنصاري وحده هو الذي روى الحديث عنه، بل روى عنه أيضًا عبد الله بن عمر وحبر الأمة عبد الله بن عباس وجابر بن عبد الله الأنصاري وأنس بن مالك وواثلة بن الأسقع وغيرهم من الصحابة الأجلاء الذين يعدون أعمدة الحديث. كما روى عنه من التابعين العظام العديد من الأئمة الذين لهم اليد الطولى في الحديث أمثال الحسن البصري وزيد بن أسلم، وصهره سعيد بن المسيب، وعكرمة، ومجاهد، وسعيد بن يسار، وسليمان بن يسار، والشعبي، وهَمّام بن مُنَبِّه، ومحمد بن المنكدر المعروف بالبكاء، وغيرهم، من مئات الأعلام.[٤]

١) عمر بن الخطاب وأبو هريرة رضي الله عنهما

كان عمر بن الخطاب يحبه جدًا، لذا عينه واليًا على البحرين ثم عزله وأرسل غيره مكانه،

---

[١] البخاري، العلم ٤٢؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.

[٢] ذلك لأن ضريح هذا الصحابي الجليل موجود في إسطنبول. (المترجم)

[٣] المستدرك للحاكم، ٥١٢/٣؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١١٧/٨.

[٤] الإصابة لابن حجر، ٢٠٥/٤؛ تهذيب التهذيب لابن حجر، ٢٨٩/١٢-٢٩٠.

وقد يكون سبب العزل اشتغال أبي هريرة بالتجارة وكسبه رأسمالاً بقدر رأسمال شخص فقير في أيامنا الحالية، غير أن الولاة والإداريين والخلفاء آنذاك لم يكونوا يملكون شيئًا.. فكثير من الولاة كانوا يذهبون إلى الولايات التي تم تعيينهم فيها وهم لا يملكون سوى قربة مملوءة بالماء ويرجعون أيضًا كما ذهبوا. ومن شذ عن هذه القاعدة كان كثيرًا ما يعزل. ولم يجمع أبو هريرة رأسماله الصغير هذا عن طريق الرشوة أو عن طريق سوء استغلال سلطته، وعندما تبين لعمر بن الخطاب ﷺ هذا الأمر ثم دعاه ليستعمله فأبى فقال: لقد طلب العمل من كان خيرا منك، قال: إنه يوسف نبي الله بن نبي الله وأنا أبو هريرة بن أميمة، وأخشى ثلاثا: أن أقول بغير علم أو أقضي بغير حكم ويضرب ظهري ويشتم عرضي و ينزع مالي.[١]

ولم يعزل عمر بن الخطاب أبا هريرة وحده، بل قام أيضًا بعزل سعد بن أبي وقّاص وهو من بين العشرة المبشرة بالجنة وعمير بن سعد الذي كان من متقدمي الصحابة من وظائفهم. حتى أن أهل الكوفة عندما شكوا سعد بن أبي وقّاص إلى عمر قالوا إنه لا يحسن يصلي، فاستدعاه عمر وحقق معه، وقد حزن سعد بن أبي وقّاص وقال: أما أنا والله فإني كنت أصلي بهم صلاة رسول الله ﷺ ما أَخْرِم عنها. أصلي صلاة العشاء فأركد في الأولَيَيْنِ وأخِفّ في الأخْرَيينِ.[٢] ثم قال مستعرضًا تاريخ إسلامه: إني لأول العرب رمى بسهم في سبيل الله، والله إن كنا لَنغزو مع رسول الله ﷺ ما لنا طعام إلا ورق الحُبْلة،[٣] وهذا السَمُر حتى إن أحدنا لَيضع كما تضع الشاة ما له خِلْطٌ، ثم أصبحت بنو أسد تُعزّرُني[٤] على الدين، لقد خبتُ إذًا وضل عملي.[٥]

أجل، قال سعد بن أبي وقّاص هذا ورفض العودة مرة ثانية إلى الكوفة،[٦] لذا، فلم يكن أبو هريرة ﷺ هو الشخص الوحيد الذي تم عزله والذي لم يرغب في الرجوع إلى إمارته مرة أخرى.

٢) علي وأبو هريرة رضي الله عنهما

لم يكن لا علي ولا عثمان ﷺ ضد أبي هريرة ﷺ كما ادعى البعض. صحيح أن أبا

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٤/٣٣٥-٣٣٦؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٦/٣٢١؛ الإصابة لابن حجر، ٤/٢١٠.

[٢] البخاري، الأذان ٩٥؛ مسلم، الصلاة ١٥٨-١٦٠، الزهد ١٢.

[٣] الحُبْلة: ثمر السمر يشبه اللوبياء. (المترجم)

[٤] أي توبخني.

[٥] البخاري، فضائل الصحابة ١٥، الرقاق ١٧؛ مسلم، الزهد ١٢؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢/٣٦٦.

[٦] نقلاً عن رجال حول الرسول لخالد محمد خالد ص١٢٨.

هريرة عندما يحدث عن رسول الله ﷺ بقوله: "قال خليلي، وسمعت خليلي" اعترض عليه علي بن أبي طالب قائلاً له: متى كان خليلك؟[١]

بدا هذا الاعتراض من علي ﷺ بكل ما في قلبه من صفاء وإخلاص، لأنه لم يجده ملائمًا مع أنه لا يستغرب من أي شخص أن يصف شخصًا حبيبًا إلى قلبه بأنه كان "خليله." ولكن شخصًا مثل علي ﷺ الذي نشأ في حجر النبوة والذي كان أسبق السابقين إلى الإسلام يستطيع قول هذا لأبي هريرة ﷺ، فبين الأنداد والأمثال يمكن جريان مثل هذا الحديث أو العتاب، ولكن لا يحق لأحد أدنى منهم أن يتفوه بمثل هذا الكلام في حقهم. ثم إن عليّا ﷺ لم يقل هذا الكلام بقصد الطعن في أبي هريرة ﷺ، لذا فتفسير مثل هذا الكلام كطعن فيه يعني عدم معرفة ما هو الطعن وما هو ليس بطعن.

٣) الأمويون وأبو هريرة ﷺ

لم يكن أبو هريرة ﷺ معارضًا لعلي ﷺ ومداهنا وحليفًا لبني أمية كما ادعى البعض، فعندما ظهرت الفتن ذكر أبو هريرة ﷺ الحديث التالي ونشره في جميع أنحاء البلاد: «ستكون فتن، القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، ومن تشرَّف لها تستشرِفْه، فمن وَجد فيها ملجأ أو مَعاذا فلْيَعُذْ به.»[٢]

كان هذا اجتهاده.. لعله كان من الواجب عليه الانضمام إلى صف علي ﷺ لإخماد الفتنة، ولعل حديث رسول الله ﷺ لم يكن يعني تلك الفتنة، ولكنه استخرج هذا المعنى من هذا الحديث. كذا لم يشترك في الحوادث التي جرت في عهد علي ﷺ وفضل الجلوس في بيته، ولو لم يملك صلابة في الإيمان وخشية من الله تعالى ما تصرف هكذا، ولو كان من أنصار الأمويين ومن المعجبين بمعاوية لما كان هناك أي سبب يحول بينه وبين الاشتراك بجيش الأمويين. والذين ادعوا العكس أمثال "غولتسهر ((Goldziher" وأحمد أمين وأبي ريّة وعلي عبد الرازق من الذين حاولوا قلب الحقائق كانوا يعتمدون كمصدر على كتاب "العقد الفريد" الذي هو كتاب أدبي وليس كتابًا في الحديث. لذا، فالواجب أولاً أن يتعلم هؤلاء كيف يراجعون المصادر عند قيامهم ببحوثهم.، والغريب أن هؤلاء ادعوا أن ابن كثير ذكر في كتابه البداية والنهاية أن أبا هريرة التزم جانب معاوية ﷺ ضد علي ﷺ، بينما يذكر ابن كثير عكس هذا تمامًا في كتابه هذا، فلم يكن أبو هريرة كما يقول ابن كثير من أنصار

---

[١] تأويل مختلف الحديث لابن قتيبة، ص٤٣، ٤٤.

[٢] البخاري، الفتن ٩؛ مسلم، الفتن ١٠.

الأمويين بل كان على العكس تمامًا مشكلة كبيرة بالنسبة إليهم.[١] إذ وقف أمام مروان والد عبد الملك وروى له حديث رسول الله ﷺ: «هلكة أمتي على يدي غِلْمةٍ سفهاء من قريش.» فقال مروان: لعنة الله عليهم غِلْمةً. فقال أبو هريرة: لو شئتُ أن أقول بني فلان وبني فلان لفعلتُ. ويقول الراوي -وهو عمرو بن يحيى-: فكنت أخرج مع جدي إلى بني مروان حين ملكوا بالشام فإذا رآهم غلمانًا أحداثًا قال لنا: عسى هؤلاء أن يكونوا منهم.[٢] وكان يسير في الدروب وهو يدعو الله: "اللّهم لا تدركني سنة ستين" أي يدعو الله أن لا يريه حكم الغلمان.[٣] واشتهر دعاؤه هذا بين الناس حتى أن الكثيرين ممن رأوا أبا هريرة بدأوا يدعون بدعائه هذا. وقد استجاب الله لدعاء أبي هريرة فتوفاه سنة ٥٩ للهجرة وفي سنة ستين للهجرة انتقل الحكم إلى غلام من الغلمان إذ تولى يزيد الحكم.

٤) عائشة وأبو هريرة رضي الله عنهما

أما ادعاء البعض بقيام أمنا عائشة رضي الله عنها بنقد أبي هريرة ومعارضته فادعاء يشبه الاستشهاد المبتور بالآيات مثل ﴿لاَ تَقْرَبُوا الصَّلاَةَ﴾ (النساء:٤٣) أو ﴿فَوَيْلٌ لِلْمُصَلِّينَ﴾ (الماعون:٤). فأمنا عائشة رضي الله عنها كانت تصلي في غرفتها فسمعت أبا هريرة ﷺ في المسجد الملاصق لغرفتها وهو يروي الأحاديث عن الرسول ﷺ وبعدما أنهت صلاتها ذهبت لترى أبا هريرة، ولكنها لم تره لأنه كان قد انصرف، فقالت لعروة بن الزبير: ألا يعجبك أبو هريرة! جاء فجلس إلى جنب حُجرتي يحدث عن النبي ﷺ يُسمعني ذلك وكنت أسبّح[٤] فقام قبل أن أقضي سُبْحتي ولو أدركته لَرَدَدتُ عليه أن رسول الله ﷺ لم يكن يَسْرُدُ الحديث كسردكم.[٥]

والظاهر أنها كانت تريد الإشارة إلى وجوب الاقتصاد في رواية الأحاديث وعدم سردها الواحد تلو الآخر لكي يبقى أثر كل حديث من هذه الأحاديث المباركة في ذاكرة المستمعين ويُنقش فيها.

---

[١] البداية والنهاية لابن كثير، ١١٦/٨.

[٢] البخاري، الفتن ٣؛ مسلم، الفتن ٧٤؛ المسند للإمام أحمد، ٢٨٨/٢.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ١٢٢/٨.

[٤] أسبّح: أي أصلي نافلة.

[٥] البخاري، المناقب ٢٣؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٦٠.

٥) أبو حنيفة وأبو هريرة

يقال أن أبا حنيفة قال بأنه لا يعد كلام ثلاثة من الصحابة حجة منهم أبو هريرة.

لا يمكن صدور مثل هذا الكلام عن مثل هذا الإمام الكبير، إذ لا يليق ذلك به أبدًا. ولو صدر منه مثل هذا الكلام لما قال العلامة الكمال بن الهُمام صاحب "الفتح القدير" الذي يعد من كبار أئمة المذهب الحنفي: إن أبا هريرة من كبار الفقهاء. أجل، إن عالمًا كبيرًا مثل ابن الهُمام لم يكن ليقول مثل هذا الكلام في حق أبي هريرة لو أن إمام مذهبه قال عنه أنه لا يقبل كلامه حجة. ثم لا يقول لنا أحد أين قال أبو حنيفة مثل هذا الكلام.

روى أبو هريرة أكثر من خمسة آلاف حديث، ولو جمعت هذه الأحاديث في كتاب لكان حجمه أكبر من حجم القرآن بمرة ونصف، وكما نعلم هناك العديد من الناس ممن حفظوا القرآن الكريم في ستة أشهر، لذا فاتهام صحابي ذكي ذي ذاكرة قوية مثل أبي هريرة ﷺ بأنه لم يكن باستطاعته حفظ كل هذه الأحاديث في ظرف أربع سنوات قضاها ملازمًا للرسول ﷺ إنما هو اتهام لصحابي كبير وذكي بالحمق. ثم إن الأحاديث التي رواها لم تكن جميعها مما سمعها عن الرسول ﷺ، بل روى الكثير من الأحاديث التي سمعها عن أبي بكر وعمر وفضل وأُبيّ بن كعب وعائشة ﷺ أجمعين.

ثم إن أبا هريرة امتحن حتى في عهده فقد أمر مروان كاتبه أن يسجل سرًا مئات من الأحاديث التي كان يرويها أبو هريرة ﷺ، وبعد مرور سنة كاملة طلب مروان من أبي هريرة أن يحدثه بتلك الأحاديث، فبدأ أبو هريرة بعد قراءة البسملة بسرد تلك الأحاديث فوجدها متطابقة مع الأحاديث التي سبق وأن استكتبها كلمةً كلمةً وحرفًا حرفًا.[١] لذا، فكما خجل متهمو أبي هريرة بالأمس فسيكون الخجل نصيب متهميه اليوم وغدًا أيضًا.

ب. حبر الأمة عبد الله بن عباس ﷺ

ولد قبل الهجرة بأربع أو خمس سنوات، وعندما التحق الرسول ﷺ بالرفيق الأعلى كان عمره يتراوح بين ١٤- ١٥ سنة، وهذا يعني أنه في سنواته الأربعة أو الخمسة الأخيرة كان في عمر يستطيع فيه فهم ما يسمعه عن رسول الله ﷺ، وقد فهم واستوعب الشيء الكثير في هذه السنوات، فقد دعا له الرسول ﷺ قائلاً: «اللّٰهم فقهه في الدين وعلِّمه التأويل»،[٢] وقد

---

[١] المستدرك للحاكم، ٥٠٩/٣-٥١٠.

[٢] البخاري، الوضوء ١٠؛ مسلم، فضائل الصحابة ١٣٨؛ المسند للإمام أحمد، ٢٦٦/١.

بلغ في العلم وهو في تلك السن مبلغًا لقّب معه بحبر الأمة وبحر وترجمان القرآن.[١]

كان مليحًا جميل الوجه بليغًا يسحر قلوب سامعيه، ذا قامة طويلة تقرب من مترين -مثل والده- حلو الشمائل يمثل السلالة الهاشمية أصدق تمثيل،[٢] وكان ذا ذاكرة قوية بحيث أنه استطاع أن يحفظ ثمانين بيتًا من شعر عمر بن أبي ربيعة الذي كان مطلعه:

أمِنْ آلِ نُعْمٍ أنت غادٍ فمُبْكِرٌ غداة غدٍ أم رائح فمُهَجِّرٌ

حفظ ثمانين بيتًا من هذا الشعر من سماعه له مرة واحدة فقط.[٣] وإلى جانب التفسير والفقه والحديث كان ضليعًا في الأدب والشعر ولاسيما الشعر الجاهلي، ويورد ابن جرير الطبري في تفسيره في تفسير كل آية تقريبًا بيتًا من الشعر الجاهلي أورده ابن عباس.

كان محط الأنظار في عهد أبي بكر الصديق ﷺ، أما في عهد عمر بن الخطاب ﷺ فقد أختير على الرغم من صغر سنه إلى "مجلس الشورى" الذي كان يتكون من كبار شيوخ الصحابة. وعندما استغرب بعض شيوخ الصحابة اشتراكه مع صغر سنه -مع أن لهم أبناء مثله- قرأ عمر بن الخطاب ﷺ سورة النصر في مجلس الشورى وسأل الحاضرين عن معناها، فقالوا إن معناها أنه إذا جاء نصر الله والفتح وأقبل الناس يدخلون في دين الله أفواجًا فعلينا أن نسبح بحمد الله ونشكره. ولكن عمر بن الخطاب ﷺ لم يعجبه هذا فسأل ابن عباس عن معنى الآية فقال: "هو أجل رسول الله أعلمه له، قال ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللهِ وَالْفَتْحُ﴾ (النصر:٣) وذلك علامة أجلك، ﴿فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ (النصر:٣)." فقال عمر ﷺ: "ما أعلم منها إلا ما تقول."[٤]

اشتهر ابن عباس بفراسته وكياسته وفطنته، وهو من نفس الشجرة المباركة التي جاء منها الرسول ﷺ، وكان يفخر بهذا وله الحق في ذلك فكان يقول: "لقد نشأنا في بيت النبوة." وكان صاحب كمالات، وعندما كان يدخل إلى مجلس يقوم الجالسون احترامًا وتوقيرًا له فكان ينزعج من هذا كثيرًا، فكان يقول للأنصار جملة أصبحت مثالاً لقاعدة في النحو وهي "بالإيواء والنصر إلا جلستم" أي أعزم عليكم بما قمتم من إيواء ونصر للنبي ﷺ وللمهاجرين أن تجلسوا.

وعلى الرغم من ذلك كان ابن عباس يمسك بركاب جواد زيد بن ثابت ﷺ عندما

---

[١] انظر: المستدرك للحاكم، ٥٣٧/٣؛ أسد الغابة لابن الأثير، ٢٩١/٣.

[٢] سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٣٣/٣، ٣٣٦، ٣٥١؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٣٣٢/٨-٣٣٣.

[٣] شرح الكامل للمرصفي، ١٦٥/٧-١٦٦.

[٤] البخاري، تفسير سورة (١١٠) ٣؛ الترمذي، تفسير سورة (١١٠) ١.

يمتطي جواده فينزعج زيد بن ثابت ﷺ ويقول: لا تفعل يا ابن عم رسول الله ﷺ، فيقول ابن عباس ﷺ: "هكذا أُمرنا أن نفعل بعلمائنا." فيسرع زيد بن ثابت ويقبّل يد ابن عباس قائلاً: "وهكذا أُمرنا أن نفعل بأهل بيت نبينا."[١]

هناك نافذة في الحياة الاجتماعية يتراءى منها كل شيء، ويشاهد من خلالها الشيء الكثير، فالشخص العظيم يكون متواضعًا، يحاول أن يخفي عظمته، أما الشخص القزم فيحاول أن يتطاول ويبدو عظيمًا فيتكبر، فالتواضع علامة عند العظام على عظمتهم، والغرور علامة الصغر عند الصغار، وكان ابن عباس عظيمًا ومتواضعًا بدرجة عظمته.

كان له طلاب في كل ساحة من ساحات العلم. وقد ذكر بعض كبار أئمة التابعين أمثال سعيد بن جبير ومجاهد بن جَبْر وعكرمة بأنهم مدينون بعلمهم إليه. وبلغ عدد الأحاديث التي رواها هذا الصحابي الذي نشأ بالقرب من الرسول ﷺ 1600 حديثًا. لذا، ألا يُعد إثارة الشبهات حول الأحاديث التي رواها والزعم بأنها أحاديث مختلقة أخذها من كعب الأحبار.. ألا يُعد هذا الزعم تهوينًا من الدعاء الذي دعا الرسول ﷺ له وإهانة للأمة ولأئمة التابعين الذين لقبوه بحبر الأمة والبحر وترجمان القرآن؟

كان ابن عباس يكره أن يقوم له الناس، ولكن عندما دفن قام الكثيرون له من عالم الغيب، إذ يذكر سعيد بن جبير بأنه عندما دُفن تُليت هذه الآية على شفير القبر ولم يَدْرِ أحد من تلاها ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۞ ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً ۞ فَادْخُلِي فِي عِبَادِي ۞ وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾ (الفجر:٢٧-٣٠).[٢]

ج. عبد الله بن عمر ﷺ

يزعم المستشرقون خطأ أن عبد الله بن عمر كان التلميذ الآخر لكعب الأحبار، فقد كان لعمر بن الخطاب ﷺ تسعة أبناء هم: عبد الرحمن وعبد الرحمن الأوسط وعبد الرحمن الأصغر وعبد الله وزيد الأكبر وزيد الأصغر وعبيد الله وعاصم وعياض. ولكن أطلق اسم "ابن عمر" لعبد الله فقط لأنه كان أكثر جدارة بهذا الاسم من باقي إخوته. لذا، فعندما يذكر ابن عمر لا يخطر على البال ولا يُقصد إلا عبد الله.

صحيح أنه ليس من حدّنا أن نقوم نحن بإجراء تفاضل بين الصحابة الكرام، غير أننا

---

[١] الإصابة لابن حجر، ٣٣٢/٢.

[٢] المستدرك للحاكم، ٥٤٣/٣-٥٤٤؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٨٥/٩.

نستطيع أن نقول إن عبد الله بن عمر ربما فاق والده في بعض جوانب عبادته وتقواه وطاعته والتزامه الشديد بالسنة واتباعه لها. كان شخصًا فريدًا في اتباعه العميق للسنة إلى درجة يصعب إدراكها، إذ يروي أنس بن سيرين قال: كنت مع ابن عمر بعرفات فلما كان حين راح رحت معه حتى أتى الإمامَ فصلى معه الأولى والعصر، ثم وقف معه وأنا وأصحاب النيل حتى أفاض الإمام فأفضنا معه حتى انتهينا إلى المضيق دون المأْزِمَيْن فأناخ وأنخنا ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي، فقال غلامه الذي يمسك راحلته: إنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي ﷺ لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضي حاجته.[1]

كان رسول الله ﷺ يشرب الماء على ثلاث دفعات،[2] لذا، لم يشاهد أحد ابن عمر وهو يشرب الماء إلا على ثلاث دفعات. هكذا كانت درجة ارتباطه بالسنة النبوية، وهكذا كانت حساسيته في هذا الموضوع، بل ربما اعتبره البعض حتى في ذلك العهد مبالغًا في هذا الأمر، لذا فهل من الممكن أن يقوم مثل هذا الشخص برواية أي حديث للرسول ﷺ خلاف الحقيقة؟ أيمكن هذا؟

ولد في السنوات الأولى لظهور الإسلام وشاهد التعذيب الذي تعرض له والده إذ يقول: لما أسلم أبي عمر قال: أي قريش أنقلُ للحديث؟ فقيل له: جَميل بن معمر الجُمحي. قال: فغدا عليه. قال عبد الله بن عمر ﷺ فغدوت أتبع أثره وأنظر ما يفعل وأنا غلام أعقل كل ما رأيت، حتى جاءه فقال له: أعلمتَ يا جميل أني قد أسلمتُ ودخلت في دين محمد؟ قال: فوالله ما راجعه حتى قام يجر رداءه واتّبعه عمر واتبعتُ أبي حتى إذا قام على باب المسجد صرخ بأعلى صوته: يا معشر قريش -وهم في أنديتهم حول الكعبة- ألا إن عمر بن الخطاب قد صبأ. ويقول عمر من خلفه: كذب، ولكني قد أسلمت وشهدت أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله. وثاروا إليه فما برح يقاتلهم ويقاتلونه حتى قامت الشمس على رؤوسهم، وطَلِح (أي أعيا) فقعد وقاموا على رأسه وهو يقول: افعلوا ما بدا لكم. فبينما هم على ذلك إذ أقبل العاص بن وائل السهمي وأنقذ عمر من أيديهم.[3]

عندما هاجر النبي ﷺ والمسلمون إلى المدينة كان في سن الحادية عشرة تقريبًا. وفي معركة بدر عرض مع أقرانه على رسول الله ﷺ فأخذ يتطاول ويقف على أطراف أصابعه

---

[1] المسند للإمام أحمد، ١٣١/٢.

[2] البخاري، الأشربة ٢٦؛ مسلم، الأشربة، ١٢٢، ١٢٣.

[3] السيرة النبوية لابن هشام، ٣٧٣/١-٣٧٤؛ البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٢/٣-١٠٣.

لكي يبدو كبيراً، غير أن الرسول ﷺ لم يقبل اشتراكه في القتال لصغر سنه، لأن الرسول ﷺ كان يسأل عن العمر ولا يكتفي بالنظر إلى الطول. وعرض نفسه أيضًا في معركة أُحد ولم يُقبل كذلك، فرجع هو وأقرانه وعيونهم تفيض من الدمع وقلوبهم مملوءة بالحزن، وعندما وصل إلى الخامسة عشرة عُدّ راشدًا وسمح له الرسول ﷺ بالاشتراك في معركة الخندق.[1]

ينقل ابن خَلِّكان في كتابه وفيات الأعيان هذه الحادثة عن الإمام الشعبي:

لقد رأيت عجبًا، كنا بفناء الكعبة أنا وعبد الله بن عمر وعبد الله بن الزبير ومصعب بن الزبير وعبد الملك بن مروان، فقال القوم بعدما فرغوا من صلاتهم: ليقم رجل رجل منكم فليأخذ الركن اليماني وليسأل الله حاجته فإنه يعطى من ساعته، قم يا عبد الله بن الزبير فإنك أول مولود ولد في الهجرة، فقام وأخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللّٰهم إنك عظيم تُرجى لكل عظيم، أسألك بحرمة عرشك وحرمة وجهك وحرمة نبيك عليه الصلاة والسلام، أن لا تميتني حتى توليني الحجاز ويسلّم عليّ بالخلافة. وجاء حتى جلس، فقال: قم يا مصعب. فقام حتى أخذ الركن اليماني فقال: اللّٰهم إنك رب كل شيء وإليك يصير كل شيء أسألك بقدرتك على كل شيء أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني العراق وتزوجني سكينة بنت الحسين وجاء حتى جلس، فقال: قم يا عبد الملك. فقام وأخذ بالركن اليماني وقال: اللّٰهم رب السموات السبع ورب الأرض ذات القفر، أسألك بما سألك عبادك المطيعون لأمرك، وأسألك بحرمة وجهك، وأسألك بحقك على جميع خلقك، وبحق الطائفين حول بيتك أن لا تميتني من الدنيا حتى توليني شرق الأرض وغربها ولا ينازعني أحد إلا أتيت برأسه، ثم جاء حتى جلس فقال: قم يا عبد الله بن عمر، فقام حتى أخذ بالركن اليماني، ثم قال: اللّٰهم إنك رحمن رحيم، أسألك برحمتك التي سبقت غضبك، وأسألك بقدرتك على جميع خلقك، أن لا تميتني من الدنيا حتى توجب لي الجنة.

قال الشعبي: فما ذهبت عيناي من الدنيا حتى رأيت لكل رجل ما سأل، وبُشِّرَ عبد الله بن عمر بالجنة ورؤيت له.[2]

لم يكن ابن عمر معارضًا لآل البيت في أي وقت من الأوقات وبأي حال من الأحوال، ولم يلتزم جانب الأمويين، بل كان الحَجّاج على الأخص يخشى منه ويوجس منه خيفة.

---

[1] البخاري، المغازي ٦؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٤٣/٤.

[2] وفيات الأعيان لابن خلكان، ٣٠/٣.

وفي إحدى المرات أطال الحَجّاج خطبته (لعله كان يريد تبرير وتسويغ إجراآته الظالمة) حتى كادت تفوت صلاة الظهر، فقام ابن عمر من مكانه وقال: أيها الرجل الصلاةَ فاقعد، إن الشمس لا تنتظرك (كررها ثلاثا). فقال للجماعة في الرابعة: أرأيتم إن نهضتُ أتنهضون؟ قالوا: نعم. فنهض فقال: الصلاةَ، فإني لا أرى لك فيها حاجة. فنزل الحجاج فصلى ثم دعا به فقال: ما حملك على ما صنعت؟ قال: إنما نجيء للصلاة فإذا حضرت الصلاة فصلّ بالصلاة لوقتها ثم بَقْبِقْ بعد ذلك ما شئت من بقبقة.[١]

فاغتاظ منه الحَجّاج ولكنه أسرّ غيظه. وفي موسم من مواسم الحج وبينما هذا الصحابي الجليل محرم في الحرم الشريف قام أحد رجال الحجاج بطعنه في رجله برمح مسموم، وأدى جرح هذا الرمح المسموم إلى استشهاد هذا الرجل العظيم.[٢]

د. عبد الله بن مسعود رضي الله عنه

وعبد الله بن مسعود أحد الصحابة الذين رووا أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ وهو من السابقين الأولين. كان غلاما يافعا يرعى غنما لعُقبة بن أبي مُعيط،[٣] وعندما تعرف على سيد الخلق وراعيها لازمه ولم يفارقه. وكان كثير من الناس يحسبونه من آل بيت النبي ﷺ وذلك لكثرة تردده على بيت النبي ﷺ.[٤] وكان يلقب بـ"صاحب النَعْلَيْن والوِساد والمِطْهرة" لأنه كان في الأسفار ينقل نعلي رسول الله ﷺ ووساده وقربة مائه.[٥] كان رسول الله ﷺ يدعوه بـ"ابن أم عبد" وكان يقول: «من أحب أن يقرأ القرآن غَضًّا كما أُنزلَ فليقرأه على قراءة ابن أم عبد.»[٦]

ويروي أنه قال له رسول الله ﷺ: «اقرأ عليّ.» فقلت: آقرأ عليك وعليك أنزل؟ قال: «فإني أُحب أن أسمعه من غيري.» فقرأت سورة النساء حتى بلغت ﴿فَكَيفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاَءِ شَهِيدًا﴾ (النساء:٤١). قال: «أمسِكْ» فإذا عيناه تَذرِفان.[٧]

كان ابن مسعود نحيفًا ضامر البنية، وفي يوم أمره رسول الله ﷺ أن يصعد شجرة فيأتيه

---

[١] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٤٤/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٩/٤.

[٢] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٤٤/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٨٧/٤.

[٣] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٨٥/٣؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٠/٣.

[٤] البخاري، المناقب ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١٠؛ الترمذي، المناقب ٣٧.

[٥] البخاري، فضائل الصحابة ٢٧؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٥٣/٣.

[٦] ابن ماجه، المقدمة، ١١؛ المسند للإمام أحمد، ٧/١؛ المستدرك للحاكم، ٣١٨/٣.

[٧] البخاري، تفسير سورة (٤) ٩؛ مسلم، صلاة المسافرين ٢٤٧؛ الترمذي، تفسيرسورة (٤) ١١.

بشيء منها فنظر أصحابه إلى حموشة ساقيه فضحكوا منها. فقال النبي ﷺ: «مم تضحكون؟» قالوا: يا نبي الله من رقة ساقيه. فقال: «والذي نفسي بيده لهما أثقل في الميزان من أُحد.»[١] وعندما أرسله عمر بن الخطاب ﷺ إلى الكوفة معلمًا ومحاسبًا كتب إليهم: "إني والله الذي لا إله إلا هو آثرتكم به على نفسي فخذوا منه."[٢]

بقي ابن مسعود ﷺ في الكوفة في عهد عمر بن الخطاب ﷺ. وفي الجو العلمي الذي أشاعه في الكوفة نشأ علماء أجلاء أمثال علقمة بن قيس -الذي قال أبو حنيفة في حقه: إنه ليس بدون ابن عمر في الفقه-[٣] والأسود بن يزيد النخعي وإبراهيم بن يزيد النخعي وغيرهم من كبار علماء وأئمة التابعين. وقد استقى علقمة أكثر علمه من ابن مسعود، وقد سأله أحدهم مرة: من أين استقيت هذا؟ فقال: عن عمر وعثمان وعلي وابن مسعود، فقال السائل: بخ بخ!!

بقي ابن مسعود في الكوفة بعضًا من عهد عثمان ﷺ، ثم استدعي إلى المدينة للتحقيق معه حول شكاية كيدية. كان قد تقدم في العمر، لذا فضل البقاء في المدينة ولم يرجع إلى الكوفة. وفي أحد الأيام جاءه رجل مسرعًا وقال له: لقد رأيت رسول الله ﷺ في منامي وكنتَ أنت جالسًا بجانبه فالتفتَ إليك، وقال بأنك قد قاسيت بعده كثيرًا، وقد آن لك أن تأتيه. فقلتَ: أجل، يا رسول الله! لن أفارق المدينة بعد الآن.

بعد مضي عدة أيام مرض ابن مسعود ﷺ الذي كان من أوائل المسلمين والذي كان من أبرز طلاب مدرسة رسول الله ﷺ فجاءه عثمان بن عفان ﷺ -الذي لازم رسول الله ﷺ وصلى معه إلى القبلتين وشهد معه معظم المشاهد- عائدا وقال له:

- ما تشتكي؟
- ذنوبي.
- فما تشتهي؟
- رحمة ربي.
- ألا آمر لك بطبيب؟
- الطبيب أمرضني.

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/١٥٥.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٣/١٥٧.

[٣] عقود الجواهر المنيفة للزبيدي، ١/١٠٢.

- ألا آمر لك بعطائك؟ -وكان قد تركه سنتين-

- لا حاجة لي فيه

- يكون لبناتك من بعدك.

- أتخشى على بناتي الفقر؟ إني أَمَرت بناتي أن يقرأن كل ليلة سورة الواقعة، وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «من قرأ الواقعة كل ليلة لم تصبه فاقة أبدًا»،[1] وتوفي ابن مسعود ﷺ.

وقد روى ابن مسعود ﷺ ٨٠٠ حديثًا بعد ملازمة لرسول الله ﷺ دامت ثلاثًا وعشرين سنة.. والآن ما رأيكم فيمن يطعن في مثل هذا الصحابي الجليل؟

بعد أن أعطينا بعض المعلومات عن هؤلاء الصحابة الأربعة الكبار، سنعطي معلومات مختصرة جدًا عن عائشة الصديقة وأبي سعيد الخدري وجابر بن عبد الله وأنس بن مالك ﷺ باعتبارهم من الصحابة الذين رووا أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ لكي ننتقل بعد ذلك إلى التابعين العظام.

هـ. عائشة الصديقة رضي الله عنها

فتحت عينيها في بيت النبوة، إذ دخلت بيت النبي ﷺ بعد الهجرة بقليل وقضت مع رسول الله ﷺ عشرة أعوام. وقد تعلمت أمنا عائشة رضي الله عنها التي كانت مثال الذكاء والفطنة عن رسول الله ﷺ كل ما يتعلق من أمور تخص عالم النساء وأمورهن، ونقلت إليهن ما تعلمته دون أي تقصير. وعالم النساء مدين إلى الزوجات الطاهرات لرسول الله ﷺ بالشيء الكثير ولاسيما لأمنا عائشة رضي الله عنها التي جاء في حقها حديث ضعيف من ناحية السند وهو حديث: «خذوا شطر دينكم عن هذه الحُميراء.»[2]

ولا يوجد هناك أي مانع ولا أي استبعاد أو استغراب لقيامها برواية أحاديث كثيرة عن الرسول ﷺ لأنها كانت امرأة ذكية فطنة، ولها قابلية الاجتهاد. وكانت تميل إلى تحقيق كل شيء وتستقصى وتستفسر عنه. ولكون كثير من المحققين العظام كتبوا كل شيء عنها فإني أحيل القراء إليهم.

---

[1] البداية والنهاية لابن كثير، ١٨٣/٧.

[2] البداية والنهاية لابن كثير، ١٠٠/٨؛ الأسرار المرفوعة لعلي القاري، ص١١٦؛ كشف الخفاء للعجلوني، ٣٧٤/١؛ الفوائد المجموعة للشوكاني، ص٣٩٩؛ الفردوس للديلمي، ١٦٥/٢.

و. أبو سعيد الخدري (سعد بن مالك) ﷺ

عد في زمانه أعلم العلماء ومرجع العلم في المدينة.. كان والد هذا الصحابي الفقير من أوائل الأنصار.. وبعد أن استشهد والده في معركة أُحد بقي وحده ولازم رسول الله ﷺ.[١] كان يقضي أيامه -مثله في ذلك مثل أبي هريرة ﷺ- في الصفة ويتابع الوحي النازل ويتدارسه ويعيش في فيض النبوة الأحمدية. عاش كأي صحابي آخر في رشد واستقامة ورأينا فيه هو مثل رأينا في أي صحابي جليل.

ز. جابر بن عبد الله ﷺ

هو ابن الصحابي الكبير عبد الله بن عمرو بن حرام الأنصاري الذي شهد بيعة العَقَبة الثانية ثم كان من الشهداء الكرام لمعركة أُحد والذي واجهه الله كفاحًا -أي دون وجود حجاب بينهما- بعد استشهاده.[٢] بعد بيعة العَقَبة الثانية لم يسمح له والده بالاشتراك في معركة بدر وأُحد لأن الرسول ﷺ أذن له حين ذَكر أن أباه أمره بالمقام في المدينة على إخوته[٣] غير أنه بدأ بملازمة الرسول ﷺ في الحضر والسفر بعد معركة أُحد وكان من المقربين إليه،[٤] لذا، فحفظه وروايته لكثير من الأحاديث النبوية شيء طبيعي وليس هناك ما يُستغرب في هذا الموضوع.

لذا، نرى الناس يتحلقون حوله عندما ذهب إلى الشام ومصر لكي يسمعوا منه أحاديث رسول الله ﷺ، كما كانت له حلقة دراسة في المسجد النبوي في المدينة. وظهر من بين طلابه علماء كبار أمثال عمرو بن دينار ومجاهد وعطاء بن أبي رباح.[٥]

ح. أنس بن مالك ﷺ

خدم رسول الله ﷺ عشر سنوات كاملة.[٦] ولأنه استطاع حفظ القرآن الكريم بأكمله في ستة أشهر، لذا كان باستطاعته حفظ ما يقارب عشرين ضعفًا من القرآن طوال هذه السنوات، غير أننا نرى أن مجموع الأحاديث الموجودة لدينا والتي حواها "كنز العمال"

---

[١] أسد الغابة لابن الأثير، ٣٦٥/٢؛ الإصابة لابن حجر، ٣٥/٢.

[٢] الترمذي، تفسير سورة (٣) ١٨؛ ابن ماجه، المقدمة، ١٣، الجهاد ١٦.

[٣] البداية والنهاية لابن كثير، ٦٥/٣.

[٤] أسد الغابة لابن الأثير ٣٠٧/١.

[٥] الإصابة لابن حجر، ٢١٣/١.

[٦] البخاري، الأدب ٣٩؛ مسلم، الفضائل ٥١؛ الإصابة لابن حجر، ٧١/١؛ أسد الغابة لابن الأثير، ١٥٢/١.

هو ٤٦٦٢٤ حديثًا فقط، علمًا بأن ذكر الأسانيد هو الذي يزيد من حجم كتب الأحاديث.

الخلاصة:لم تكن غايتنا هنا تناول حياة هؤلاء الصحابة بالشرح أو التغني بفضائلهم، بل الإشارة إلى فساد عقلية من حاول الافتراء عليهم وكيل التهم جزافًا لهم. وجهدنا هنا كان جهد المقل، وعلى أي حال فإن نية المؤمن خير من عمله.. وقد أردنا بعلمنا المتواضع هذا أن ننال شفاعتهم، ورحمة الله وسعت كل شيء.

ب) التابعون العظام

مثلما ذكر القرآن الكريم الصحابة، ذكر التابعين أيضًا. فمثلاً نقرأ الآية الآتية: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التوبة:١٠٠).

تتناول هذه الآية الصحابة والتابعين، وتقول عنهم إن الله رضي عنهم وأنهم رضوا عنه. والرضا عن الله يأتي بمعنى أنه سواء أجاء من الله ضر أو نفع لهم فهم يتقبلون كل شيء عن الله تعالى برضاء كامل وتقبل تام. أي أن سلوكهم وتصرفاتهم لا تتبدل إن أعطاهم الله ملك الدنيا أو سحب هذا الملك منهم. لا يغترون إن ربحوا الدنيا وكسبوها ولايركبهم الهم والغم إن أصابتهم الخسارة والبلايا، بل يبقون على خط الاستقامة على الدوام ويستقبلون جميع المصائب وكأنها عطايا وألطاف. فالله تعالى يرضى عن أمثال هؤلاء الذين يرضون بكل ما يأتيهم من الله. لذا، يمكن القول بأن مؤشر رضا الله أو عدم رضاه عن شخص ما هو مدى رضا ذلك الشخص عن الله، فبدرجة رضا الشخص عن الله وحبه له يكون رضا الله عنه وحبه له بل يكون أكثر رضا وأكبر حبًا. لذا، حاول التابعون الكرام التشبه بالصحابة الكرام الذين انصبغوا بالصبغة المحمدية، ومحاولة اللحاق بهم في عمق علاقتهم بالله تعالى وفي عمق خشوعهم في الصلاة حيث ترتعد أبدانهم وتصفر وجوههم عندما يقفون للصلاة.

يقول الرسول ﷺ: «طوبى لمن رآني وآمن بي، وطوبى لمن رأى من رآني.»[1] والآية السابقة تذكر أن التابعين تبعوا الصحابة الكرام بإحسان. فما معنى الإحسان؟ وما معنى الاتباع بإحسان؟

من معاني الإحسان أن تعتبر الآخرين مثلك، فتشاركهم وجدانيًا في أفراحهم وفي

---

[1] المسند للإمام أحمد، ٧١/٣، ٢٤٨/٥، ٢٥٧؛ مجمع الزوائد للهيثمي، ٢٠/١٠؛ المطالب العالية لابن حجر، ١٥٦/٤؛ المستدرك للحاكم، ٨٦/٤.

آلامهم، وأن تحمل في قلبك النية الصافية والنية الحسنة، وألا تحمل في قلبك أي غل أو حقد على مؤمن، والقرآن الكريم يقول: ﴿وَالَّذِينَ جَاؤُوا مِنْ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلاً لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَؤُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (الحشر:١٠).

والمعنى الآخر للإحسان هو: «أن تَعْبد الله كأنك تراه، فإن لم تكن تراهُ فإنّه يراك.»[١] أي أن تقوم بوظيفة عبوديتك لله وكأنك تراه، ثم يسري شعور في كيانك بأنك إن لم تكن تراه فإنه يراك ويراقب أعمالك. وإشارة القرآن الكريم إلى أن التابعين اتبعوا الصحابة بإحسان لها دلالات ومعانٍ كثيرة، ذلك لأن الفضيلة المطلقة مع كونها تعود إلى الصحابة الكرام إلا أن بعض التابعين قد يصلون في بعض الفضائل الخاصة إلى مرتبة الصحابة بل حتى قد يفوقونهم في بعض الفضائل كما قلنا وليس في كلها، وذلك على قاعدة "رجحان المرجوح على الأرجح"، وذلك لإن الله تعالى هز الناس في عهد التابعين بفتن كبيرة هزًا عنيفًا، وانتشرت نار هذه الفتن داخل كل دار تقريبًا. وقام اليهود آنذاك -كما هو ديدنهم في كل عهد- بوضع المؤامرات وتأجيج نار الفتنة، ولم يملك أصحاب القلوب النظيفة والضمائر الطاهرة أمام هذه الفتن إلا الالتجاء إلى الله تعالى وترديد قوله: ﴿رَبَّنَا عَلَيْكَ تَوَكَّلْنَا وَإِلَيْكَ أَنَبْنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾ (الممتحنة:٤). حتى ظهر من بين هؤلاء التابعين العظام من كان يصلي في اليوم ألف ركعة ومن كان يختم القرآن في أربعة أيام، بل من يختم القرآن في ركعتين في الليل، ومن لم تفته صلاة الجماعة في حياته كلها وقضى حياته في العبادة.

ثم إن الجهاد بالسيف قلّ في عهد التابعين وأغمدت السيوف في أغمادها، وبدأ عهد "الجهاد الأكبر" وهو جهاد النفس الأمّارة للانتقال منها إلى مرتبة النفس اللوّامة ومنها إلى النفس الراضية ثم إلى النفس المَرضيّة ومنها إلى النفس المطمئنة ثم إلى النفس الصافية لكي ينطبق عليهم قول الله تعالى: ﴿رَضِيَ اللهُ عَنْهُم وَرَضُوا عَنْهُ﴾ (البينة:٨).

كان هذا هو ساحة كفاح التابعين وجهادهم إلى درجة أن مسروقًا عندما حج لم ينم إلا ساجدًا على وجهه حتى رجع.[٢] وعندما مرض قيل له: لو أنك قصرت عن بعض ما تصنع من العبادة، قال: "والله لو أتاني آتٍ فأخبرني أن الله لا يعذبني لاجتهدت في العبادة."[٣] قال

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٣١) ٢؛ مسلم، الإيمان ٥-٧؛ أبو داود، السنة ١٦.

[٢] حلية الأولياء لابي نعيم، ٩٥/٢؛ صفة الصفوة لابن الجوزي ١٤/٢.

[٣] صفة الصفوة لابن الجوزي، ١٤/٢.

هذا لأن سيده الرسول ﷺ قال الشيء نفسه لعائشة رضي الله عنها: «يا عائشة! أفلا أكون عبدًا شكورًا؟.»[١]

كان الصحابة الكرام يطلبون من السلطان المعنوي لليَمَن "أُوَيْس القَرْنِي" -الذي يُعد أكبر التابعين وأعظمهم- الدعاء لهم. ذلك لأن الرسول ﷺ قال مرة في مجلس حضره عمر بن الخطاب ﷺ أيضًا: «إن خير التابعين رجل يقال له أُوَيْس. وله والدة، وكان به بياض، فمروه فليستغفر لكم.»[٢]

وقد تغلغل هذا الحديث في نفس عمر ﷺ إلى درجة أنه كان إذا أتى عليه أمداد[٣] أهل اليمن سألهم: أفيكم أويس بن عامر؟ حتى أتى على أويس. فقال: أنت أُويس بن عامر؟ قال: نعم. قال: من مُرادٍ ثم من قَرَن؟ قال: نعم. قال: فكان بك برص فبرأت منه إلا موضع درهم؟ قال: نعم. قال: لك والدة؟ قال: نعم. قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول: «يأتي عليكم أُوَيْس بن عامر مع أمداد أهل اليمن من مراد، ثم من قَرْن. كان به برص فبرأ منه إلا موضع درهم، له والدة هو بها بَرٌّ، لو أقسم على الله لأبره، فإن استطعت أن يستغفر لك فافعلْ.» فاستغْفِرْ لي. فاستغفَرَ له. فقال له عمر: أين تريد؟ قال: الكوفة. قال: ألا أكتب لك إلى عاملها؟ قال: أكون في غَبْراء الناس[٤] أحب إليّ. إذن، فصحابي كبير مثل عمر ﷺ -الذي كان من المستحيل الوصول إلى كعبه في بعض الفضائل لأنه صحابي، والصحابة يأتون بعد الأنبياء- يطلب من أويس القرني الدعاء له. وكان يوصي من يذهب إلى اليمن أو إلى الحج أن يبحثوا عن أويس ويطلبوا منه الدعاء لهم. وقد انزعج أويس من شهرته هذه، لذا نراه سرعان ما يُفقد أثره ويختفي عن الأنظار بعد أن أفشى لعمر ﷺ السر الذي بينه وبين الله.[٥] اختفى عن الأنظار لأن "الموت يأتي بغتة والقبر صندوق العمل."

هؤلاء التابعون العظام البعيدون كل البعد عن كل كذب، والمخلصون أشد الأخلاص، والذين بلغوا في الأمانة والاستقامة مرتبة عالية لا تدانى أمثال أويس القرني ومسروق وابن سيرين ومحمد بن المنكدر.. هؤلاء هم الذين نقلوا السنة إلينا.

كان محمد بن المنكدر -الذي راجعه كل إمام من أئمة الحديث- من الأواهين المنيبين،

---

[١] البخاري، تفسير سورة (٤٨) ٢؛ مسلم، صفات المنافقين ٧٩-٨١.

[٢] مسلم، فضائل الصحابة ٢٢٣-٢٢٤؛ المسند للإمام أحمد، ٣٨/١، ٣٩.

[٣] الأمداد: هم الجماعة الغزاة الذين يمدون جيوش الإسلام في الغزو.

[٤] أي ضعافهم وأخلاطهم الذين لا يؤبه بهم.

[٥] مسلم، فضائل الصحابة ٢٢٥.

وكان يعرف في عصره وفي العصور التالية من بعده بلقب البَكّاء لكثرة بكائه من مخافة الله ومهابته، وكان الناس يعجبون لبكائه.. لماذا يبكي هذا الرجل الذي لم يشاهد أنه اقترف أي ذنب في حياته؟

ولكن كانت عنده في الحقيقة أمور كثيرة تستوجب البكاء: مخافة الله ومهابته، عجز العبد وفقره وضآلته أمام عظمة خالقه، وجود يوم يحاسب فيه الإنسان على ما قدمت يداه، حقيقة وجود الحشر حيث تتطاير فيه الصحف، واضطرار الإنسان للسير على الصراط فوق ألسنة نار جهنم. أجل، كان يبكي من هذا.. كان وكأنه داود عليه السلام الثاني يُسمع الإنسانية أنينه وبكاءه.

عندما حضرته الوفاة جزع جزعًا كبيرًا فسألوه عن سبب جزعه فقال: "أخشى آية من كتاب الله عز وجل قال الله تعالى: ﴿وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ﴾ (الزمر:٤٧) وإني أخشى أن يبدو لي من الله ما لم أكن أحتسب."[1]

كان سعيد بن جبير من تلاميذ ابن عباس.. وقد وقف مع عبد الرحمن الكندي ضد ظلم الأمويين واستشهد على يد الحَجّاج بن يوسف الثقفي الظالم. لم ينحن أبدًا أمام الباطل، لأنه كان شخصًا ربانيًا لا يهمه سوى الدار الآخرة، لذا وقف بكل جرأة في وجه الحكام الأمويين يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر دون خوف أو وجل. كان راهبًا في الليل فارسًا في النهار، درس القرآن الكريم وتعلم المقاصد الإلهية من ابن عباس رضي الله عنهما حبر الأمة الذي نقل إليه فهم المرشد الأكمل رسول الله ﷺ لمعاني القرآن الكريم.

وعندما أمر الحَجّاج بن يوسف بإحضاره قام سعيد بن جبير مع رجال الحجاج حتى انتهوا إلى صومعة راهب في غاب. فقال لهم راهب الصومعة: يا معشر الفرسان اصعدوا الدير، فإن اللبوة والأسد يأويان حول الدير، فعَجِّلوا الدخول قبل المساء. ففعلوا ذلك وأبى سعيد أن يدخل الدير. فقالوا: ما نراك إلا وأنت تريد الهرب منا. قال: لا، ولكن لا أدخل منزل مشرك أبدا. قالوا: فإنا لا ندعك، فإن السباع تقتلك. فقال سعيد: لا ضير إن معي ربي فيصرفها عني ويجعلها حرسا حولي يحرسونني من كل سوء إن شاء الله.

فدخلوا وتركوه في الخارج فإذا بلبوة قد أقبلت، فلما دنت من سعيد تحاكت به وتمسحت به ثم ربضت قريبا منه، وأقبل الأسد فصنع مثل ذلك، فلما رأى الراهب ذلك وأصبحوا نزل إليه فسأله عن شرائع دينه وسنن رسوله محمد ﷺ ففسرر له سعيد ذلك كله، فأسلم الراهب وحسن إسلامه، وأقبل القوم على سعيد يعتذرون إليه، ويقبّلون يديه ورجليه،

---

[1] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٤٦/٣.

ويأخذون التراب الذي وطئه بالليل ليصلوا عليه، فقالوا: يا سعيد، قد حلفنا الحجاج بالطلاق والعتاق إن نحن رأيناك لا ندعك حتى نشخصك إليه، فمرنا بما شئت. قالوا: امضوا لأمركم فإني لائذ بخالقي ولا راد لقضائه.

فقالوا بجماعتهم: يا خير أهل الأرض، ليتنا لم نعرفك ولم نسرح إليك، الويل لنا ويلا طويلا، كيف ابتلينا بك؟ اعذرنا عند خالقنا يوم الحشر الأكبر، فإنه القاضي الأكبر العدل الذي لا يجور. فلما فرغوا من البكاء والمجاوبة والكلام فيما بينهم قال كفيله: أسألك بالله يا سعيد لما زودتنا من دعائك وكلامك، فإنا لن نلقى مثلك أبدا ولا نرى أنا نلتقي إلى يوم القيامة. ففعل ذلك سعيد بن جبير.

فجاءوا به إلى الحجاج فقال له: ما اسمك؟ قال: سعيد بن جبير. قال: أنت الشقي بن كُسَيْر؟ قال: بل كانت أمي أعلم باسمي منك. قال: شقيتَ وأمَّك. قال: الغيب يعلمه غيرك. قال: لأبدلنك بالدنيا نارا تلظى. قال: لو علمت أن ذلك بيدك لاتخذتك إلها. فقال: فما قولك في محمد؟ قال: نبي الرحمة إمام الهدى عليه الصلاة والسلام. قال: فما قولك في عليّ في الجنة هو أو في النار؟ قال: لو دخلتُها فرأيت أهلها عرفت من فيها. قال: فما قولك في الخلفاء؟ قال: لست عليهم بوكيل. قال: فأيهم أعجب إليك؟ قال: أرضاهم لخالقي. قال: فأيهم أرضا للخالق؟ قال: علم ذلك عند الذي يعلم سرهم ونجواهم. قال: أبَيْتَ أن تصدقني. قال: إني لم أحب أن أكذبك. قال: فما بالك لم تضحك؟ قال: وكيف يضحك مخلوق خلق من الطين، والطين تأكله النار. قال: فما بالنا نضحك؟ قال: لم تستو القلوب.

ثم أمر الحَجّاج باللؤلؤ والزبرجد والياقوت فجمعه بين يدي سعيد بن جبير. فقال له سعيد: إن كنت جمعت هذه لتفتدي به من فزع يوم القيامة فصالح، وإلا ففزعة واحدة تذهل كل مرضعة عما أرضعت، ولا خير في شيء جمع للدنيا إلا ما طاب وزكا.

ثم دعا الحجاج بالعود والناي، فلما ضرب بالعود ونفخ في الناي بكى سعيد ببن جبير. فقال: ما يبكيك؟ هو اللهو. قال سعيد: بل هو الحزن، أما النفخ فذكرني يوما عظيما يوم ينفخ في الصور، وأما العود فشجرة قطعت في غير حق، وأما الأوتار فإنها معاء الشاء يبعث بها معك يوم القيامة. فقال الحجاج: ويلك يا سعيد. فقال سعيد: الويل لمن زحزح عن الجنة وأدخل النار. فقال الحجاج: اختر يا سعيد أي قتلة تريد أن أقتلك؟ فقال: اختر لنفسك يا حجاج، فوالله ما تقتلني قتلة إلا قتلك الله مثلها في الآخرة. قال: أفتريد أن أعفو عنك؟ قال: إن كان العفو فمن الله، وأما أنت فلا براءة لك ولا عذر. قال: اذهبوا به فاقتلوه.

فلما خرج من الباب ضحك فأخبر الحجاج بذلك فأمر برده، فقال ما أضحكك؟ قال: عجبت من جراءتك على الله وحلم الله عنك. فأمر بالنطع فبسط، فقال: اقتلوه فقال سعيد: ﴿وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِي فَطَرَ السَّمَاوَاتِ وَالأَرْضَ حَنِيفًا وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ (الأنعام:٧٩). قال: شدوا به لغير القبلة. قال سعيد: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ﴾ (البقرة:١١٥). قال: كبوه لوجهه. قال سعيد: "منها خلقناكم وفيها نعيدكم ومنها نخرجكم تارة أخرى." قال الحجاج: اذبحوه. قال سعيد: أما إني أشهد وأحاج أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له وأن محمدا عبده ورسوله، فذبح على النطع رحمه الله.[١]

عن طريق مثل هؤلاء الأبطال الفدائيين الذين ضحوا بأرواحهم في سبيل قضية واحدة من قضايا السنة النبوية انتقلت إلينا السنة صافية طاهرة لا يخالطها كدر.

ويمكن عد مئات آخرين من أمثال سعيد بن جبير ومحمد بن المنكدر وأويس القرني ومسروق في هذا المجال، ولكن لما كان تناول تاريخ حياة كل عظيم من هؤلاء العظماء خارج موضوع كتابنا هذا، فإننا سنكتفي هنا بإيراد معلومات موجزة جدًا عن حياة بعض الأئمة من التابعين العظام الذين اشتهروا في ساحة الحديث.

١. سعيد بن المسيب

عندما يذكر الحديث والتفسير والفقه في عهد التابعين فإن أول اسم يتبادر إلى الأذهان هو اسم سعيد بن المسيب. ولد سنة خمس عشرة للهجرة في عهد الخليفة عمر بن الخطاب ﷺ، عرف كبار الصحابة من أمثال عثمان وعلي وسعد بن أبي وقّاص وابن عباس وابن عمر وأبي ذر وأبي الدرداء وزيد بن ثابت وأبي هريرة وأبي سعيد وغيرهم رضي الله عنهم.

كان رجل فكر وتأمل، وإمامًا ربانيًا ذا قابلية كبيرة على الحفظ، إذ لم يكن ينسى شيئًا سمعه،[٢] دائم الابتسام، ولكن لم يضحك طوال حياته سوى بضع مرات فقط، عاش في خشية من مهابة الله وقضى عمره وكأنه واقف أمام ربه وخالقه. اشتهر بإيمانه وتقواه واستقامته وبعلمه ولاسيما بعلمه الواسع بالسنة واعترف له بذلك الجميع.

وكما أسس الحسن البصري مدرسته في البصرة في عهد الصحابة، كذلك ظهر سعيد بن

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٤/٢٩١-٢٩٥؛ البداية والنهاية لابن كثير، ٩/١١٦-١١٧.

[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/١٢١.

المسيب في المدينة ووصل إلى مرتبة الإفتاء قبل سن العشرين من عمره،[١] وكان الصحابة ينظرون إليه بإعجاب وإكبار حتى قال عنه عبد الله بن عمر: "لو رأى رسول الله هذا لَسَرّه."[٢] كان هذا هو مبلغ تقدير الصحابة له.

لم تفته صلاة الجماعة وفي الصف الأول مرة واحدة طوال خمسين سنة من عمره. إذ يقول: "ما فاتتني التكبيرة الأولى منذ خمسين سنة، وما نظرت في قفا رجل في الصلاة منذ خمسين سنة."[٣]

هكذا كانت حساسيته وحرصه في العبادة، وكان له الحرص نفسه في اتباع السنة. فقد ورث -كغيره من التابعين- عن رسول الله ﷺ حرصه الشديد على الصلاة وعلى السنة وعلى صلاة الجماعة، ولم يبد أي كسل في هذه الأمور طوال حياته، فقد مرض مرة مرضًا شديدًا في المدينة فأوصاه الأطباء أن يذهب إلى وادي العقيق ويبقى هناك شهرًا كاملاً ليستعيد صحته فقال: فكيف أصنع بالعتمة والصبح؟[٤] أي فكيف أستطيع آنذاك أن ألتحق بصلاة العشاء والصبح. وربما كان بإمكانه أداء هذه الصلوات جماعة في وادي العقيق، ولكن ذلك كان يعني حرمانه من الصلاة في الروضة الطاهرة وجفاء لساكنيها الأطهار ولساكني جنة البقيع.[٥]

كان هشام بن إسماعيل والي المدينة في عهد الخليفة الوليد، فطلب منه مبايعة الخليفة الأموي فرفض ذلك، فضربه هشام ستين سوطًا وسجنه. وقد نصحه الكثير من أئمة التابعين الكبار أمثال مسروق وطاووس وطلبوا منه أن يبايعه بلسانه فقط، فأبى وقال كيف أصنع والناس ينظرون إلينا ويقلدوننا.[٦]

تزوج بنتَ أبي هريرة ﷺ لكي يكون أكثر قرباً من منبع الحديث وأكثر فهماً له. وقد خطب الخليفةُ الأموي عبد الملك بن مروان بنته لابنه هشام، أي أن حاكماً قوياً يحكم دولة سعتها أكثر من سعة تركيا الحالية بـ٢٠-٣١ ضعفًا كان يريد خطبة ابنته إلى ولده الذي سيحكم هذه الدولة المترامية الأطراف. ولكنه رد هذا الطلب ولم يقبله على الرغم من جميع الضغوط. وعندما زادت الضغوط عليه أخذ بنته ذات ليلة وذهب إلى أحد طلابه

---

[١] سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤/٢٢٢-٢٢٤؛ الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/١٢١.

[٢] وفيات الأعيان لابن خلكان، ٢/٣٧٥؛ السنة قبل التدوين لمحمد عجاج الخطيب، ص٤٨٥.

[٣] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/١٦٣.

[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٥/١٣٢؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/١٦٢.

[٥] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٢/١٧٢.

[٦] طبقات الكبرى لابن سعد، ٥/١٢٦.

الفقراء وهو ابن أبي وداعة -وكان ينام في المسجد- وطلب منه أن يتزوجها.[١]

كان هذا الإمام الكبير بعمله هذا أسوة لإمام كبير جاء بعده بعدة قرون وهو بهاء الدين النقشبندي الذي ما أن بلغت ابنته حتى أخذ بيدها وجاء بها صباحًا إلى تكيته ووجد أن الطالب الوحيد الذي أحيا ليلته هو علاء الدين العَطّار فزوجه منها.

وقد روى عن سعيد بن المسيب أئمة كبار أمثال عطاء بن أبي رباح وقتادة ومحمد الباقر -وهو من أحفاد علي ﷺ- ويحيى بن سعيد الأنصاري والزهري. وكان الإمام الشافعي يعد أحاديثه المرسلة -أي الأحاديث التي لم يذكر اسم الصحابي الذي أخذ منه- حجة،[٢] أي كأنه عدّه من الصحابة. هذه هي درجة الثقة والاطمئنان الذي كان يتمتع بها سعيد بن المسيب.

إذن، فقد انتقلت إلينا أفعال الرسول ﷺ وأقواله المباركة عن طريق هذه القنوات الطاهرة، وصلت إلينا السنة المباركة عن طريق أمثال هؤلاء الناس الأمناء الذين كانوا على استعداد للتضحية بأرواحهم في سبيل حديث واحد.. هذه السنة المباركة ستنتقل من جيل إلى آخر حتى يوم القيامة إن شاء الله.

٢. علقمة بن قيس النخعي

عندما تذكر البصرة يرد إلى الذهن الحسن البصري، وعندما تذكر مكة يرد إلى الذهن اسم عطاء بن أبي رباح، وعند ذكر اليمن اسم طاووس بن كيسان، وعند ذكر المدينة اسم سعيد بن المسيب، وعند ذكر الكوفة يرد إلى الذهن اسم علقمة بن قيس النخعي. فهؤلاء هم الأئمة العظام للتابعين الذين كانوا خير خلف للصحابة الكرام.

وعلقمة ﷺ يعد من كبار أئمة الحديث إذ روى الحديث عن مئات من الصحابة الكرام وعلى رأسهم الخلفاء الراشدون. وعاش قريبًا من ابن مسعود ﷺ، كما تلقى العلم عن علي بن أبي طالب ﷺ.

كان تواضعه متناسبًا مع درجة عظمته وسبقه لمعاصريه. وقُدِّر له أن يؤسس مدرسة الكوفة التي كان أبو حنيفة أحد خريجيها، لذا روى عنه جميع أئمة التابعين الذين ظهروا في الكوفة وعلى رأسهم عمرو بن شرحبيل الذي التقى بالعديد من الصحابة الكرام، وكان يقول

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ١٣٨/٥؛ سير أعلام النبلاء للذهبي، ٢٣٤/٤.

[٢] انظر: المراسيل لأبي داود ص، ٣٠؛ علوم الحديث لابن الصلاح، ص٥٣-٥٤.

لمن حوله أحيانًا: "انطلقوا بنا إلى أشبه الناس هَدْيًا وسَمْتًا بعبد الله بن مسعود."[١] أجل، لقد كان علقمة أشبه الناس سلوكًا بعبد الله بن مسعود الذي كان يشبه بالنبي ﷺ في هديه ودَلّه وسَمْته.[٢]

كان ابن مسعود رجلاً نحيفًا، ولكنه كان في صلاته وسجوده أشبه الناس برسول الله ﷺ، وكان علقمة أشبه الناس بابن مسعود، إذ كما كان الرسول ﷺ يقول: «استقرؤوا القرآن من أربعة: من عبد الله بن مسعود -فبدأ به- وسالم مولى أبي حُذيفة وأُبيّ بن كعب ومعاذ بن جبل»[٣] كذلك كان عبد الله بن مسعود يستقرأ علقمة القرآن ويقول له: اقرأ فداك أبي وأمي.[٤]

وكان الإمام الكبير أبو حنيفة الذي ذاع صيت تقواه وزهده معجبًا بعلقمة، ويقول عنه بأنه قد سبق بعض الصحابة في الفقه وفي علم الحديث. وهذا ليس رأينا بل هو رأي إمام كبير مثل الإمام أبي حنيفة الذي يصعب بلوغ كعبه. ولقد شتمه أحدهم مرة شتمًا قبيحًا، فالعهد آنذاك كان عهد فتنة وابتلاء فاستمع إليه علقمة بهدوء ولم يزد في الجواب عليه إلا قراءة الآية الكريمة: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُبِينًا﴾ (الأحزاب:٥٨). قيل له مرة: أمؤمن أنت يا أبا شبل؟ قال: أرجو.[٥]

وقف أمام جميع أنواع الباطل في عهده، ولم يمالئ حكام الأمويين الظالمين، بل حافظ على كرامة الحديث، بل صرف حياته على تنشئة طلابه في الكوفة من أمثال الأسود بن يزيد النخعي وإبراهيم النخعي وحمّاد بن أبي سليمان شيخ الإمام أبي حنيفة واستاذه، وعشرات غيرهم. فكما تلقى الحديث عن مئات من الصحابة كذلك روى عنه الحديث المئات من التابعين. لذا، فهو يعد منشئ مدرسة الكوفة التي خرجت أئمة وعلماء عظماء أمثال النخعي والثوري وأبي حنيفة.

٣. عروة بن الزبير بن العَوّام

كان والده الزبير بن العَوّام ابن صفية بنت عبد المطلب عمة الرسول ﷺ التي كان النبي ﷺ يفتخر بها.[٦] وكان من كبار صحابة رسول الله ﷺ ومن العشرة المبشرين بالجنة. أما

---

[١] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٨٦/٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٨/٢.
[٢] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٨٦/٦.
[٣] البخاري، فضائل أصحاب النبي، ٢٧؛ مسلم، فضائل الصحابة ١١٨.
[٤] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٩٠/٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ٩٩/٢.
[٥] الطبقات الكبرى لابن سعد، ٨٦/٦؛ حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٠٠/٢.
[٦] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١٣.

والدته فهي أسماء أخت السيدة عائشة رضي الله عنها وابنة أبي بكر ﷺ، فكان عروة سليل مثل هذه العائلة الكريمة، فكما كانت أمه تقضي معظم وقتها مع أختها عائشة رضي الله عنها كذلك نشأ عروة في حجر خالته وتعلم منها معنى كل آية ومعنى كل حديث يستفسر منها عنه حتى أصبح مستودع علم. كما استفاد من علم سعيد بن المسيب الذي كان يكبره بسبع أو ثماني سنوات.

ويعد عروة بن الزبير أحد الفقهاء السبعة في عهده. وكل الأحاديث التي روتها أمنا عائشة رضي الله عنها جاءت إلينا عن طريقه، كما روى الحديث عن كثير من الصحابة الكرام أمثال علي بن أبي طالب وابن عمر وابن عباس وأبي أيوب الأنصاري ﷺ أجمعين. كما أخذ عنه مئات من التابعين أمثال قتادة بن دِعامة وابن شهاب الزهري ويحيى بن سعيد الأنصاري وزيد بن أسلم.

كان عروة -مثله في ذلك مثل غيره من كبار الأئمة- تقيًّا ورعًا وزاهدًا من مشاهير الزهاد. كان ربانيًّا بكل ما في هذه الكلمة من معنى. وعندما تقدم به العمر أصيبت أحدى ساقيه بداء الأَكَلَة فلم يجد الأطباء أمامهم سبيلاً سوى التوصية بقطعها، فتردد عروة، ولكن العلة انتشرت فلم يجد بدًّا من الرضا بقطعها، وعندما بدأوا بقطع رجله بالمنشار لم يتأوه أبدًا بل أكتفى بترديد ما قاله موسى عليه السلام في سفره للقاء الخضر عليه السلام: ﴿لَقَدْ لَقِينَا مِنْ سَفَرِنَا هَذَا نَصَبًا﴾ (الكهف:٦٢). ثم دعا بقدمه التي قطعت فقلّبها في يده ثمَّ قال: "أما والذي حملني عليكِ إنَّه لَيعلمُ أنّي ما مَشيتُ بكِ إلى حَرَامٍ أوْ معصيةٍ."[١]

ودخل ابن له الإسطبل يومًا فرفسته دابة فقتلته، فلما سمع عروة بالنبأ قال: "اللّٰهم إنه كان لي أطراف أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت ثلاثة، فلك الحمد. وكان لي بنون أربعة فأخذت واحدًا وأبقيت لي ثلاثة فلك الحمد، وايم الله لئن أخذت فقد أبقيت ولئن أبليت طالما عافيت."[٢] كان عروة حلقة ذهبية من تلك السلسلة الذهبية التي ﷺ وأرضاهم.

٤. محمد بن مسلم بن شهاب الزهري

كان ابن شهاب الزهري الذي يرجع إليه ربع السنة قرشيًا وكان من أصغر التابعين سنًا. خاصم والده مسلم الأمويين ووقف في وجه الحَجّاج، لذا كرهه الأمويون. لذا، فلم يكن

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٧٨/٢.

[٢] حلية الأولياء لأبي نعيم، ١٧٩/٢.

ابن شهاب الزهري من أنصار الأمويين كما ادعى البعض، بل كان شخصًا يرتاب فيه الأمويون ويتوجسون منه خيفة.

حفظ الزهري القرآن الكريم قبل أن يبلغ السابعة من عمره.. أتدرون في كم يوم حفظه؟ لقد حفظه في ثمانية أيام فقط! وفي سن ١٧-١٨ من عمره بلغ مرتبة الاجتهاد والفتوى. وكان مفرط الذكاء حتى أنه قال: "ما استودعت قلبي شيئًا قط فنسيته."[١] لم ينس شيئًا مما تعلمه، ذلك لأن عهده كان عهد تعليم بكل ظروفه وشروطه. إذ حضر في البداية حلقة تدريس سعيد بن المسيب مدة ثمانية أعوام. كما أخذ دروسًا من عُبيد الله بن عبد الله بن عُتبة الذي كان أحد ثلاثة ممن ربوا عمر بن عبد العزيز كما كان يُعد أحد الفقهاء السبعة المشهورين آنذاك. وقال عن نفسه: "مكثت خمسًا وأربعين سنة أختلف من الحجاز إلى الشام ومن الشام إلى الحجاز، فما كنت أسمع حديثًا أستطرفه."[٢]

كان في استطاعته طبعًا في ظرف هذه السنوات الطويلة (٤٥ سنة) أن يحفظ من الأحاديث ومن العلم ما يزيد على حجم القرآن الكريم بعشر مرات، وليس ما روى من الأحاديث التي بلغ حجمها حجم قرآن ونصف فقط، علمًا بأن الزهري كان قد وهب نفسه للحديث.

وقد وصمه البعض بمداهنة الأمويين، وليس هذا صحيحًا إذ لم يعرف المداهنة، ولم يعرف أبوه مسلم بن عبيد الله المداهنة أيضًا لأنه كان امرءً أسلم أمره إلى الله تمامًا، ووقف بجانب عبد الله بن الزبير مجاهدًا الأمويين. وعندما التقى الخليفة عبد الملك بن مروان مع الزهري لأول مرة أشار إلى موقف والده وعاتبه.

صحيح أنه بقي فترة في قصور الأمويين إذ قام بتربية أولاد هشام وتعليمهم، ولم يكن هذا خطأ بل كان خطوة مهمة في سبيل إرشاد هؤلاء الأبناء -الذين سيمسكون بزمام الدولة في المستقبل- إلى الصراط المستقيم وإلى السنة النبوية، وكان هذا من أهم الخدمات التي قدمها الإمام الزهري فأصبح أسوة وقدوة لمن يأتي بعده.

كان الأمويون يشنعون على علي بن أبي طالب ﷺ حتى أنهم أوّلوا الآية التي نزلت لتبرئة أمنا عائشة رضي الله عنها من حديث الإفك وهي: ﴿إِنَّ الَّذِينَ جَاؤُوا بِالإِفْكِ عُصْبَةٌ مِنْكُمْ لاَ تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَكُم بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَكُمْ لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُم مَا اكْتَسَبَ مِنَ الْإِثْمِ وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُمْ لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ (النور:١١).

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣/٣٦٤؛ تذكرة الحفاظ للذهبي، ١/١٠٩.

[٢] البداية والنهاية لابن كثير، ٩/٣٧٥.

أوّلوا هذه الآية فقالوا إن المقصود من "الذي تولى كبره" هو علي بن أبي طالب ﷺ، ولكن الزهري عارض هذا التفسير ولم يرض عن هذا البهتان في حق عليّ ﷺ. لنقرأ الحادثة بلسان الزهري: كنت عند الوليد بن عبد الملك فتلا هذه الآية: ﴿وَالَّذِي تَوَلَّى كِبْرَهُ مِنْهُم لَهُ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ قال: نزلت في علي بن أبي طالب. قال الزهري: أصلح الله الأمير، ليس كذا أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها، قال: وكيف أخبرك؟ قال: أخبرني عروة عن عائشة رضي الله عنها أنها نزلت في عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المنافق.[١] وعندما رأى أن الأمير قد احتد في كلامه وبدأ ينظر إليه شزرًا قال: "لا أبا لك فوالله لو ناداني منادٍ من السماء أن الله قد أحل الكذب ما كذبت."[٢] أجل، إن الشخص المقصود في الآية الكريمة هو عبد الله بن أُبَيّ بن سَلول المنافق وليس علي بن أبي طالب كرم الله وجهه.

أجل، لم يكن الزهري مداهنا للأمويين على الإطلاق، بل يعد الشخص الذي أدخل حب آل البيت إلى قصر الأمويين. والأمر واضح تمامًا، فكما كان أحد علماء الشيعة وهو أبو جعفر الأسكافي أول من اتهم أبا هريرة بالكذب، كذلك كان اليعقوبي -وهو أحد مؤرخي الشيعة- أول من اتّهم الزهري بوضع الحديث. إذ زعم أن عبد الملك بن مروان أراد أن يمنع المسلمين من الطواف حول الكعبة فقام بتعمير المسجد الأقصى في القُدس ورجا من الزهري أن يختلق له حديثًا في هذا الموضوع، فقام الزهري باختلاق الحديث التالي الذي ورد في كتب الحديث الصحاح أمثال صحيح البخاري وصحيح مسلم ومسند بن حنبل: «لا تُشدّ الرحال إلا إلى ثلاثة مساجد: مسجد الحرام، ومسجد الأقصى، ومسجدي هذا.»[٣]

أليس هذا الادعاء مدعاة للسخرية بشكل واضح؟ إذ لا يوجد لا في تاريخ اليهود ولا في تاريخ النصارى أن المسجد الأقصى كان يطاف حوله مثل المسجد الحرام، ولا يوجد أي نص حول هذا. ثم إن المسجد الأقصى كان مقدسًا لدى المسلمين منذ البداية، وقد صرح القرآن الكريم بأن المسجد الأقصى وما حوله مبارك، لذا فلم يكن عبد الملك هو الشخص الوحيد الذي قام بتعميره، بل نرى النبي داود عليه السلام والنبي سليمان عليه السلام وعمر بن الخطاب ﷺ ونور الدين الزنكي وصلاح الدين الأيوبي من بين الذين قاموا بتعميره وتجديده. ثم إن الإمام الزهري لم يقابل الخليفة عبد الملك عندما رأى الحديث ولم يلتق به، لأن والده كان

---

[١] حلية الأولياء لأبي نعيم، ٣٦٩/٣؛ مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور، ٢٤٠/٢٣.
[٢] مختصر "تاريخ دمشق لابن عساكر" لابن منظور ٢٤٠/٢٣.
[٣] البخاري، الصوم ٦٧؛ مسلم، الحج ٥١١.

يحارب عبد الملك بجانب عبد الله بن الزبير، لذا لم يكن من المعقول ولا من المنتظر أن يفارق الزهري أباه ويلتحق بعبد الملك. ثم إن هذه الفرية لم ترد إلا في كتاب اليعقوبي، وهذا أمر مهم يجلب الانتباه، إذ لم يكن من الممكن أن تبقى هذه الحادثة سرًّا في عهد التابعين، أي في عهد كان هناك آلاف من الرجال مستعدين للتضحية بأرواحهم في سبيل أصغر مسألة من مسائل السنة النبوية.

هناك أمر آخر في هذا الموضوع وهو أن عبد الملك لم يكن إنسانًا ساذجًا إلى حد تقديم مثل هذا الاقتراح الغريب. فقبل خلافته كان عالمًا من علماء الحديث في مكة المكرمة، ولا يخطر بباله اقتراف أي حرام، وكان يعرف أئمة الحديث من التابعين، ولكنه لم يستطع المحافظة على حساسيته هذه بعد تنصيبه خليفة. أما الإمام الزهري فقد كان لا يزال طفلاً في حجر والدته في تلك الفترة.

وقد تلقف المستشرق "غولتسهر" فرية اليعقوبي هذه واستغلها واستعملها مع الأسف، وسرت هذه التهمة إلى بعض الكتاب المسلمين ممن انذهلوا أمام الغرب وانبهروا به أمثال أحمد أمين وعلي حسن عبد القادر وأبي ريّة، وقد فضل المستشرقون أمثال جولد تسهير وغيره نبذ الكتب التي تعد المنابع والمصادر الرئيسة للحديث ولعلم الحديث وتوجهوا إلى كتب أدبية ماجنة أمثال "العِقد الفريد" و"الأغاني" مع أن أسماء هذه الكتب تغني عن كل تعليق. وكانت غايتهم من تلويث سمعة أبي هريرة وابن شهاب الزهري وغيرهما من أعمدة الحديث وحاملي لوائه هدم السنة وبالتالي هدم ركن مهم في الإسلام، لذا نعد من تابع هؤلاء المستشرقين قديمًا ومن يتابعهم حاليًا في هذا الموضوع أشخاصًا يخدمون هذه الغاية سواء عن علم وتصميم أو عن جهل وانخداع.

كان الزهري إمامًا كبيرًا من أئمة الحديث، وقد أجمع علماء الحديث العظام الذين جاءوا من بعده على هذا من أمثال ابن المديني وابن حِبّان وابن أبي حاتم والحافظ الذهبي وابن حجر. وبعد وفاة هذا الإمام الكبير وجد علماء المعتزلة أمثال النظّام -الذين خلطوا عقيدتهم في التوحيد ببعض الفلسفات المادية- الساحة فارغة أمامهم فجالوا فيها وصالوا. وعندما قام جولدتسهير وأمثاله من المستشرقين بالاستناد إلى أفكار النظّام وكتب تلميذه الجاحظ مثل "كتاب الحيوان" فقد أثبتوا أنهم لا يدركون طريقة البحث العلمي الجاد والرزين.

أخذ الإمام الزهري الحديث عن عشرات من الصحابة، وأخذ عنه الحديث المئات من

أعلام التابعين وتابعي التابعين، وقام بطلب من الخليفة عمر بن عبد العزيز بأول تدوين رسمي للحديث، فنال هذا الشرف الكبير قبل ارتحاله إلى الدار الآخرة.

وأنا أفضل أن أختم الموضوع هنا، وإلا فقد كان في استطاعتنا التحدث عن كثير من عظماء التابعين من أمثال القاسم بن محمد بن شقيق أمنا عائشة رضي الله عنها والذي يعد أحد الفقهاء السبعة ورأس السلسلة النقشبندية، وعن نافع شيخ الإمام مالك الذي ولد من مرجانة جارية بن عمر الذي عندما سمع آية ﴿لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ (آل عمران:٩٢)، قال: فذكرت ما أعطاني الله ﷻ فلم أجد شيئًا أحب إلي من مرجانة جارية لي رومية إذ أعتقها وزوجها.[١] والتحدث عن طاووس بن كيسان الذي صلى صلاة الصبح أربعين عامًا بوضوء صلاة العشاء،[٢] وعن الأسود بن يزيد النخعي وعن الإمام أبي حنيفة الذي يروى أنه قابل بعض الصحابة[٣] وعن غيرهم.. كان بإمكاننا تناول هؤلاء بالبحث لولا أننا رأينا أن ما ذكرناه يكفي من ناحية الموضوع الذي تناولناه.

---

[١] مجمع الزوائد للهيثمي، ٣٢٦/٦.

[٢] أي أنه بقي أربعين سنة يتعبد في الليل بدءاً من صلاة العشاء حتى صلاة الفجر. (المترجم) وانظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٢/٥.

[٣] سير أعلام النبلاء للذهبي، ٣٩١/٦؛ وفيات الأعيان لابن خلكان، ٤٠٦/٥.

الختام

القرآن الكريم والسنة النبوية ركنان أساسيان من أركان الإسلام، ولا يمكن تصور الإسلام من دون السنة ومن دون الحديث، فالسنة التي هي عبارة عن أحاديث وأفعال وما أقره الرسول ﷺ حفظت ونقشت في القلوب وفي الأذهان منذ عهد الرسول ﷺ ثم حفظت بالتدوين والكتابة. وقام الصحابة الكرام بتنظيم حياتهم وفق هدي السنة ثم نقلوها كما هي دون زيادة أو نقصان إلى التابعين العظام الذين عاشوا عهد فتنة كبيرة لذا، أسسوا حياتهم على الزهد والتقوى، واعتصم الأئمة التابعون العظام -الذين بلغ عددهم الآلاف- بركني الإسلام الهامين وهما القرآن والسنة، حيث نقلوهما إلى الأجيال التي جاءت من بعدهم نقية طاهرة. وكان أهل هذه القرون الثلاثة، أي قرن الصحابة ثم التابعين ثم تابعي التابعين خير القرون حسبما أخبرنا النبي ﷺ.[1]

يروي جابر بن عبد الله ﷺ عن الرسول ﷺ: «فإن خير الحديث كتاب الله وخير الهُدى هُدَى[2] محمدٍ، وشر الأمور محدثاتها وكل بدعة ضلالة.»[3] والآن إليكم بعض الإشارات النورانية في هذا الموضوع: قال الرسول ﷺ: «كل أمتي يدخلون الجنة إلاّ من أبى.» قالوا يا رسول الله ومن يأبى؟ قال: «من أطاعني دخل الجنة ومن عصاني فقد أبى.»[4] ويقول أيضًا: «إنما مَثَلي ومَثَلُ أمتي كمثل رجل استوقد نارًا فجعلت الدوابّ والفراشُ يقعنَ فيه، فأنا آخذُ بحُجَزِكمْ وأنتم تَقَحَّمُون فيه.»[5]

ويقول أيضًا: «لا ألفينّ أحَدَكم مُتّكئًا على أريكته يأتيه الأمر من أمري مما أمرت به أو نهيت عنه فيقول لا ندري، ما وجدنا في كتاب الله اتبعناه.»[6] ونجد في رواية أبي داود التكملة التالية: «ألا إني أُوتيتُ الكتابَ ومثله معه.» أي لقد أعطيت السنة كذلك.

---

[1] البخاري، فضائل أصحاب النبي ١؛ مسلم، فضائل الصحابة ٢١٠-٢١٢.

[2] وضُبط بفتح الهاء وسكون الدال والمعنى "أحسن الطرق". أما الْهُدى فمعناه الإرشاد والدلالة.

[3] مسلم، الجمعة ٤٣؛ النسائي، العيدين ٢٢؛ ابن ماجه، المقدمة، ٧؛ أبو داود، السنة ٥.

[4] البخاري، الاعتصام ٢؛ مسلم، الإمارة ٣٢.

[5] البخاري، الرقاق ٢٦؛ مسلم، الفضائل ١٧، ١٨.

[6] أبو داود، السنة ٥؛ ابن ماجه، المقدمة، ٢؛ الترمذي، العلم ١٠.

ويقول أيضًا: «فإنه من يَعِشْ منكم بعدي فسيرى اختلافًا كثيرًا، فعليكم بسنّتي وسنّةِ الخلفاء الراشدين المهديين تمسكوا بها وعضّوا عليها بالنواجذ، وإياكم ومحدَثات الأمور، فإن كلّ مُحْدثةٍ بدعةٌ وكُلّ بدعةٍ ضلالةٌ.»[١]

وفي رواية وردت في موطأ الإمام مالك -الذي يدخله البعض ضمن الكتب الستة للأحاديث الصحيحة بدلاً من سنن ابن ماجه- عن الرسول ﷺ أنه قال: «تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما مَسَكتم بهما: كتاب الله وسُنّة نبيه.»[٢]

هذه هي السنة عند الله تعالى وعند رسوله الكريم ﷺ.

فإذا كانت هذه هي الحقيقة، وإذا كانت السنة النبوية تقوم منذ أربعة عشر قرنًا بهداية المسلمين وإنارة الطريق أمامهم والقيام بوظيفة الجسر الموصل إلى رضا الله تعالى، وإذا كانت قد انتقلت منذ عهد الرسول ﷺ -مثل القرآن الكريم- شفاهًا وتدوينًا من جيل إلى جيل حتى يومنا هذا فإننا نسأل الذين يحاولون اتهامها وتلويثها من أتباع المستشرقين من الذين لم يملكوا العلم الصحيح والعلم الكافي.. نسألهم بلسان القرآن الكريم: ﴿فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ﴾ (التكوير:٢٦). أجل، فأين تذهبون؟

تم كتاب "النور الخالد"
والحمد الله أولاً وآخرًا.

[١] الترمذي، العلم ١٦؛ ابن ماجه، المقدمة، ٦؛ أبو داود، السنة ٥.
[٢] الموطأ، القدر ٣.

المصادر

القرآن الكريم

«**أسد الغابة**» (١-٧) **لابن الأثير** مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، كتاب الشعب، قاهرة ١٩٧٠ م.

«**أصول السرخسي**» (١-٢) لأبي بطر محمد بن أحمد بن أبي سهل **السرخسي**، دار المعرفة، بيروت ١٩٧٣ م.

«**أعلام النساء**» (١-٥) **لعمر رضا الكحالة**، مؤسسة الرسالة، بيروت.

«**الأدب المفرد**» لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري**، دار البشائر الإسلامية، بيروت ١٩٨٩ م.

«**الأسرار المرفوعة في الأخبار الموضوعة**» **لعلي القاري**، المكتبة الإسلامي، بيروت ١٩٧١ م.

«**الأعلام قاموس تراجم**» (١-٨) لخير الدين **الزركلي**، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٦ م.

«**الإبريز من كلام سيدي عبد العزيز الدباغ**» أحمد بن المبارك، دار الفكر.

«**الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان**» (١-١٨) [تأليف: أبو حاتم محمد بن حبان البُستي -بترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلباني الفارسي- تحقيق وتخريج وتعليق: شعيب الأرنؤط]، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٨ م.

«**الإصابة**» (١-٤) **لابن حجر** العسقلاني، دار صادر، بيروت ١٣٢٨ هـ.

«**الباعث الحثيث شرح اختصار علوم الحديث**» **لأحمد محمد شاكر**، مؤسسة الكتب الثقافية بيروت ١٤٠٨ هـ.

«**البداية والنهاية**» (١-١٤) لأبي الفداء إسماعيل **بن كثير**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٨ م.

«**تأويل مختلف الحديث**» لأبي محمد عبد الله بن مسلم **بن قتيبة**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥ م.

«**تاريخ الأمم والملوك**» (١-١٣) **للطبري**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧ م.

«**تاريخ بغداد أو مدينة السلام**» (١-١٩) لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، دار الكتب العلمية، بيروت.

«**تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي**» (١-١٠) لعبد الرحمن بن عبد الرحيم **المباركفوري**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٩٠ م.

«**تذكرة الأولياء**» (باللغة التركية) **لفريد الدين العطار** [مترجم: سليمان أولوداغ]، نشريات أردم، إستانبول ١٩٩١ م.

«**الترغيب والترهيب**» (١-٥) **للمنذري**، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٦٨ م.

«**تفسير القرآن العظيم**» (١-٨) لأبي الفداء إسماعيل **بن كثير**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٤ م.

«**تفسير النسفي**» (١-٤) أبي البركات عبد الله بن أحمد بن محمود **النسفي**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٤ م.

«**تهذيب التهذيب**» (١-١٤) لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٤م.

«**جامع البيان في تفسير القرآن**» (١-٣٠) لأبي جعفر محمد بن جرير **الطبري**، شركة مكتبة، بيروت ١٩٦٨ م.

«**جامع كرامات الأولياء**» (١-٢) ليوسف بن إسماعيل **للنبهاني**، شركة مكتبة، مصر ١٩٨٤ م.

«**الجامع لأحكام القرآن**» (١-٢٠) **للقرطبي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٨ م.

«**حجة الله على العالمين في معجزات سيد المرسلين**» ليوسف بن إسماعيل **النبهاني**، دار الفكر، بيروت.

«**حلية الأولياء وطبقات الأصفياء**» (١-١٠) لأبي نعيم أحمد بن عبد الله الإصبهاني، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.

«**حياة الصحابة**» (١-٤) محمد يوسف **الكاندهلوي**، دار القلم، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الخصائص الكبرى**» (١-٣) **للسيوطي**، دار الكتب الحديثة، مصر ١٩٦٧ م.

«**الدر المنثور**» (١-٨) لجلال الدين **السيوطي**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الدولة الأموية**» لمحمد **الخضاري**، دار القلم، بيروت ١٩٨٦ م.

«**الرحلة في طلب الحديث**» لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، تحقيق وتعليق: نور الدين عتر، دار المتب العلمية، بيروت ١٩٧٥ م.

«**الرسول**» (١-٢) **لسعيد حوى**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٧١ م.

«**دلائل النبوة**» (١-٧) لأبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٥م.

«**رجال حول الرسول**» لخالد محمد خالد، دار الفكر، دمشق ١٩٩٤ م.

«**روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والمثاني**» (١-٣٠) لأبي الفضل شهاب الدين السيد محمود **الآلوسي**، دار إحياء التراثي العربي، بيروت ١٩٨٥ م.

«**زاد المعاد في هدي خير العباد**» (١-٥) **لابن قيم الجوزية**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٠ م.

«**سنن ابن ماجه**» (١-٢) **لابن ماجه**، دار إحياء كتب العربية، مصر ١٩٥٢ م.

«**سنن أبو داود**» (١-٤) **لأبي داود** سليمان بن أشعث السجستاني، المكتبة الإسلامية، إستانبول.

«**سنن الترمذي**» (١-٥) لأبي عيسى محمد بن عيسى **الترمذي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

«**سنن الدارمي**» (١-٢) لعبد الله بن عبد الرحمن **الدارمي**، دار كتاب العربي، بيروت ١٩٨٧م.

«**السنن الكبرى**» (١-١٠) لأبي بكر أحمد بن الحسين **البيهقي**، مطبعة دائرة المعارف، حيدر آباد ١٣٥٥ هـ.

«**سنن النسائي**» (١-٨) **للنسائي**، دار المعرفة، بيروت ١٩٩٢ م.

«**السنة قبل التدوين**» **لمحمد عجاج الخطيب**، دار الفكر، دمشق ١٩٨١ م.

«**سير أعلام النبلاء**» (١-٢٥) لمحمد بن عبد الله بن عثمان **الذهبي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٩٢ م.

«**السيرة النبوية**» (١-٤) **لابن هشام**، دار القلم، بيروت.

«**شرح فتح القدير للعاجز الفقير**» (١-٩) لكمال الدين **محمد بن عبد الواحد**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

«**شرح معاني الآثار**» (١-٤) لأبي جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك ابن سلمة الأزدي الحجري **الطحاوي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٧ م.

«**الشفاء بتعريف حقوق المصطفى**» (١-٢) لأبي الفضل **القاضي عياض**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٨ م.

«**الشمائل المحمدية والخصائل المصطفوية**» لأبي عيسى محمد بن عيسى بن سورة **الترمذي**، مؤسسة الكتب الثقافية، بيروت ١٩٩٢ م.

«**الصحيح**» (١-٤) **لابن خزيمة** [تحقيق، تعليق وتخريج: مصطفى الأعظمي]، المكتبة الإسلامي، بيروت ١٣١٢هـ/١٩٩٢م.

«**صحيح البخاري**» (١-٨) لأبي عبد الله محمد بن إسماعيل **البخاري**، المكتبة الإسلامية، إستانبول ١٩٧٩ م.

«**صحيح مسلم**» (١-٥) لأبي الحسين **مسلم** بن الحجاج النيسابوري، المكتبة الإسلامي، إستانبول.

«**صفة الصفوة**» (١-٢) لأبي الفرج عبد الرحمن **بن الجوزي**، دار بن خلدون، قاهرة ١٩٩٤م.

«**صيقل الإسلام أو آثار سعيد القديم**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٥ م.

«**الطبقات الكبرى**» (١-٨) **لابن سعد**، دار صادر، بيروت ١٩٦٠ م.

«**علوم الحديث**» لابن الصلاح [تحقيق وشرح: نور الدين عتر]، دار الفكر، دمشق ١٩٨٦ م.

«**عمدة القاري شرح صحيح البخاري**» (١-٢٠) لبدر الدين أبي محمد محمود بن أحمد **العيني**، شركة مكتبة، مصر ١٩٧٢ م.

«**فتح الباري شرح صحيح البخاري**» (١-١٣) لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩ م.

«**الفتح الكبير في ضم زيادة إلى الجامع الصغير**» (١-٣) لجلال الدين **السيوطي**، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٣٢ م.

«**في ظلال القرآن**» (١-٦) لمحمد **سيد قطب**، دار الشروق، بيروت ١٩٨٦ م.

«**فيض القدير شرح جامع الصغير**» (١-٦) لمحمد المدعو بعبد الرؤوف **المناوي**، دار المعرفة، بيروت ١٣٥٧ هـ.

«**الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة**» لمحمد بن علي **الشوكاني**، المكتب الإسلامي، بيروت ١٣٩٢ هـ.

«**الكامل في التاريخ**» (١-١٢) **لابن الأثير** مجد الدين المبارك بن محمد الجزري، دار صادر، بيروت ١٩٦٧ م.

«**كتاب التاريخ الكبير**» (١-١١) لأبي عبد الله إسماعيل بن إبراهيم الجعفي **البخاري**، دار الفكر، بيروت ١٩٨٦ م.

«**كتاب الفقه على المذاهب الأربعة**» (١-٥) لعبد الرحمن **الجزيري**، دار الدعوة، إستانبول ١٩٨٧ م.

«**كتاب المغازي**» (١-٣) لمحمد بن عمر بن واقد السهمي **الواقدي**، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٤ م.

«**كتاب فضائل الصحابة**» (١-٢) للإمام **أحمد بن حنبل**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٣ م.

«**الكشاف**» (١-٤) لأبي القاسم جار محمود بن عمر **الزمخشري** الخوارزمي، شركة مكتبة، مصر ١٩٧٢ م.

«**كشف الخفاء ومزيل الإلباس**» (١-٢) لإسماعيل بن محمد **العجلوني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٤٠٨هـ/١٩٨٨ م.

«**الكفاية في علم الرواية**» لأبي بكر أحمد بن ثابت **الخطيب البغدادي**، دار الكتب العلمية، ١٩٨٨ م.

«**الكلمات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٢ م.

«**كنز العمال**» (١-١٨) لعلاء الدين علي بن حسام الدين المتقي **الهندي**، مؤسسة الرسالة، بيروت ١٩٨٦ م.

«**اللمعات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٣ م.

«**مجمع الزوائد ومنبع الفوائد**» (١-١٠) لنور الدين علي بن أبي بكر **الهيثمي**، دار كتاب العربي، بيروت ١٩٦٧ م.

«**مختصر تاريخ دمشق لابن عساكر**» (١-٢٩) لمحمد بن مكرم المعروف بابن منظور، دارالفكر، دمشق ١٩٨٤ م.

«**مختصر تفسير بن كثير**» (١-٣) لمحمد علي **الصابوني**، دار القرآن العظيم، بيروت ١٩٨١ م.

«**المستدرك**» (١-٥) لأبي عبد الله **الحاكم** النيسابوري، دار المعرفة، بيروت ١٩٨٦ م.

«**المسند الفردوس**» (١-٥) لأبي شجعة شراويه بن شهردار **الديلمي**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٦ م.

«**المسند**» (١-٨) للإمام **أحمد بن حنبل**، المكتب الإسلامي، بيروت ١٩٩٣ م.

«**المسند**» لأبي داود **الطيالسي**، دار المعرفة، حيدر آباد ١٣٣١ هـ.

«**المصنف في الأحاديث والآثار**» (١-٨) لعبد الله بن محمد **بن أبي شيبة**، [تحقيق: سعيد محمد اللحام]، دار الفكر، ١٤٠٥هـ / ١٩٨٩م.

«**المطالب العالية**» (١-٤) **لابن حجر** العسقلاني، دار المعرفة، بيروت.

«**معرفة علوم الحديث**» للحاكم النيسابوري (٤٠٥هـ(، دار الكتب العلمية، بيروت ١٣٩٧هـ/١٩٧٧م..

«**مفاتيح الغيب**» (١-٣٢) لفخر الدين **الرازي**، دار إحياء التراث العربي، بيروت.

«**المكتوبات**» (١-٢) **للإمام الرباني** أحمد الفاروقي السرهندي، نشريات الفضيلة، إستانبول.

«**المكتوبات**» لبديع الزمان **سعيد النرسي**، دار سوزلر، إستانبول ١٩٩٢ م.

«**منهل الواردين شرح رياض الصالحين**» (١-٢) لصبحي صالح، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٠ م.

«**ميزان الإعتدال**» (١-٤) لمحمد بن أحمد بن عثمان **الذهبي**، دار إحياء التراثي العربي، بيروت ١٩٦٣ م.

«**الموطأ**» (١-٢) **للإمام مالك** بن أنس، دار إحياء التراث العربي، بيروت ١٩٨٥ م.

«**نفحات الأنس**» **لعبد الرحمن ملا جامع** [مترجم وشارح: لامعي جلبي]، نشريات المعرفة، إستانبول ١٩٩٥ م.

«**الهداية**» (١-٤) **للمرغناني**، دار قهرمان للنشر والتوزيع، إستانبول ١٩٨٦ م.

«**هدي الساري**» لأحمد بن علي **بن حجر العسقلاني**، دار الكتب العلمية، بيروت ١٩٨٩ م.

«**وفيات الأعيان وأبناء أبناء الزمان**» (١-٨) لمحمد بن أبي بكر **بن خلكان**، دار صادر، بيروت ١٩٧٧ م.